

ذخائر الحرب

٨٢

لطائف المنن

للعارف بالله

إبن عطاء الله السكندري

تحقيق

الدكتور عبد الحليم محمود



دار المعارف

ذخائر العرب

٨٢

لَطَائِفُ الْمَنَنِ

تأليف

العارف بالله : ابن عطاء الله السكندري

تحقيق وتعليق

الإمام الدكتور عبد الحليم محمود

الطبعة الثالثة



دار المعارف

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

ابن عطاء الله السكندري ، أحمد بن محمد بن عبد الكريم،
٥٥ - ١٣٠٩.

لطائف اللحن / تأليف ابن عطاء السكندري - ط ٠٢ - القاهرة
دار المعارف ، ٢٠٠٦.

٢١٢ ص، ٢٤ سم.

تدريج، ٨ - ٦٩٢٢ - ٢ - ٩٧٧

١ - التصوف الإسلامي
٢ - العنوان

ديوى ٣٦٠

١/٢٠٠٦/١٨

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٥٨١١

الناشر ، دار المعارف - ١١٩ كورثيس النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الاهـداء

إلى الأخ الفاضل:

الأستاذ عبد الحليم مجاهد - الذى كرم «ابن
عطاء الله السكندري» فشيّد على ضريحه المبارك قبّة
تتناسب مع مكانة صاحبه، وأقام عنده مسجداً لطيفاً
تشرق على الداخل فيه أنوار الولاية، وأضواء الهداية.

جزى الله الأخ الفاضل أجزل الثواب، ومنحه خير ما
يمنح العاملين للخير ابتغاء وجهه سبحانه.

عبد الحليم محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا إِلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ رَحْمَةً وَهِيئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة. ومن أنفصها كتاب «لطائف المنن». ألّفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندري، الذي جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماؤه الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلماؤه الحقيقة فكان منشعاً متحققاً، بل رأس علماء التشريع وعلماؤه التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضي الله عنه:

هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندراني داراً، القاهري مزاراً، توفي بالقاهرة سنة سبعمئة وتسع في جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه في التصوف وغيره كما قيل:

حلف الزمان لِيَأْتِيَنَّ بمثله حَبِثَتْ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكُفِّرِ

ويذكر الشيخ زروق من تأليفه:

«التنوير في إسقاط التدبير» و«لطائف المنن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد في الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسى، الذي قال عنه القطب الشاذلي:

«إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض».

وقال فيه:

هذا أبو العباس منذ أن عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده¹¹ ويقصّ ابن عطاء الله في كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المنن»، قصة صلته بأبي العباس فيقول:

«كنت لأثمه (أي لأمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا شيء سمعته منه ولا شيء صحّ نقله عنه، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيماً، ثم قلت في نفسي: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأبيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقربهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة.

وثانيها الإيمان: وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

وثالثها الإحسان: وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب.

وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودية.

وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقل وسلب لبي، فلمعت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني: فاذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيتنا يقبل الاجتماع بالأهل على عادي، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبك. فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هوم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها: النعمة واليلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت في اليلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود ميثه عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقامت بين عنده وكأنما كانت المهوم ثوباً نزعته، ثم سألني بعد ذلك بمدة: كيف حالك؟ فقلت: أفنّش عن المم فما أجده، فقال:

ليسلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس سارى
والناس في سُدْف الظلا م ونحن في ضوء النهار

الزم، فوالله لئن لزم لتكون مفتياً في المذهبين: في علوم الظاهر وحقائق الباطن.

وعن هذه الملازمة يروى ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، وخرج معي أبو الحسن الجزيري، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن، فسلمت عليه، فسلم عليّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه يعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، إن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبي العباس، ولزمه، وكانت بينه وبينه أمور توضح شيئاً من صلتها وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلاً ما يدل على أن جد ابن عطاء الله كان فقيهاً معارضاً للنزعة الصوفية.

جاء في لطائف المنن: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يوماً: «إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلموني به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدم، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبه قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش، فسلم عليه ملك الجبال، وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فقلت، فقال رسول الله ﷺ:

لا ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً.

فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاءً من يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على نجد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» اهـ.

ولكن الأمور في الاطمئنان إلى المسلك الصوفي، لم تكن تسير، في كل ظروفها رخاء؛ فإن ابن عطاء الله كان طالباً محياً للعلم مشغولاً بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج في الجو الطلابي إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصرف، ويرى هو القصة كما يلي:

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشق عليّ أن يفوتني العلم، وشق عليّ أن تفوتني صحبة الشيخ رضي الله عنه، فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً بخل، فقلت في نفسي: لبت الشيخ بطعمي لقمة من يده، فما استمتت الحاطر إلا وقد دفع في فمي لقمة في يده، ثم قال: نحن إذا صَحَبْنَا تاجراً ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل أحد فيها أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه، وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لدى صنعة اترك صنعتك، بل أقرهم على أسبَابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينئذ اندمج في جو الأستاذ ولازمه حاول محاولة رده الأستاذ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يوماً وفي نفسي ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة، فقال من غير أن أبدى له شيئاً:

صحبني بقوص إنسان يقال له: ابن ناشيء وكان مدرساً بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا، فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأنفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيها أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنما كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيها أقامني فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبني قيادته إلى المكاة المجدير بها، ويشير إلى ذلك

القضتان التاليتان، يقول ابن عطاء الله:

«وكننت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية، وجعلني في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله: ليكونن لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره».

ويقول: وأخبرني سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف. ودخلت أنا عليه فقال لى:

إذا عوفى الفقيه ناصر الدين مجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتكلم إن شاء الله - في العلمين، فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير في بيان كثير مما يعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى.

وفي بيان الكثير أيضًا مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى جند قلمه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيح وأنجما تهدى السائرين إلى الله تعالى.



والكتاب الذى تقدمه الآن كتاب مبارك، إذ إنه يتحدث عن شخصيتين هما فى القمة من السمو الروحى: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وعن الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمة فى السمو الروحى - فى يوم من الأيام - سهلاً ميسوراً. كلاً. وإنما له شئنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل فى كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منهما فى سبيل الله طيلة حياته.

أما أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لا بدّ منها لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - العبادة.

أما العلم فلائه لا يَد من التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا لما أفلح السالك أبداً.
والتأسى برسول الله ﷺ لا يَد له من دراسة السنة دراسةً متعمقة.

ودراسة السيرة النبوية دراسةً متأملّة.

ورسول الله ﷺ كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتاب الله سبحانه. ومن
هنا كان لا يَد للقرب من الله تعالى، من اتّخاذ القرآن شعاراً وطابعاً وأساساً ووجهةً.

وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلي أحسن وأجمل ما تكون الدراسة فكان عالماً قَمّةً في
العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ - كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألفه الإمام الغزالي في فترة خلوته وفي أيام عبادته
وقربه من الله تعالى. إنه ثمرة من ثمار القرب، وهو من خير ما يتخذ الإنسان من الذخائر. ويقول
عنه الإمام النووي:

«كاد الإحياء يكون قرأناً».

وذلك أنه يستمد من القرآن، والإمام النووي حجة في السنة وحجة في الفقه وكلمته لها وزنها
الكبير. كان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.

٢ - كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وهو كتاب ينص الإمام الغزالي على أنه من
الكتب التي قرأها وهو بصدد السلوك الصوفي، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت.
ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويُنرّسه.

٣ - كتاب «الرسالة القشيرية» وهو الكتاب الذي يعتبر دستور الصوفية، وقد ألفه الإمام
القشيري: لا لهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون ميزاناً للصوفية ومقياساً لأعمالهم ويقول في ذلك:
«^(١) ائتم اعملوا ربحكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقضى أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا
من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الخيام قبلها فخيامهم وأرى نساء الحق غير نساتها

حصلت الفترة^(٢) في هذه الطريقة لا بل اندرست^(٣) الطريقة بالحقيقة، مضى الشيوخ الذين
كان بهم الاقتداء، وقُل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وستتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه.
وأشدتّ الطمع وقوى رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعُدوا قلة المبالاة بالدين وأوثق ذريعة. ورفضت التمييز بين
الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا

(٣) اندرست، زالت وبهت.

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.

(٢) الفترة، التراخي والتفريط.

بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق^(١) بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاظم^(٢) من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وأدعوا أنهم محررون عن رِقِّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجرى عليهم أحكامه، وهم بحو وليس لله عليهم فيها يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فئاتهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيها تصرفوا بل صرّفوا..

ولما طال الابتلاء فيها نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غير أن هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجحد مخالف لتلبيهم مساعاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تتحسّم ولعل الله سبحانه يجدو بطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثل في تضييع آداب هذه الطريقة.

ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأبى أكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تأدياً فيها اعتادوه واغترابوا بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر - على هذه المسلة^(٣) - بنى قواعد وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله. وذكرت فيها بعض سبيل شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقيهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية رقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمرئى هذه الطريقة قوة، ومنكم لى بتصحيحها شهادة، ولئى فى نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومتوبة، وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستغفیه^(٤)، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» ا. هـ. وهذه الرسالة كتاب موثق كل التوفيق، قسّمه مؤلّفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

القسم الأول: قسم العقائد، ذكر فيه للمؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبين بما لا لبس فيه أنها هى نفس عقائد أهل السنة.

والقسم الثانى: ذكر فيه تراجم كبيره من أعلام التصوف حتى يكونوا مثلاً يحتذى الساترون إلى الله.

والقسم الثالث: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوف مصطلحاته الخاصة به كما أن لكل فن مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذى يوقعهم فى

(٤) الانتفاع.

(٥) جملة مزاعمهم وأدعائهم.

(٦) أطلب العودة عن الخطأ

عدم فهم التصوف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفناء والحقيقة والشرعية وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إلخ. أقول: لو فهمت هذه المصطلحات ونحوها على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوف، وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع: فإنه في بيان المقامات التي يتدرج الإنسان فيها من مقام روحى إلى مقام أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته وعين المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرسه.

وهذا الكتاب هو الذى كان يقرؤه مع كبار العلماء في أثناء الليال التي دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة. وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلون ويدعون ويبتهلون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون في العلم ويقرءون الرسالة القسيرية.

٤ - وكان أبو الحسن رضى الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضى عياض في السيرة النبوية وهو من أحسن ما كتبت فيها.

٥ - وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التي أثارت ثورة في الفكر الإسلامى وفي الجو الرومى وقد طبع في لبنان للمرة الثانية.

٦ - أما في التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتاب أقره بفضله، القدماء والمتأخرون، وقد أعيد للطبع من عدة جهات، وترجموا الله سبحانه أن ييسر طبعه.

٧ - وكان الشيخ رضى الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التي تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبين أن التصوف الصادق يعنى بالجانب العلمى عناية كريمة، ويعنى بصفوة من الكتب التي تسير على النسق السلفى الكريم. ولقد سار أبو العباس على نسق أستاذه، وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه. يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه في أصول الدين: «الإرشاد».

وفي الحديث كتاب «المصابيح».

وفي الفقه كتاب «التهذيب» و«الرسالة».

وفي التفسير كتاب «ابن عطية».

أما فيما يتعلق بالصلة التي بين أبي الحسن وأبي العباس رضى الله عنها فتصورها خير تصوير الرواية الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرني بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فبنا رأه الشيخ أبو العباس ثبسا رجله في الأرض وتهيأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه.. واستيقظت.

في هذه الرؤيا أمور:

١ - أبو الحسن ينزل من السماء.

٢ - عليه ثياب بيض.

٣ - أبو العباس يتهيأ لاستقباله، ويثبت رجله في الأرض.

٤ - يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.

ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائنا واحداً أى أن أبا العباس استمرار لأبي الحسن.

وهذه رؤيا معبرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبي الحسن من آراء يكفك أن تقول في يقين: إن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق. عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المنن.

وعهدى بكتاب «لطائف المنن» عهد قديم: فقد قرأته قراءةً متأنية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه، ثم قرأته مرةً ثانية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبي العباس لمسى، رضى الله عنه ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلف للكتاب: ابن عطاء الله السكندرى (رضى الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن غياث، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفي كل مرة قرأته أو رجعت إليه كت أثنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس في طبعة ميسرة: تحقفاً وتعليقاً.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.

وقضى السنون والكتاب دائماً في متناول يدي أقلم صفحاته الفينة بعد الفينة، ثم أضفه في مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندرى. لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندرى على صورة لا تتناسب مع مكانته. وكان الزائر له لا يكاد يمتدى إلى مكانه، واستمر ذلك قروناً إلى أن وجه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد - الذى يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلاً ميسراً - إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندرى، وبنى المسجد ميّاراً مشرقاً، وأتلى ذلك صدور الصالحين عموماً والشاذلية

خصوصاً، فجزى الله الأخ عبد الحليم مجده خير الجزاء، وأنا به على ما قدّم أجزل الثواب، ووفقه الله دائماً لصالح الأعمال.



وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتاباً من النوع النفيس الذي يقرؤه القارىء، فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد. علمًا نافعاً، وهكذا كتب ابن عطاء الله السكندري: إنها في أساليبها تنسم بالفصاحة، وفي معانيها تنسم بالنقاسة، وهي بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانية هي سمة مؤلفات أولياء الله. وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينها تقرأ فإنها تهدي إلى الله وتعود إليه سبحانه. ولقد قال أبو الحسن الشاذلي رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر في كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور، وتفيد لذة تدرك الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة في كتابه الحكيم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كاد كتاب الحكم يكون قرآنًا».

فإن أسلوبه في بنية كتبه هو من الأساليب الممتازة في البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلٍ ولآلته ماس، وماسه من النوع النادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوباً ومعنىً في مناجاته التي يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون بُعْثَها إشرافاً في صدورهم ونوراً في قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بسدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتوجّج كلمتنا عنه بهذه المناجاة الممتدة الرائعة:

مناجاة

إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى؟
إلهى أنا الجهول فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟
إلهى إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك: منعا عبادك، لعارفين بك عن السكون إلى
عظمة والياس منك فى بلاء.

إلهى ربى ما يلىق بلؤمى ومنك ما يلىق بكرمك.
إلهى وصفت نفسك اللطف والرأفة فى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟
إلهى إن ظهرت الحاسن منى فبفضلك ولك المنّة على، وإن ظهرت المساوئ منى فبعذك ولك
الحجة على.

إلهى كيف تكلمنى إلى نفسى وقد توكلت فى؟ وكيف أضام وأنت التصير لى؟ أم كيف أخيب وأنت
الحقيق فى؟ ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم
كيف أشكر إليك حالى وهى لا تحفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برر إليك؟ أم كيف
تحيب آمالى وهى قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك؟

إلهى ما أظفك فى مع عظيم جهل، وما أرحمك فى مع قبيح فعل؟
إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك؟
إلهى ما أرفأك فى فما الذى يحجبني عنك؟
إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى
لا أجهلك فى شىء.

إلهى كلما أخرسى لؤمى أنطقى كرمك، وكلما أباستنى أوصافى أطمعنى بمنك.
إلهى من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى
فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركاً لدى مقال مقالاً ولا لدى حال حالاً.
إلهى كم من طاعة بئنتها وسالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أعالتى منها فضلك.
إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزءاً فقد دامت محبةً وعزماً.
إلهى كيف أعزم وأنت القاهرة، وكيف لا أعزم وأنت الأمر.

إلهى تركدى إليك فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصنى إليك.
إلهى كيف يُستدل عليك بما هو فى وجوده مفقود إليك؟ أليكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الأتار على التي توصل إليك.

إلهي غميت عين لا تراك عليها قريباً قريباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حيك نصيباً؟ إلهي أسرت بالرجوع إلى الأتار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية لاستبصار، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السّر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلّ ظاهر بين يديك، وهذا حال لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك؛ وبك أستندل عليك؛ فاهدني بتورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علمني من علمك المخزون وصوّني بسر اسمك المصون.

إلهي حقّقني بحقائق أهل القرب، واسلك في مسالك أهل الجذب.

إلهي اغنني بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لي عن اختياري، وأوقني على مراكز اضطراري.

إلهي أخرجنى من ذلّ نفسي، وطهرني من شكّي وشركي قبل حلول رمسي، يك أستنصر.. فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، ولجناك أنتسب فلا تبعدني، ورباك أقف فلا تطردني، وإياك أسأل فلا تخيبي، وفي فضلك أرغب فلا تحرمي.

إلهي تقدّس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة مني؟ أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني؟

إلهي إن القضاء والقدر غلبي، وإن أهوى بوناق الشهوة أسرني، فكن أنت النصير لي حتى تنصرنى في نفسي وتنصرنى، وأغنني بجودك حتى أستغنّي بك عن طلبى، أنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤمنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذى هديتهم حتى استبانتم لهم العالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذى فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بغي عنك جِوْلاً.

إلهي كيف يبرّجى سواك وأنت الذى ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عهده الامتنان؟ يا من أذاق أحبائه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه مسلمين، ويامن ألبس أوليائه ملابس هيبته فقاموا بزمته مستعزين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.

إلهي اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بفتك حتى أقبل عليك.

إلهي إن رجئني لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزيلني وإن طعتك.

إلهي قد دفعنني العوالم إليك وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

إلهي كف أحب وأنت أمل؟ أم كيف أمانٌ عليك متكلى؟

إلهي كيف أستعزّ وفي الذلّة أركزتي؟ أم كيف لا أستعزّ وإليك نسيّ؟
 إلهي كيف لا أفترق وأنت الذي في الفقر أتمتني؟ أم كيف أفترق وأنت الذي بجودك أغنيّني؟
 أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء، بما جهلك شيء، وتعرفت إلى كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء، يامن استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيباً
 في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقت الأنوار بالأنوار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك
 الأنوار، يامن احتجب في سر دقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، يامن تجلّى بكمال بهائه فتحققت
 عظمتُه الأسرار: كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تقيب وأنت الرقيب لحاضره؟ (١-هـ).

وبعد: فإلزم ابن عطاء الله أستاذه أبا العباس رضى الله عنها، ثم كان من بعده شيخ
 الطريقة الشاذلية إلى أن توفى في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩.

وأما بعد: فإله أرجو أن يهدي لهذا الكتاب وأن يهدي به إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله على
 سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

كِتَاب لطائف المتن

في مناقب علم المهتدين، وقدوة السالكين، سيدي أبي
العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسى وشيخه قطب
الأقطاب، ودستور عوارف المعارف بلا ارتباب سيدي أبي
الحسن الشاذلي.

تأليف

شيخ الحقيقة، وإمام لطريقة، الشيخ الإمام تاج الدين أبي الفضل أحمد ابن الشيخ
الهام فخر الدين أبي بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبي محمد
عيد الكريم بن عطاء الله رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى فتح لأوليائه^(١) باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة^(٢)، فقاموا

(١) إن من الأهمية بكان - فى انتهاء هذا الكتاب المبارك - أن نتحدث عن الولاية، وذلك أن المؤلف رضى الله عنه يتحدث عن الولاية نظرياً يكلام غاية فى التفاسير ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء، وليس لأحد أن يتدعى تربيةً للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء: إنهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:

﴿إِن أُولِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وزاد سبحانه وتعالى تفضلاً بالنسبة لهم فقال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

ثم بين نفاسة النصارى التى تحتى من الولاية فقال: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: الآيات ٦٢-٦٤).

وإن كن حديث عن الولاية إنما هو تفسير هذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسي الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:**

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتُوبُ إِلَيَّ مَا عَادَى لِي أَحَبًّا، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كَتَبْتُ لَهُ بِصِرَتِهِ، وَبَصَرِهِ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَطْشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» ومعنى آذنته بالحرب: (أعلنت بأنى محارب له) ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفقير) - نقله هنا: لأنه يعبر تعبيراً كاملاً عن وجهة نظرها فى هذا الموضوع - يقول: (فأما صفة الولي، فقد دل - رسول الله ﷺ - على صفة الأولياء فقال:

«الَّذِينَ إِذَا رَوَّأُوا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (سنن ابن ماجه والحلية ٦٠١).

وفى هذا الحديث لشرف من ادلالة عليهم كناية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رَأَوْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ عَظُمَ بِهِ، وَذَكَرَ دِينَهُ».

ويقول:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ مَنْ امْتَنَلُ أَمْرُهُ تَعَالَى، وَاجْتَبَى نَوَاحِيَهُ، وَرَوَّزَ الْخَوَافَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، لَا مِنْ خَلْقِهِ، وَاجْتَنَبَ طَاعَتَهُ - جَلَّ وَعَلَا - وَبَحِثَ عَنْ أَمْرِ كَسْبِهِ وَوَقَفَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَهُ، وَرَجَعَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَعْلَمُ حِكْمَهُ: فَهُوَ الصَّالِحُ.

وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبعض الدنيا ومن قسك بها، والفرق من موعبها، ومن أمليها، والقناعة بالبسر منها، ودرجات الصالحين تختلف بالتقدم فى ذلك على حسب العناية من الله تعالى».

وأعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لول، فهي دالة على صدق عبادته، وعقرب مكانته، بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به الشئ عليه السلام، وإلا فهي خللان من الشيطان. ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والمعالون بها: منهم من يكتمها جهده لاستنطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها. اهـ.

«لا يستدل على الولي بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإنما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية، وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى».

ففى البخارى أن رجلاً خرجاً من عند رسول الله ﷺ، فى ليلة مظلمة، فإذا الثور بين أيديها حتى نخرها، فنترق الثور معها فى البخارى - أيضاً - أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

ونابى عمر بن الخطاب: «ياسارية الجبل اه يفض على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو، وبها مسيرة أيام، فراء وسمعه سارية. فرجع إلى الجبل وسلم من العدو».

(٢) أى حل نفوسهم وفكها من أسر انعاسى التى تقطع الصلة بينهم وبينه.

بوجوب خدمته، وأمدّ عقولهم بنوره، فعانت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار^(٣)، وبها
منها صور الآثار، حتى ظفرت بمعرفته!

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، ونعوت جلاله، فهم سبأيا حضرة^(٤).

منع أسرارهم بقربه، بخلطات جذبه، لتحققوا بشهود أحديثه.

أخذهم منهم، وأفناهم عنهم، ففارقوا بحر هويته.

فرّق جيوش التفرقة بكتائب الجمع^(٥) لأهل خصوصيته، وسعى الأسرار بمدد الأنوار أن
يكون مظهرًا لغير فرديته!

أطلع كواكب العوم في سماء الفهوم تهدي السائرين لحضرة ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في
بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزلته، وما كانت معه في أزله^(٦) حتى تكون معه في
أبدية، بل هو الأزل والآخر لا بإضافة ليربته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس
بقدوسيته!

أحمد والمحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بإسباغ نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذي وسع كل شيء برحمته^(٧)، وغمر العباد في الغيب والشهادة
بطوائل منته.

واعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحديثه.

واعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلا ما من به عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلا ما أضافه إليه^(٨)، ولا ينتصر

٣ (الأغيار: - أو ما يعبر عنه - بالأموي) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.

ولولاه الله سبحانه وتعالى لا يستعيد لولهم صم من الأصنام الكثيرة التي تمثل في شهوة أو حياء أو ترأ، وقلوبهم ملأى بالله
سبحانه.

٤ (سبأيا: أسرى).

٥ (ما يجري في كلام الصوفية كثيرًا - الجمع والتفرقة، فالأسبغة أبو علي الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع
ما سبب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة الصودية، وما يليق بالأحوال البشرية، فهو الفرق.
وما يكون من قبل الحق: من إيداء معان، وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أسرارهم في الجمع والفرق: لأنه من شهود
الأحوال فمن أشهد الحق سبحانه أفضاله عن طاعته وتغافلانه، فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهد الحق - سبحانه -
ما يوليه من أعمال نفسه سبحانه، فهو عبد يشاهد الجمع.

٦ (وقد روى البخاري من أهل اليمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن - أول -
هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره - وفي رواية ولم يكن شيء قبله - وكان عرشه على الماء، وكتب في
الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض - وذكر في فتح الباري أن بعض الروايات فيها: كان الله ولا شيء معه. ويستفاد من
هذه الروايات وغيرها: أن الله سبحانه: كان، ولا عرش ولا كرسي ولا ماء ولا كون - وكل ما يقال عن قدم العرش أو
الكرسي فهو من الأباطيل.

٧ (قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾).

٨ (إن الإنسان في كل ما يعتق بالله سبحانه، ذات وصفات - يجب عليه أن يلتزم التزامًا كاملًا بما ورد في الآثار الصحيحة،

في المصادر والموارد إلّا بالتوكل عليه.

العزیز القادر الحكيم القاهر، الرقيب على فعل كل قاعل، ونظر كل ناظر، لا يخفى عليه ما في الضمائر، ولا يعزب عن علمه مستكنات السرائر! أظهر في ملكه حكمته، وفي مكنونه قدرته، وتعرف لكل شيء، فلا شيء يجحد ربوبيته، ﴿إلّا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾^(١). وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وكل شيء يشهد بأحديته في ألوهيته. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى من خلقه المشهود له في الغيب والشهادة بكمال خصوصيته، القائم لمولاه بكمال الوفاء في عبيديته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تدوم بدوام أبديته وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فلئن قصدت في هذا الكتاب أن أذكر جملاً من فضائل سيدنا ومولانا الإمام: قطب لعارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين منقاد الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر، المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر شمس المعارف بعد غروبها، ومبدئ أسرار اللطائف بعد غروبها^(٢) الواصل إلى الله، والموصل إليه:

«شهاب الدين: أبي العباس بن عمر الأنصاري المرسى».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومثمه - على ممر الساعات - بوارد أنسه، وأذكر شيخه الذي أخذ عنه، ومنازلاته^(٣) التي نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلمه وأسراره، ومعاملاته مع الله سبحانه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خير نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام على حقيقة - نقلت عن أحد من أهل الطريق - أشكل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شيخه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل به حضرت، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر الطريق وأهلها؛ وأنقل ما يمكن إثباته من أخباره كثيرها وقليلها.

وكان أصحاب الشيخ الإمام القطب أبي الحسن - فُلس الله روحه - قد أثبتوا جملاً من كلامه، وإن كان هو - رضي الله عنه - لم يضع كتاباً؛ وقد بلغتني عنه أنه قيل له:

يا سيدي لم لا تضع الكتب في الدلالة على الله تعالى وعلومه القوم؟

- فقد بلغ رسول الله ﷺ كل ما يحتاج الإنسان إليه في أمر العقيدة، ولم يختلف المسلمون إلّا عندما تعدوا التصور، وأخذوا يقولون بأرائهم، أو حنوا يضيئون إلى التصور من عند أنفسهم، وكل ما يتصل بالذات أو الصفات يجب الإيمان به على مراد الله فيه، فمثلاً حينما يقول الله سبحانه:

﴿وهد الله فرق أبيهم﴾.

تقول فيها: إننا نؤمن بما على مراد الله سبحانه - وقوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

تقول فيها: إننا نؤمن بما على مراد الله فيها، وكل ما يتأتى من تأويل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبيل أسلافنا - رضوان الله عليهم - وكلام المؤلف في ذلك من أحكام ما قيل.

وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة. وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية^(١٥)..

وبينت من هو الأولى بالميراث في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»..
وبينت ماهو العلم الذي أنق الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالترقى لديه..
وبينت أن الأولياء الظاهرين في أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويجزى لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بمساكر أنوارهم جيوش الغفلات.
وذكرت أقسام الولاية، غزارة قدر الولي، وفخامة رتبته؛ وشقوق^(١٦) منزلته، مما تضمنته الكتاب العزيز والأحداث النبوية، ليكون ذلك توطئة لك بتصدق ما يرد عليه من أخبار أوليائه، وكرامات أصفيائه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: في التعريف بشمعه الذي أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان: أنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان.
الباب الثاني: في شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو

(١٥) حينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.

والرول إما أن يمكث ولما فقط، فتكون معرفته خاصة به، أو يتخذه الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً، أو يكون رسولاً.

والرسول نبي، ولكن رسالته تأخذ صيغة عالمية، أما رسالة النبي فإنها محددة لأهداف محدودة المكان.
إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمة» في جميع أنحاء العالمين، إنه، (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة. ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية. ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي (القريب) من الله في حين أن النبي منجبه طبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض. فإن النبوة تتضمن لولاية، فهي متبذلة لقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولي (باعتباره) بالنسبة لحالة النبي، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لمرجعها في العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره في الرسالة. إذ هي عالمية والرسول - لاغيره - هو حقيقة الإنسان العالمي.

والرسول - كما للنبي - اتجاهان:

١ - اتجاه داخل، إنه الاتجاه نحو الحق.

٢ - اتجاه خارجي؛ إنه الاتجاه نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحدودة، ودرجة النبي المحدودة أسمى من درجة الولي الخاصة، ويقام الجميع القرب.

(١٦) نعود نقول: إن الأولياء هم:

«الذين آمنوا وكانوا يتقون».

ولدى معادهم إما يعادى الإيمان والتقوى. ولا يكون هذا إلا ممن تمسك للشر والعباد بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضي الله عنه سواء في ذلك الكلام في هذا الموضع أو الكلام المشابه فيها يأتي في كتابه.

عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام.

الباب الثالث: في مجرباته ومنارلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.

الباب الرابع: في علمه وزهده، وورعه ورفع همته، حكمه وصبره وسداد طريقته.

الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبين معناه، وإظهار فحواها.

الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق..

الباب الثامن: في كلامه في الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور لمعضلات..

الباب التاسع: فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه بما يتضمن ذكر خصوصيته.

الباب العاشر: في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي رتبته للأخذين في علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبي الحسن وحزبه، ليمت العقد بنظامه..

وأما الخاتمة: ففي اتصال سبنا إليه.. ووصايا نثرا ونظما تنهض إلى الله وتجمع عليه، وهي آخر الكتاب..

وليس كل شيء سمعته من الشيخ رضي الله عنه استحضرت وقت وضعي لهذا الكتاب، ولا كل شيء استحضرت يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنفع به هذه الطائفة^(١٧) خصوصاً وغيرهم عموماً، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيباً من المنّة، وجعل في قلبه نوراً من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف والمكابر إلى وجود الإنصاف، ولستين لمن أراد الله به الهدى المحببة؛ وتقوم على من لم تنصره عناية الله المحببة؛ فيكون للمصدق بتصديقه لهذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية.

وقد قال الجنييد^(١٨) رضي الله عنه: التصديق بعلما هذا ولاية؛ وإذا فانتك المنّة في نفسك فلا

(١٧) الصوفية على وجه العموم. وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(١٨) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أسلم من نهاوند ومثنو ومولده بالعراق. وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «الزواجرى» وكان فيها على مذهب أبي نوره، وكان يثق في حلقته بحضرة وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) ببغداد.

قال الروضباري: سمعت الحيد يقول رجل ذكر المرقعة وقال: أهن المرقعة بالله يصلون إلى ترك المركات من باب البر والقرب إلى الله عز وجل. فقال الحيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذي يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذي يقول هذا فإن الماردين بالله تعالى أتدوا لأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال في هونها..

وقال الجنييد: الطرق كلها مسدودة على الخلق؛ إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

تفتك أن تصدق بها في غيرك؛ ﴿فإن لم يصبها وأبل فطل﴾^(١٦) وقد قال بعض العارفين: التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.

مصدق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾^(١٧).

وقال سبحانه: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾^(١٨).

وقال سبحانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾^(١٩).

وقال: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾^(٢٠).

وإذا أراد الله خيراً جعله من المصدقين لأوليائه فيما جاءوا به؛ وإن قصر عقله عن إدراك ذلك؛ فمن أين يجب أن لا ييب الله لأوليائه إلا ما تسمعه عقول العباد؛ وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة^(٢١).

وقد قال أبو تراب النخشي^(٢٢): من لم يصدق بهذه الكرامات فقد كفر^(٢٣)؛ أي قد غطى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى؛ جعلنا الله وإياكم من المعترفين بفضله في عبادته؛ ومن المصدقين بأثار عنايته في أهل وداده؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ولم أخل الكتاب من الكلام على الشيء المشكل وحل الأمر المفضل؛ والتنبيه على أمور جلية؛ وإظهار أسرار أبحار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كلية.

- وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر. لأن علينا هذا مقيد بالكتاب والسنة. وقال: مقيدنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلينا هذا مقيد بحديث رسول الله ﷺ وبلغ من تقديره أن كان الكتب

(الأديان) يحضرون مجلسه لألفاظه.

والفقه للقرآن.

والفلاسفة للفقه نظره ومسانده.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشارته وحقائقه.

(١٦) البقرة: ٢٦٥.

(١٧) النور: ٢٠.

(١٨) ق: ٢٧.

(١٩) الزمر: ٩.

(٢٠) الذاريات: ٥٥.

(٢١) إن المكذب للأديان، مكذب للإيمان والتقوى اللذين هما ماهية التوراة، ويرجع الفارابي إلى ما كتبناه في مقدمة الكتاب.

(٢٢) هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشي، من أجمل مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة يقول: «لقيت ستانة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشي، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالانفائض جامعاً بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، متقشفاً متوكلاً، متخشعاً متبلاً، قد أخذه في سبأ المعاني بنزه، واشتهر في سبأ المعاني بحسبه وذكره.

(٢٣) من معاني الكفر: السر والتعطية، وكل شيء غطى شيئاً فقد «كفر». ويسمى الزارع كافراً لأنه يغطي البذر بالتراب. ويسمى الزارع كافراً لذلك - وهذا هو المعنى الذي أراد أبو تراب، ومن معاني الكفر بظلمه الحال؛ أنه ضد الإيمان، وليس هذا هو المعنى المراد في هذه الكلمة.

فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصاً؛ ومن أحوال القطيعة مخلّصاً؛ وأن يمن علينا بالصدق في الأقوال والأفعال والأحوال؛ وأن يجعلنا من العارفين به في الحال والمآل؛ وأن يتفضل علينا بالفهم عنه؛ وحسن الاستماع منه؛ إنه الإله القدير؛ وبالإجابة جدير..

وسميته: «لطائف المثنى في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

وهذا أو أن ابتدائي بما قصدت؛ وإظهار ما أردت؛ وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل؛ وإليه بحاجه محمد سيّد المرسلين ﷺ أتوسّل؛ وهو حسينا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته؛ وإفاضة فيض رحمته؛ واقتضى فضله العظيم أن يمن على العباد بوجود معرفته؛ وعلم سبحانه عجز عقول عموم العباد عن التلقّي من ربوبيته؛ جعل الأنبياء والرسل لهم الاستعداد التام لقبول ما يرد من ألوهيته؛ يتلقّون منه بما أودع فيهم من سرّ خصوصيته؛ ويلقّون عنه؛ جماً للعباد على أحديته؛ فهم برازخ الأنوار؛ ومعادن الأسرار؛ رحمة مهداة؛ ومنّة مصفاة؛ حرس أسرارهم في أزله من رقى الأغيار^(٢٧)؛ وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار؛ لا يخبون إلا إياه، ولا يعبدون سواه، يلقي الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم، وما زال فلك النبوة والرسالة دائراً إلى أن عاد الأمر من حيث ابتدى، وختم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجل في هذه الدار وفي تلك الدار، أعلى المخوفات مثاراً، وأقهم فخاراً، دلّ على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢٨).

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره، والعالم كل موجود سوى الله تعالى.

وأما تفضيله ﷺ على بنى آدم خصوصاً فمن قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢٩).

وأما تفضيله على آدم فمن قوله ﷺ:

«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٣٠).

ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائى. وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول

من تتشّق عنه الأرض»^(٣١)..

(٢٧) أى ما سوى الله.

(٢٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة عن حديث يغير زيادة: «ولا فخر». (٣٠) قال العلمى في شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج أحمد والبخارى في تاريخه والبيهقى ومن السكّن وأبو نعيم في الحلية وصححه الحاكم بلفظه: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد». والترمذى وغيره عن أبي هريرة أنه قال للنس ﷺ: من كنت أو كنت نبياً؟ قال: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. قال الترمذى: حسن صحيح؛ وصححه الحاكم أيضاً. (٣١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ولفظه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تتشّق الأرض عنه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر». ولواه الهذلى يندى يوم القيامة ولا فخر.

وحديث الشفاعة المشهور الذي أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ بقية المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدميّاطي بقراءة عليه أو قراءة عليه وأنا أسمع. قال: أخبرنا الشيخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الحبيب التميمي وأبو التقي صالح بن شجاع بن سيدهم المديني الكنافي، قالوا: أخبرنا الشريف أبو المقاهر سعيد بن الحسين بن محمد بن سعيد العباسي المأموني قال: أخبرنا أبو عبد الله الغزالي قال: أخبرنا عبد الغافر الفارسي قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرو بن الجلودي قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري قال: حدثنا أبو الربيع العتكي قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن هلال العنزي.

وحدثنا سعيد بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن هلال العنزي قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بنات، فأنتهينا إليه وهو يصل الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سرير، فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال:

إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: اشفع لذيبتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم موسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام؛ فيقول:

لست لها، ولكن عليكم يحيى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام؛ فيقول:

لست لها، ولكن عليكم محمد ﷺ..

فأقول فأقول: أنا لها، فأنطلق فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمله يحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمني الله عز وجل، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: رب، آمي آمي، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه متقال حبة من برّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي، فأحمله بتلك المحامد، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، آمي آمي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه متقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمله بتلك المحامد ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، آمي آمي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه متقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى

ربّي فأحمده بتلك المحامد ثم آخرّ له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقوم: يارب، أمّتي أمّتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربّي فأحمد بتلك المحامد ثم آخرّ له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتي أمّتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل.

هذا حديث أنس الذي أخبرنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنّا بظهر الجبان قننا: لو ملنا إلى حسن فسلمنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفه، قال: فدخلنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد، خرجنا من عند أخيك أبي حمزة فلم نسمع بثل حديث حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثنا الحديث، فقال: هيه، فقلنا: ما زادنا. قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جمع (٣٢)، ولقد ترك شيئًا ما أدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتكلموا، فقلنا له: حدثنا، فضحك وقال:

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٣٣).

ما ذكرت لكم هذا إلّا وأنا أريد أن أحدثكم:

ثم أرجع إلى ربّي في الرابعة، فأحمد بتلك المحامد، ثم آخرّ له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلّا الله، قال:

ليس ذلك لك. أو قال ليس ذلك إليك، ولكن وعزّي وكبريائي وعظمتي لأخرجنّ من النار من قال: «لا إله إلّا الله» (٣٤). قال:

(٣٢) أي في أكمل قوته وقام ذاكرته ونشرة وجولته.

(٣٣) الأنبياء: ٣٧.

(٣٤) أي ليخرجه سبحانه مألّا بعد أن يكون قد أسوى جرمه عما قدّم من معاصي. اللهم إلّا أن يفضل سبحانه على البعض الحكمة، وقد روى البخاري ومسلم رضي الله عنها في هذا قوله ﷺ في حديث جامع:

«أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون ممّ ذلك؟»

(يجمع الله الآيين والآخرين في صمد واحد فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكره مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلّا ما بلغتكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أيركم آدم، فيأوته، فيقولون: يا آدم أنت أهر البشر، خلقك الله بيد، ورفع فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلّا ما نحن فيه وما بلغت؟ فقال: إن ربّي غضب غضبًا لم يغضب به مثله، ولا يغضب به مثله، وإنه ينافي عن الشجرة فصعبت، نفسي، نفسي، نفسي، انهبوا إلى غيري. انهبوا إلى لوح، فيأتون توشحًا، فيقولون:

يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكرًا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغتنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟

فيقول: إن ربّي غضب اليوم غضبًا لم يغضب به مثله، ولا يغضب به مثله، وإنه كانت في دعوى دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، نفسي!!!

انهبوا إلى غيري، انهبوا إلى إبراهيم.

فأتوا إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليفه من أمل الأرض الشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ =

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يومئذ جميع (٣٥) ..

فانظر رحمك الله ما تضمنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ، وجلالة أمره، وأن أكابر الرسل والأنبياء لم ينافسوه في هذه الرتبة التي هي مختصة به وهي الشفاعة العامة في كل من ضمنه المحشر. فإن قلت: فيما بال آدم أحال على نوح في حديث، وعلى إبراهيم في هذا، ودل نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الآل؟

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبين من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدل كل واحد على من بعده، وكن واحد يقول: لست لها، مسلماً للرتبة، غير مدع لها، حتى أتوا عيسى فدل على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها. وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد (٣٦) وينقص.

= فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. وإني كذبت ثلاث كذبات: نفسي. نفسي. نفسي.

انظروا إلى غيري. ذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فغضبك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. وإني قد كذبت شراً لم أؤمر به قبلها: نفسي. نفسي. نفسي.

انظروا إلى غيري. ذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته أنزلنا إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في انشراحهم، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي. نفسي. نفسي.

انظروا إلى غيري. ذهبوا إلى محمد ﷺ.

- وفي رواية: فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فأطلق قائم تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبل.

ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: أنتى يارب، أنتى يارب! فيقال: يا محمد أدخل من أمك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أيو م الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة: كما بين مكة ومكة، أو كما بين مكة ومكة.

(٣٥) والمحدث في صحيح مسلم (شرح النووي ج ٣ ص ٢٦٣) ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ).

(٣٦) يقول الإمام البخاري عن الإمام:

هو قول وفعل، وعزید ونقص. ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، وذكر منها: قال الله تعالى:

﴿لِيَزَادُوا إِيَّانَا مَعِ إِيَّانِهِمْ﴾. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

﴿وَلِئَلَّا يَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

﴿وَلِئَلَّا يَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

﴿وَلِئَلَّا يَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

وفيه: أن المعارف لا تنهاى، من قوله: لا أقدر عليه إلا أن يلهمني الله عز وجل، وبشهاد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (٣٧).

وبشهاد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عَلَمًا﴾ (٣٨).

إلى غير ذلك من الفوائد التي لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣٩).

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة (٤٠)، والبيئة الفاتحة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتنب سبيل الردى بها ترك شيئاً يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدباً يصلح أن يكون العيد به مع الله إلا وحث عليه، ولا شيئاً يشغل العباد عن الله إلا وحذر العباد منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه، لا يألوا نصراً (٤١) في تخلص العباد من أحوال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانتقض آثاره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع ﷺ من الدين لوائه، وقم نظامه، وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام حق قال الراوى: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علماً، فقد عال سبحانه:

﴿لَا يَكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٤٢).

وقال سبحانه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٤٣).

وقال ﷺ:

(٣٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده (٣٨) طه: ٦٩٠.

(٣٩) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إنا أنا رحمة مهداة، أى مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية. (٤٠) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُدًى سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾، وإن من أول شروط الدعوة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرته الشريفة. (٤١) يقول الله تعالى في بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فَتَمْلِكُ مَا شِئْتَ نَفْسَ كُلِّ آلِهَةٍ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَايَتِهِمْ أَهْلًا﴾، ويقول سبحانه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٤٢) البقرة: ٢٥٦. (٤٣) المائدة: ٣.

«تركناها ببضاء نقيّة» (٤٤).

فجزاه الله خير ما جرى نبياً عن أمته.

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له وأولى بهد أن خير فاختار الرفيق الأعلى.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله في أمته أبداً، ودائماً سرمداً، بما ورثوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلاً لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ (٤٥).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: أى على معانية، يعين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال ليلال رضى الله عنه:

(أنفق بلالاً، ولا تحش من ذى العرش إقلاقاً) (٤٦).

وقال لآخر أراد أن يخلق عن ماله كله:

«امسك عليك مالك، فإنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» (٤٧).

وقال له ﷺ رجل: أوصنى، فقال ﷺ:

«استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك» (٤٨).

وقال له آخر: أوصنى، فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه بقوله:

«أنا ومن اتبعني» باب البصائر للاتباع. يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ (٤٩).

أى ومن اتبعنى يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان: لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى

(٤٤) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونص الحديث عن العرياض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها الدموع، ووجلت منها الغروب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه الموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «وقد ترككم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بدى إلا هالك»، من بحث عنكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنا المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد.

(٤٥) يوسف: ٦-٨.

(٤٦) الزيار عن بلال والطبراني عن ابن مسعود.

(٤٧) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والسنائي من حديث كعب بن مالك.

(٤٨) رواه ابن عدى بنحوه بسند ضعيف.

(٤٩) يوسف: ٦٠٨.

السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أى وأتباعه يدعون إليه على نصيحة.
إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولاية، وقد قال ﷺ:
«العلماء ورثة الأنبياء»^(٥٠).

وقال ﷺ:

«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»^(٥١).

وقال ﷺ:

«علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل».

وهنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمي كرسل بني إسرائيل، فمن الناس من ظن أن النبي هو الذي نبي^(٥٢) في نفسه، والرسول هو الذي رُسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر في قوله: علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل، وما يذكّر على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَبِيٍّ﴾^(٥٣) الآية.

فدل على أن حكم الإرسال يعمها، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبي لا يأتي بشريعة جديدة، إنما يجيء مقررًا للشريعة من كان قبله كيوشع بن نون فإنه إنما جاء مقررًا لشريعة موسى، وأمرًا بالعمل بها في الثوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته الثوراة، فقال ﷺ: علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل، أى يأتون مقررين ومؤكدين وأمرين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل».

و«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»..

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»^(٥٤).

و«وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»^(٥٥).

(٥٠، ٥١) رواه أبو داود والترمذي.

(٥٢) كون النبي ما نبي في نفسه أو بتغيير المتكلمين: «ما أوحى إليه ما يعمل به ولم يبرز بتبليغه» والرسول هو ما أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أفق وأوضح.

(٥٣) المصح: ٥٢ وعام الآية، «إلا إذا نبي أمي لشيطان في أميته فيفسد الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم».

(٥٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٥٥) رواه أبو داود والترمذي.

وقوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ (٥٦)
وقال: ﴿والذين أتوا العلم درجات﴾ (٥٧).

وهو ﴿بل هو آيات بينات في صنوع الذين أتوا العلم﴾ (٥٨).

وحينما وقع العلم في كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به: العلم النافع المخلص للهوى، القانع، الذي تكتسفه الخشية وتكون معه الإجابة قال الله سبحانه:
﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٥٩).

فلم يجعل علم من لم يخش الله من العلماء علياً، وقد قال داود عليه السلام: يارب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا، والتعلق لأربابها، وصرف المنة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء. وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه؟

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها (٦٠)؛ جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه؛ وسبباً في تكثير العقوبة لديه. ولا يفرنك أن يكون به انتفاع البأدى والحاضر؛ فقد قال ﷺ:
«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٦١).

ومثل من يعلم العلم لا كتنساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بلمعة من ياقوت؛ فما أشرف الوسيلة؛ وما أحسن المتوسل إليه.

ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه لمدة يطهر ويحيد الطهارة ولم يعمل صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصري رضى الله عنه عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك، وهل رأيت فقيهاً؛ إنما الفقيه الذي فقه عن الله أمره ونهيه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

(٥٦) آل عمران ١٨ - والقسط: هو العدل. (٥٨) التكويت: ٤٩.

(٥٧) المجادلة: ١١. (٥٩) طاهر: ٢٨.

(٦٠) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول في دعائه - كما رواه الإمام أحمد - اللهم إلى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(٦١) رواه الطبراني وصححه السيوطي وفي حقه قوله ﷺ: إن الله يلد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، رواه أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني.

«الغيب من انقضاء الحجاب عن عيني قلبه وشاهد ملكوت ربه».

وإذ قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبداً، فاعلم أن الأنوار الظاهرة في أولياء الله إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإذا أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقايلته إياها، فإذا التمس منيرة نهاراً، ومضيئة أيضاً ليلاً، لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحداً بعد واحد:

﴿تلك آيات الله يتلوها عليك بالحق﴾ (٦٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول في قوله عز وجل:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (٦٣).

أي ما نذهب من ولي لله إلا ونأت بخير منه أو مثله.

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء الله: أينقصون في زمن واحد؟

فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أهرزت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا ينقص إمدادهم؛ ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفاتهم مع وجود بقائهم؛ فإذا كان أهل الزمن معرضين عن الله مؤثرين لما سوى الله لا تنجع فيهم الموعظة، ولا تميلهم إلى الله التذكرة؛ لم يكونوا أعلاماً لظهور أولياء الله فيهم؛ ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. وقد قال ﷺ:

«لا تؤتوا الحكمة غير أهلها تنظموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» (٦٤).

فإذا كان الله سبحانه وصياناً على لسان رسوله ﷺ أن: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولي بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوى مطاعاً، وشحاً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك» (٦٥).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فأثروا الخفاء بل أثر الله لهم ذلك مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرين قائمين بالحجة، سالكن الحجة، لقول رسول الله ﷺ:

(٦٢) الباقية: ٦.

(٦٣) البقرة: ١٠٦.

(٦٤) إن حدثت الصوفة عن بعض آيات القرآن، إما هو إشارات قر يوجد لهم لا تنفي من قريب ولا من بعد المعنى الذي يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازين التفسير، ولكن القرآن الكريم تبع فاضح، بلهم ويشير ويوجه، وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه في ذلك ما دام مؤمناً بالمعنى الذي تقرره الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملاً به. وفي ضوء ما قلناه - وهو الذي يعرف به جميع الصوفية - ترجو من القارئ الكريم أن يطر إلى ما يأتي من حديث لتوضيحه في إشاعات الآية الكريمة.

وعدا المعنى هو الذي يؤخذ من قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ وهي كلمة قرآنية لا منع فيها ولا تعميم. (٦٥) أبو داود في الملاحم، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الفتن.

«لا تزل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة» (٦٦).
وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مخاطباته لكميل بن زياد: اللهم لا تحل الأرض من قائم لك بحببتك، أولئك الأقولون عبداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في عبادته وولاده، آه واشوقاه إلى رؤيتهم، وروى الإمام الرباعي محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه في كتاب «المختم» (٦٧) له، رفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قل رسول الله ﷺ:

«أمتي كالنظر لا يدري أوله خير أم آخره» (٦٨).
وروى أيضاً برقمه إلى أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:
«خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكثر».
وروى أيضاً برقمه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

- جئت ميسراً من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة بكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل معنا؟ فقال ﷺ: «لا تبكوا، إنما مثل أمتي مثل حذيفة قام عليها صاحبها، فاجتلب رواكبها، وهباً مسالكها، وحلق سفعها، فأطعمت عاملاً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طبعاً يكون أجودها قنوتاً، وأطولها شمراناً، والذي يمشي بالحق ليجلس ابن مريم من أمتي خلفاً من حواريه» (٦٩).
وروى أيضاً برقمه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بنبر حساب» (٧٠).

ثم تلا:

(٦٦) منقلى عليه.
(٦٧) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ومن الشيخ أبي الميافى الرسى وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر حمى الدين بن عربي، ووصلت عنايته به إلى درجة أنه شغبت عنه غير مرة، وأجاب عن الأسئلة التي وجهها الحكيم لترمذي في كتابه، وهذا الكتاب طبع في لبنان.
(٦٨) رواه أحمد والترمذي والنسائي وأبو يعلى.
(٦٩) القنوت: جمع قنو وهو العلقن أي النخلة يحملها، والشمراخ مثله.
ومن خبر غزوة مؤتة ما ذكره ابن حزم في «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤتة جعل المسلمون على ميمنتهم قبيلة بن غنادة القفري. وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري وقيل: عباد، واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملائياً، بصدره الرماح والزراية في يده، فأخذها جعفر بن نهي طالب ونزل عن فرس شقراء، فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية يسيراً، فقطعت فاحتضنها، فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. فأخذ عبد الله بن رواحة الراية وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابتاً بن أقرم أبو بني العجلان وقال: يا مصفر المسلمين: اصطبلوا على رجل متكب فقالوا: أنت، قال: لا فأخذها خالد بن الوليد، واحجاز بالمسلمين، فأنذر النبي ﷺ بقتل الأمراء المذكورين قبل وصول الخبر في يوم قتلهم بعينه آه.
(٧٠) رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

«وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٧١).

ودرى أيضا يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

«في كل قرن من أمي سابقون» (٧٢).

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عباده، وعرفك لطائف وداؤه، أنه سواء منهم الظاهر والخبى، والصديق والوئى، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم؛ لأنهم مع المؤقت لا مع الأوقات، ومن كان مع المؤقت لا يتغير بتغير الوقت شيئا، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره وتكدر بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذى رضى الله عنه: الناس صنفان صنف منهم عمال الله يعيدونه على البر والتقوى فهم يحاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق؛ لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وقاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتقين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يغيرهم إدباره وهو قول النبى ﷺ:

إن لله عبادا يغذوهم برحمته، يحببهم فى عافية، ترحمهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرمهم.

وقوله ﷺ:

تكون فى أمي فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم.

قال الترمذى: يعنى: بالعلم بالله فيما ترى.

لقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال وإن أولياء هذا لوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا كلما اشتدت ظلمة الوقت فويت أنوار قلوبهم، فهم كاللكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأبين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار الكواكب تنكسر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدى إلى الله تعالى، ولنا فى هذا المعنى:

أمرت قب: النجوم من السماء نجوم الأرض أبهر فى الضياء
فتلك تشرق وقتا ثم تخفى وهذى لا تكسر بالغطاء
هداية تلك فى ظلم الليالى هداية هذه كشف الغطاء

وقال صوى يوما بحضرة فقيه: إن لله عبادا هم فى أوقات المحن والمحن لا تضرمهم، فقال ذلك

الفتية: هذا مالا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم في النار والنار لا تضرهم (٧٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: الدنيا كالنار وهي قاتلة للمؤمن: جزيا مؤمن، فقد أطفأ نورك لمبي.

واعلم أن شأن الولاية والوَلِيَّ عظيم، والخطب فيها جسيم ويكنفك في ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحق بن محمد بن المؤيد الأبرقوهي رحمه الله، قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سابور الفلانسى الشيرازى بها سنة تسع عشرة وستمئة، قال: أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازى الأدمى قراءة عليه وأنا أسمع في سنة ثلاث وخمسمئة، قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمى الحنبلى إملاءً على في يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال: أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدى الفارسى حدثنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن حفص العطار الخطيب الدورى حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن محمد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتي (٧٤) بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا يد له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخارى رضى الله عنه في صحيحه. وقد روى هذا الحديث من طريق آخر: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلًا ويدا ومويذًا.

فأصح رحمك الله إلى ما تضمنته هذا الحديث من غزارة قدر الوَلِيَّ وقخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحمله هذه المرتبة، كقوله ﷺ حاكياً عن الله:

(٧٣) وإن الفائق للقرآن ليعلم ما ذكره القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:

﴿فخرجوه وانصروا آلهم﴾

ثم أقوه في النار فكان الأمر الإلهي:

﴿فلما بانار كوني يرداً وسلاماً على إبراهيم﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان موالياً له سبحانه وتعالى في أهله، ومن كان موالياً له سبحانه وتعالى، كان متحداً له ولياً، ومن اتفد الله ولياً وسار في حياته على ما أحبه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فخر به الفتن لا تضره.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ ١٢

(٧٤) رواية البخارى: «فقد آذنته الحرب» وكلا الراويين صحيح في الحق إن من عادى ولي الله آذن الله بآخره، فأذن الله بالحرب - أفاضنا الله من ذلك وعافانا

«من عادى لي وليا فقد آذنتي بالحرب».

لأن الولي قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٧٥).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٧٦).

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار (٧٧)، وقدم لهم بوجود الانتصار.

أخبرني الشيخ شهاب الدين الأبرقوهي، قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه فسمعت يقول: يقول الله عز وجل: «عبدى اجعلنى مكان هبك أكفك كل هتك، عبدى ما كنت لك فأنت في محل لبعدي، وما كنت بي فأنت في محل القرب واختار لنفسك».

وقد جاء في الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» (٧٨).

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألته، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره، والثناء عليه عن الانتصار لأنفسهم؟

ومن عرف الله سد عليه باب الانتصار لنفسه (٧٩) إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلاً لمعرفته، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلاً فيهم؟ وكيف يدع أولياءه من نصرته وهم قد ألقوا أنفسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكماً؟ فهم في معاقل عزه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شيء إلا من ذكره، ويقطعهم عن كل شيء إلا عن حبه، ويحتازهم من كل شيء إلا من وجود قربه، ألستهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطناً لهم وطناً بين يديه، فقلوبهم جاثمة في حضرته، وأسرارهم محقة بشهود أحدىته.

ولقد سمعت شيخنا أياً العباس رضى الله عنه يقول:

ولئى الله مع الله كولد اللبوة في حجرها، أنراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

(٧٥) الطلاق: ٣.

(٧٦) الروم: ٤٧.

(٧٧) جمع «غير» بمعنى: سوى. أى كل ما سوى الله.

(٧٨) البخارى في التاريخ والبخارى في المستند والبيهقى في الشعب من حديث عمر بن الخطاب.

(٧٩) قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصح فأجره عن الله﴾.

وقال: ﴿والكاظمين الغيظ والعابدين عن الناس﴾ وأما يجب المحلين.

وما كان الرسول ﷺ يفتن إلا بالله.

وما يذكر أن الولي يقتدى برسول الله ﷺ في الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة الولي إلا الانتصار لله تعالى؛ ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله في أسرته، وينتصر لله في مجتمعه، أنه يقوم بالمبدأ الإسلامى الواجب وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ﷺ كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها وضع، فلما وجدته أحبت عليه وألقت به القدي، فنظر الصحابة إليها معجبين، فقال ﷺ: «الله أرحم بعبده مؤمن من هذه»^(٨١)، فولدها.

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم؛ إذ هم حمال أسرارهم ومعادن أنوارهم. وقد قال الله سبحانه:

﴿إِنَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٨٢).

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٨٣).

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن أذى أوليائه ليس يلزم أن تكون معجلة؛ لقصر مدة الدنيا عند الله؛ ولأن الله لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبه أعدائه كما لم يرضها أهلاً لإثابة أحيائه، وإن كانت معجلة فقد تكون فساداً في القلب، أو جوعاً في العين، أو تعويقاً عن طاعة الله، أو وقوعاً في ذنب، أو خثرة في الهمة أو سلب للذاتة خدمته.

وقد كان رجل في بني إسرائيل يُقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يارب كم أعصصك ولا تعافيني، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمن أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسليك حلاوة ذكرى ولذاتة مناجاتي؟

وفائدة هذا البيان أن لا يحكم لإنسان أذى وليا من أولياء الله بالسلامة، إذا لم تر عليه محنة في نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكباً عن الله عز وجل:

«وما تقرب إلى التقربون يثل أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: لصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والمحبة له، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهي أيضاً تنقسم قسمين: أفعال وتروك، شيء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشيء اقتضى الحق منك أن لا تفعله، وقد جمع ذلك في آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾^(٨٤).

فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٨٥).

(٨٠) رواه البخاري في الأدب، وسلم في التوبة، وأبو داود في المجتاز وابن ماجه في الزهد.

(٨١) البقرة: ٢٥٧.

(٨٢) النمل: ٩٠.

(٨٣) الحج: ٣٨.

فهذا أمر اقتضى منك أن تتركه.

ثم اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو يقتضيه منهم تدباً إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر. ولم يقتض منهم ترك شيء تحريماً أو كراهة إلا والمصلحة لهم في أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب^(٨٤) على الله رعاية مصالح عباده. بل إننا نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعملها مع عباده على سبيل التفضل، فليت شعري إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إننا نظرننا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع^(٨٥) على الله، وكل منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة^(٨٦) عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه، لكن الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله، فلذلك أمر بها، والمحصية هي أسباب التفرقة ووسائلها، فلذلك نهى عنها. وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفك عن فروض باطنة، والفرائض الباطنة شرطها وعمدة^(٨٧) لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وأفهم ههنا قوله ﷺ:

«تَبَةِ الْمُؤْمِن خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»^(٨٨).

(٨٤) بخير بذلك إلى رأى الممتزجة.

(٨٥) الجمع ما كان من أقبل الحق من إبداء تعاقب وإسداء لطف وإحسان (انظر الرسالة القشيرية). والجمع في كل معناه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وأتار القرب، من الله سبحانه وتعالى لا حديد له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا يتناهى، ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كمال، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان، وكلما زادت استعانة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة في كتابه التكرم بزيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمين، وعن الأبرار، وعن المقربين، والمقرَّبون هم قُتَّةُ أهل الإيمان، ودورهم لأبرار في المرتبة، وأهل اليمين ناجون وكلهم مصلّا يتفاضلون في الفضل بحسب صميم في طاعة الله والخضوع له. والتفرقة: هي البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصي، وهي بعد عن الكمال، ونقص في الإيمان.

(٨٦) أى رقية الكسب من إقامة العبودية وما يخلق بأحوال البشرية.

(٨٧) أى معينة عليها.

(٨٨) رواد التفاضل في سبيل الشهادة، وابن عسكرو في أماليه وقال عريب والطبراني في المعجم الكبير: قال الهيمى: رجاءه موتون إلا حاتم بن عباد بن دينار لم أر من ذكر له ترجمه، وقال السامري: له عدة طرق في بحر طيفه، وإنما كانت تَبَةِ الْمُؤْمِن خيراً من عمله.

لأن تقبله الله العبد في الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيته؛ لأنه لو كان يعمل كان خلوده فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه جازاه بتبته؛ لأنه كان تائباً أن يطعم الله أبداً، فلما اخترعته منه جوزى بنيته، وكذا الكفار لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التشديد في النار إلا بقدر مدة كفره وأنه توى الإقامة على كفره أبداً لو بقى فجوزى بنيته. ذكره بعضهم.

وقال الكرمانى المراد أن التَّيَّةَ خير من العمل بلا تَّيَّةَ، إذ لو كان المراد خير من عمل مع تَّيَّةَ لزم كون الشيء خيراً من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذى هو التَّيَّةَ خير من الجزء الذى هو العمل، لاستعانة دخول الرياء فيها، أو أن التَّيَّةَ خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن التَّيَّةَ قبل القديس، وقبل الأشراف أشرف، أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتوسير بها أكثر لأتباعه.

وقال البعض: إننا قال النبي ﷺ ذلك؛ لأن التَّيَّةَ عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبغ وأضعف، وهو أمير، والجوارح رعية، وعمل القلب أعظم وأبغ، ولأن العمل يدخل تحت الحصر، والتَّيَّةَ لا، إذ التحقق في إيمانه عقد ثبت على أن يطعم الله ما أحب، ولو أماته ثم أسماه، وثم ثم، وهذا اعتقاد منزه، فخيرته من كل الجزاء على تيمه ما لا يترتب به على عمله.

وكذلك الذنوب الباطنة صغارتها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة، صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاة إيجاب حتمه عليه لم يدخل العبد فيها إلا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها؛ لأن الله سبحانه وقت أعبادها وآمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتطعا عن اختياره لنفسه، راجعا إلى اختياره الله له، فأوجبت من التقرب إلى الله ما لم يوجبه غيرها فذلك قال: «ما تقرب إلى المتقربون بمثله أداه ما افترسته عليهم».

ثم قال: وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فاعلم أن النوافل هي الزيادة؛ ولذلك سمي النفل نفعاً، وهو ما ينفعه الإمام لمن يراه: زائداً على نصيبه من الغنمة، وقال الله سبحانه: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لله﴾ (٨٩).

وقال بعضهم: معناه، أن المؤمن كلما عمس شيئاً نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لينته في الخير منتهى، ولما فجر كلما عمل شيئاً نوى أن يعمل ما هو شر منه، فليس لينته في الشر منتهى.

وقال بعضهم في حديث آخر: من نوى حصة فلم يعملها كتب له حصة، فإن عملها كتب له عشر حساب، فاعلم أن هذا الحديث خير من التوبة، وليس ذلك مراداً للحديث الأول، وإنما تكون التوبة خيراً من العمل في حال دون حال. وقال بعض شيوخ مسلم: أفاد هذا الخبر أن التواب المترتب على الصلاة أكثر للمية وباقية لغيرها من قيام وغيره. وفي رواية: «توبة المؤمن أبغى من عمله» ما تقره، ولأن المؤمن في عمل وتبته عند قراءته لعمل قال، ولأن التوبة بانفرادها توص إلى ما لا يوصله العمل بغيره، ولأنها هي التي تلقب العمل بالمعالي فاسداً، والقاسمة صائغاً، مثاباً عليه، وتتاب عليها أضعاف ما تناب على العمل، ويعاقب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبغى وأغنى. وتقبل: إذا قصدت التوبة وقمت الليلة.

ومن الناس من تكون توبته وهمة أجل من الدنيا وما عليها، وآخر توبته وهمة من أغس نية وهمة، فالتي تبتغ بصاحبها في الخير والشر ما لا يبلغ عمله، فأين ية من طلب العلم وعلمه لوصول الله عليه وملاكمته وتستغفر له دواب البر وحيتان البحر إلى نية من طلبه للأكل أو وظيفة كندرس؟

وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجه الله والسر إليه وسماح كلامه وتسليمه عليه في جنة عدن، وبين من يطلب حقاً خبيثاً كندرس أو يتخرجه من العرض المأثوم.

قال الحكمي: والنية عرض القلب إلى الله، وبدؤها خاطر ثم الشهادة، ثم الإرادة ثم التبرؤ: ثم اللجوء إلى الله تعالى مرصلاً بعقله وعمله وذمته وعزيمته لمن هنا ثم التوبة إليه ومخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله، وإذا صحح العزم خرج الزيادة والفضل والقيلا من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما خير لكامل قصده مرج (بستان)، من أروج مطلق فيه من النباتات ما إذا غطى فيه لا بكاء يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة التناق؛ فهذا صدر فيه أشغال النفس وعزيمتها ورساوس شهواتها فمن أين يأتي التوبة؟

وإذا استنير قلب أبعد أزهى في صدره مسح قد شرعه الله للإسلام فهو على نور من وجهه (وطب بذكر الله ورحمته) وصلب بالألمة الله.

والنفس في هذه المنية على طيقات: أما توبة العمة فارغها لهم إلى الله هذا العلم والطفل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتحالهم المحر، ثم ليس لتلجهم من القوة ما يرملون به فيطرون لأنه لا ريش تقلوبهم والمحو مستود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أقصد طرقها إلى وجهه.

وأما المارغون فنياتهم صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارغى إلى الله ووجد الطريق إليه فسر القلب أمير والنفس أسير، أهد قيض القدير ج ٦ ص ٢٩٦.

أى زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.

واعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئاً من الواجبات غالباً إلا وجعل من جنسه نافلة حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التي هي من جنسه؛ ولذلك جاء في الحديث: أنه ينظر في صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزى عليها وأُتيبت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته» (٩٠) حتى قال أهل العلم: إنما تنيب لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة. ولما علم الله سبحانه أن في عبادته المزمعين أقوياء وضعفاء كما جاء في الحديث:

«المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير» (٩١).

ففسح الله على الضعفاء بالاكْتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب نوافل الخيرات، فعباد أنفسهم إلى لقيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصاً لأنفسهم من وجود المهلكة وملافة العقوبة، فما قاموا لله شوقاً له ولا طلباً برؤيته، فلو قبلوا بالمحاققة لا يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم يهضروا إلا لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلا حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين بسلاسل الإيجاب؛ لذلك جاء في الحديث:

«عجب ربك من قوم يقادرون إلى الجنة بالسلاسل» (٩٢).

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم متلفتة إلى الله من عوانق هذه الدار، فلو لما يجبر عليهم التفتل بالصلاة في أوقات النهي لسر مدوا الأوقات بها، ولجأوا لأنفسهم فوق ما يطبقون.

ومما يدل على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال في حديث: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل ينتظر أحدكم إلا غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مقتداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» (٩٣).

فهذا الحديث يقتضى إتهاض الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والبحث على المبادرة إلى طاعته، ومسايرة العاراض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأول فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجاءت أحاديث أخر أمرة للعباد بالاعتقاد في الطاعة لتلا يطيعوا باعث الشغف فيحصلون أنفسهم فوق ما يطبقون فيؤدى ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

(٩٠) رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم عن محمد الدارى بنحوه وصححه السيوطى.

(٩١) رواه مسلم وصححه المؤمن القوى جبر وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خير. أحصى على ما يتفك واستغن بالله ولا تمجز. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أن فعت كذا، كان كذا، وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود.

(٩٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه.

«أَكْفَلُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تَطِيقُونَ فَرَأَاهُ لَا يَلُفُّ اللَّهُ حَتَّى تَمْلُؤُوا» (٩٤).

وقال: القصد القصد تلبثوا (٩٥).

وقوله: «إِنَّ هَذَا الَّذِينَ مَتَّينَ فَأَوْغَلُوا فِيهِ بَرَقَ» (٩٦).

وقوله ﷺ «وَلَا تَبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ».

ومثل القائم بالواجبات المكتفى بها والقائم بها وبالتواضع معها كمثل عبيد خارجها (٩٧) الملك على أربعة دراهم كل يوم فأما أحدهما فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف التواضع وغرائب التحف فاشتراها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أولى بؤد السيد من العبد الآخر. وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث إلى آخره. المعنى به: وجود البقاء بعد الفناء فتحمي أوصافك وتطوى بظهور أوصاف المولى فيك. وسمعت شيخنا أبا إسماعيل رضي الله عنه يقول:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا مَحْوًا أَفْعَالُهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَوْصَافُهُمْ بِأَوْصَافِهِمْ وَذَوَاتُهُمْ بِذَوَاتِهِمْ وَحُلُمُهُمْ مِنْ أَسْرَارِهِمْ مَا يَعْبُزُ عَامَّةَ الْأَوَّلِيَّةِ عَنْ سَمَاعِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ غَرَقُوا فِي بَحْرِ الذَّاتِ وَتَبَيَّرَ الصِّفَاتِ، فَهِيَ إِذَا فَنَاءَتْ ثَلَاثٌ أَنْ يَفْنِكَ عَنْ أَفْعَالِكَ بِأَفْعَالِهِ، وَعَنْ أَوْصَافِكَ بِأَوْصَافِهِ، وَعَنْ ذَاتِكَ بِذَاتِهِ، وَلِذَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

رَقُومٌ تَاهَوُا فِي أَرْضٍ بِقُصْرٍ وَرَقُومٌ تَاهَوُا فِي مِيدَانٍ حَبِيبٍ
نَافَتْوَا ثُمَّ أَفْنَوْا ثُمَّ أَفْنَاوَا وَأَيُّقُوا بِالْبَقَا مِنْ قَرَبٍ قَرِيبٍ

فإذا أنشأتك عنك أبدك به، فالفناء دليل البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناءه صدق بقاؤه، ومن كان عا سوى الله فناءه كان بالله بقاؤه، ولذلك قالوا: من كان في الله تلفه كان على الله خلقه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء، والبقاء يحضرهم مع الله في كل شيء، فلا ينقطعون عنه بشيء، الفناء يغيبتهم، والبقاء يحبيهم، ومن دكت جبال وجوده استمع داعي شهوده، قال الله سبحانه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٩٨).

(٩٤) رواه أحمد وأبو ذريرة والنسائي ورواه الشيخان نحوه.

(٩٥) رواه البخاري.

(٩٦) رواه أحمد عن أنس وصححه.

(٩٧) أطلقها ليعلم حزين على أن يؤذنه إليه أربعة دراهم كل يوم.

(٩٨) طه: (١٠٥ - ١٠٨) وما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف للمحمودة.

وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة فمن غير أوصافه للمحمودة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الحاصل للمحمودة استترت عنه الصفات المحمودة.

وصاحب البقاء يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.

وقوله: وما ترددت في شيء أنا فاعله أكثر من ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه.

اعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد في المخلوقين: إما لتقابل الجوانب، وإما لاتبهايم العواقب وذلك بحال في حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق علم الله يقتضي وفاة العبد في الوقت الذي سبق العلم بمعيته، وصفة الرأفة تقتضي دفع ذلك لولا ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى صفة العلم بقوله: ولا بد له منه.

انعطاف:

واعلم رحمك الله بإتياله عليك وجعل أنواره واصلة إليك، أنها ولايتان: ولي يتولى الله، وولي يتولاه الله، وقد قال الله عز وجل في الولاية الأولى:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٩٩).

وقال في الولاية الثانية:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠).

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من أجل مواعب الله الرضا بمواقع إقصاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند التوائب.

فمن خرجت له هذه الأربع من خزان الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنة، والاعتناء بالأئمة، فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.

ومن خرجت له من خزائن المن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

ففرق بين الولايتين: فبعد يتولى الله، وعيد يتولاه الله فيها ولايتان: صغرى وكبرى، فولايته التي خرجت من المجاهدة، وللايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنة، وللايتك للمؤمنين خرجت من الاعتناء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... الْآيَةَ﴾.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه (١٠١)، وفهمك لطائف عوارفه: أن الصلاح الذي في قوله عز وجل:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

ليس مراداً به الصلاح الذي يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولي، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلّحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكياً عن يوسف عليه السلام.

﴿تَوَقَّيْ مَسَلِكًا وَأَخَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آياته، لأن الله أمّهم لنبوته ورسالته، فكاتبوا لها أهلاً. وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، فولاية الإيمان قول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (١٠٢).

وفي هذه الآية قوائد:

القائدة الأولى: اختصاص اسم الله بالذكر في هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء فقال الله سبحانه:

﴿إِنَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التي تتضمن الأوصاف؛ لأنه أراد أن يعرفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء فلو ذكر اسماً من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

القائدة الثانية: ربط الولاية بالإيمان: ليعرفك عزايزة قدر الإيمان وعلو منصبه حتى كان سبباً لنبوت ولاية الله للعباد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضي، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أي وقت كان ذلك الإيمان، وقد تساق الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأول: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرض لزمن معين.

القائدة الثالثة: دلّ سبحانه بقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته: إذ لما قال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

علم أنهم قد يدخلون في الظلمات، ولكن الله لولايته إيّاهم يتولّى إخراجهم، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ مِّنْ يَّغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق

البشارة لهم، ولم يقتل: والذين لأ يفعلون الفاحشة: إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (١٠٣).

وكذلك قوله: ﴿وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ﴾ (١٠٤).

فمدحهم بالمغفرة بعد غضب، ولم يقل: والذين لا يعضبون، فيصدهم بتقدان الغضب أصلاً؛ إذ البشرية التي هم منصفون بها لا تقتضي ذلك.

الفائدة الرابعة: إعلام الحق سبحانه في هذه الآية المؤمنين ببشارة عظمى تضمنها ولايته؛ لأنها تضمنت كل خير من خيور (١٠٥) الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأييد ووجود مزيد، وحور وقصور، وأثمار ونمار، ورؤية الله ورضى عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين. وأخذ الكتاب بالبعين، وثقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط وما سوى ذلك من المنح والمواهب التي تضمنتها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهي البشارة التي تضمنت كل بشارة.

وأعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿قُلْ لَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ مِنَّا فَتَفْعِلَهَا إِيْمَانُ﴾ (١٠٦).

ومن قوله: ﴿قُلْ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (١٠٧).

وفي هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الإيمان بنفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس. وكذلك قوله:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا نَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ (١٠٨).

فمفهومه إذا كانت مؤمنة من قبل لنفعها (١٠٩) بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١١٠).

وتضمن النصر لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).

وتضمن النجاة لقوله:

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢).

(١٠٣) التورى: ٣٢.

(١٠٤) آل عمران: ١٣٤.

(١٠٥) جمع خير.

(١٠٦) يونس: ٩٨.

(١٠٧) شفر: ٨٥.

(١٠٨) الأنعام: ١٥٨.

(١٠٩) أي انتفاعها بإيمانها.

(١١٠) الحج: ٣٨.

(١١١) الروم: ٤٧.

(١١٢) الأنبياء: ٨٨.

الفائدة الخامسة: قوله:

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى النُّورِ﴾.

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات المخطوط إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة.

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكنائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور التموى.

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحوَال والقوى:

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكوّن.

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التقويض.

إلى غير ذلك مما لا يحصره العد مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.

الولاية الثانية: ولاية الإيمان، وهى تتضمن الإيمان والتوكل، وقد قال الله سبحانه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١١٣).

ولا يكون التوكل إلا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكل إلا مع إيمان؛ لأن اليقين عبارة عن استقرار العلم بآية فى القلب، مأخوذ من يقن الماء فى الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقيناً.

والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة، واليقين لا تجامعه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان؛ ولاية الصادقين، وولاية الصديقين.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء مع الله، طلباً للجزاء من الله.

وولاية لصديقين بالفتنا عما سوى الله، والبقاء فى كل شيء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه، فى بعض كتب الله المنزل على أنبيائه، «قال الله: «من أطاعنى فى كل شيء أطعته فى كل شيء».

فقال الشيخ أبو الحسن: (من أطاعنى فى كل شيء بهجرانه لكل شيء) أطعته فى كل شيء. بأن أحلّ له فى كل شيء حتى برأى أقرب إليه من كل شيء، هذه طريق أولى، وهى طريق لسالكين.

وطريق كبرى: من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء لحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أنجلي له في كل شيء، حتى يرائي كأني عين كل شيء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنها وليان: ولي يفي عن كل شيء فلا يشهد مع الله شيئاً، وولي يفي في كل شيء فيشهد الله في كل شيء، وهذا أتم؛ لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلا كي يشهد فيها، فالكائنات مرايا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاه، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها: تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. ولنا في هذا المعنى:

ما أبسنت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها
فأزق عنها رهي من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاه

فالنظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفاني عنها عبد بسطوات الشهود ذهل، والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيتها لا من حيث ظهور الحق فيه، وذلك: لعدم نفوذهم إليه في كل شيء لا لعدم ظهوره في كل شيء، فإنه ظاهر في كل شيء حتى إنه ظاهر فيها به احتجب فلا حجاب. ولنا في هذا المعنى:

أرى الكل محتجباً وأنت لك الغي
وأنت الذي تبدى الوداد تكتبياً
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً
عزمت على أن أنزك الكون كله
شهودك يحلوا والحجاب لأنه
وما أحسن الأسباب في كل حالة
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد
وأنت الذي أظهرت ثم ظهرت في
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر
فأنت غواد عن وداك ينشئ
وأية نفس لم يلهها هواك
ومثل من يخطئ ومثل من يعفو
ومثل من يرعى ومثل من ينجو
ولم يصف - لا واقع - أني له يصفو
وأقفو سبيل الحب والمجتنى يقفو
إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
فله ما يبدو والله ما يخفو
قلوبهم عن قول سر الهوى غلف (١١٤)
جميع المبادئ مثل ما شهد العرف
وفيه له أيضاً كما جاءت الصحف
وأية عين بعد قربك في تففو
على حبكم طراً نفوس الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان لأهل الاختيار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه: ﴿سُتَرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١١٥).

ولأهل الولاية الثانية:

﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١١٦)

(١١٤) أي مغطاة عن الحق.

(١١٥) فصلت: ٥٣.

(١١٦) الأنعام: ٩١.

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره، أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفاً به وهو المَعْرِفُ له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟
وقال مريدٌ لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال: أسعفك الله، أنطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يبصر القمرا
ثم استترت عن الأبصار يا صمد فكيف يعرف من بالعمرة استترا
فما احتجب الحق عن العباد إلا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهد إلا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذي غيب عنك شهود القرب.
قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

حقيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو غيبه انقطعت رائحته عنه. وأنشد بعض العارفين:

كم ذا غموه بالشعبين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسأل عن نجد وأنت بها وعن هامة هذا فعل متهم
ووجدت بخط شيخنا أبي العباس رضي الله عنه:

أعندك من ليلي حديث محرر بإيراده يحيى السرميم وينشر
فمهدى بها العهد القديم وإننى على كل حال في هواها مقصر
وقد كان منها الطيف قدماً يزورنى ولما يزور ما بالله يتمنر
فهل بخلت حتى لطيف خيالها أم اعتل حتى لا يصح التصور
ومن وجه نيل طلمة الشمس تستفى وفي الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلا برقع حجابها ومن عجبى أن الظهور تستر

واعلم أن الأدلة إنما نصبت لمن يطلب الحق لا لمن يشهده: فإن الشاهد غيَّب بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود في نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غيَّب بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكون أولي بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:
إننا ننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإننا لا نرى أحد

من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بد فكالماء في الهواء إن فتنته لم تجده شيئاً.

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل له من الرضوخ ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذي ولأها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف عندها ولم ينفذ إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوي: أصبح رسول الله ﷺ في أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأنما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.

رواه مالك في موطئه^(١١٧)، فلا بد من الأسباب وجوداً ولا بد من الغيبة عنها شهوداً. وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها أو معرفة له وهو الذي عرفها. فإن قلت: فقد جاء في الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهي كون من الأكواف فيه إثبات توصيل الكائنات إليه.

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: في هذا الحديث تأويلان: أحدهما: أي من عرف نفسه بذاتها وعجزها وفقرها عرف الله بعزّه وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أولاً ثم معرفة الله من بعد.

والتأويل الثاني: من عرف نفسه عرف ربه، أي من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين والثاني حال المجذوبين.

واعلم بسط الله لك بساط مثته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولى ولياً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس النساء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك لقلول الله سبحانه فيها يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعني أرضي ولا سمعني ويسعني قلب عبيد المؤمن»^(١١٨).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً. ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بتور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لكبد لأن

^(١١٧) ررواه الطبراني ومسلم.

^(١١٨) لعل أصيل هذا الحديث ما رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني من قول النبي ﷺ: إن لله آنية من أهل الأرض، وأتة ربكم قلوب عباده الصالحين.

أوصافه من أوصاف ونعوته من تعوق، ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخى صلاة فشهدت ما أهر عقلى، وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأه، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أننى لم أستطيع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر فى مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب؛ ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تنسرب بالليل
بل وشمس القلوب ليست تخسب
ونور الشمس يشهد به الأتار ونور اليقين يشهد به المؤثر.

ولنا فى هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور
ولشمس اليقين أهر نوراً
فرأينا بهذه النور لكنا
بها نيك قد رأينا النيرا

لكن الحق سبحانه يوفى أعيان الكائنات حقها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكن كَوْن رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سر الخصوصية فى وجود البشرية، ولا بد للشمس من سحاب وللحساء من نقاب، وهل يكون الكنز إلا مدفوناً والسر إلا مصوناً؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سر الولاية غيباً، فيكون المؤمن به مؤمناً به مؤمناً بالغيب، وأيضاً أجل ولايته أن يُظهره فى دار لا بداء لها فأرعى عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التى رضىها أهلاً لظهوره واقتراه ووجود كشف حجابها، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سر الولاية ويجل مقداره ويرفع مناره^(١١٩).

(١١٩) حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإصرار بها. فيه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، ويحذى العرب ويصدقها ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك فى العار ونزل الوحي لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بالى بقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه: ﴿واقرأ باسم ربك الذى خلق﴾. ومضى الفهم الأول كله، ولم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثاً عاماً أو مستقيماً عن إثبات وجود الله - تعالى - ومضى أكثر القرن الثانى والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث، ذلك أن وجود الله - إذا هو أمر يدعى لا ينبغي أن يتمتع فيه المؤرخون نقياً أو إثباتاً، ولا سلباً أو إيجاباً إن وجود الله من القضايا السلمة التى لا توضع فى الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية، وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث، إنما هو شخص فى إيمانه دخل روى دينه انحرافاً، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يشته البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجره لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله. وإنما نصفت القرآن أو التوراة - حتى على وضعها الحال - أو الإنجيل - حتى فى وضعه الزمان - وإنما لا تجد أن مسألة وجود الله قد اختلفت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية، أو احتلت مكاناً يصر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم: يتحدث عن عداوة وجود الله حتى عند ذوى العقائد الشرفة يقول سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ إنهم يقولون: إن الخالق هو الله، مع أنهم مشتركون أو متحرفون برجه من الوحد - فى جانبهم بالله تعالى، وما نزلت الأدبان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصبح الاعتقاد فى الله، أو لتصبح طريق الوحيد.

أما الآيات الكثيرة التى يطن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود، فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير، إنما تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه وهيبته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره ودق منه، لا تقوت هيبته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن =

فانعم رحمك الله أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه، فلا بد من إظهاره للعباد إذ

«سلطاناً ما حق وما جَلَّ».

وقد أتت على هذا الوضع نفوذ الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه، ولا يأتى ما يأتى أو يدع ما يدع إلا في سبيله تعالى.

ومضى القرن الأول على ذلك، ومضى القرن الثانى - أو أكثره - على القطرية ثم كانت الفلسفة اليونانية. والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية؛ لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة، أى في عالم العقيدة إنما هي فكرة وثنية، أى أنها فكرة لا حتى لها في الوجود؛ لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، يبيته على لسان رسله، وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم، إنما هو تدخل فيها ليس للإنسان التدخل فيه؛ لأنه اقتحام لمساحة محرومة مقدسة لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاضع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي. إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة؛ فلسفة وثنية؛ إنما وثنية حتى حوز تثبت وجود الله، ولا يفرجها إبتائاً بوجود الله عن أن تكون وثنية؛ إنما وثنية بالمبدأ الذى قامت عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى. ويسوى بهد ذلك أن تكون قد أثبت وجود الله أو أنكرته.

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة، ولا يبرر ذلك وجوده ولا قيمة لما تثبته، وإبتائها والتدعيم سواء ذلك أن العقل الذى أثبت هو العقل الذى يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذى ينكر بالعقل. ولا لزوم إذن للمنطقة والتصنيف الذى نجيب به كل عقيدة فكرية في الشرق أو في الغرب تحاول فكرياً أن تثبت وجود الله. إنما لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقرياً.

ويجب على المؤمن ألا يتهم وزراً أى وزن لأنى نتاج فكرى في عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف مقتضى أو وافقه؛ إنه في مقتضىه يدين لله وحده، وكفى بالله مصدراً، وكفى بالله حادياً، وكفى بالله مرشداً ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، ومن يعصم بالله فهو حسيه.

إن كل ما عدا الهدى الإلهي في عالم الدين إنما هو وثنية وضلال. كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أوردت أن تجد شيئاً بعضها من الخطأ اخترعت فناً وثنيةً أخرى، هو قرئ المطلق، فما أبهى ولا أغنى، ولا تتقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شرى تقيراً!

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هي عليه، كلها كل سمات الوثنية من خلال وعرفاتها. ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان في ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل الفص المجهل في الجزيرة العربية؛ فلبثت إلى العقل وألفته، وأخذت تثبت به وتكره فضلت وأضلت. جاءت الديانة النصرانية مصححة للموضع، فمزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية، وسبت بالله جلّ جلاله أن عن تضع وجوده موضع البحث ثم سلبت إليها - كمكروب حيث - وثنية اليونان، فبقيت من وجوده - مجرد وجود الله بالياً ضحياً من أرباب البحث أو من أرباب اللاهوت الكسبي. ونزلت بذلك الفكر الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجوف الوثني البشرى! وجاء الإسلام تظهراً كاملاً للنقيدة، وتركبة نائلة للإيمان، وأعلن مجرد التسمية: «الإسلام» الحرب على التدخل البشرى في دين الله ورسالة، ثم جاء الإسلام إلا للإسلام المطلق لله سبحانه وماله، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة؟ وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سئى مؤثماً؟ إن الاسترسال مع الله على ما يجب هو الإسلام وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ عَنْهُ﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله في وحيه استسلاماً مطلقاً، فإنه يفتنى - في قليل أو في كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً. ولقد كان الإسلام توجيهاً - وكان مبادئاً

ومن توجيه الإسلام: أن يعود الله لا يبتنى أى موضع موضع البحث، وكل من وضعه موضع البحث؛ فإنه بذلك يعذل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى. إنه يفتنى غير الإسلام توجيهاً!

ولقد ابتنى المسلمون الأول الإسلام توجيهاً كما ابتعوه مبادئ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسلمت الفلسفة اليونانية - =

لا يكون للدعاء إلى الله إلا كذلك، ثم لابد أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: الجلالة، والبهاء.

- كمكروب خيت - إلى الحق الإسلامي، تسلب في عهد المأمون، ونزل كثير هذا التسلب المأمون، وضعفه على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من التصور، وحتى لم ذلك، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضي بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهي مرفوعة ترغرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط الغلبة - فنيل هذه الريبة قليلا أو كثير لترفع بحوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة وعارض المؤمنون واحتجوا وبينوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهي وثنية.

ولكن التبع الوثني أخذ يقوى شيئاً فشيئاً، ثم طلب التصريح بالإقامة وسقوطها ومعذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله وبالرسالة والبعث - قد تلونت بالوثنية!

كلاً، وإنما الذي تلونت بالوثنية - وإلى حد كبير - إنما هو التبع والترعة والاتقاء في البحث ومصحح البحث وليس ذلك بالأمر الحزين أو الذي لا يؤبه له، كلاً - فذلك له خطورة في جانب قوة الإيمان وضعفه.

وفرقي بين أن تأخذ قضايها الوحي بأخذ المستقسم المسترسل معها عن ما ترهب، وأن تأخذها بحكمها فيها عقلك مؤزلاً لما أو عادلها بها إلى اتجاه خاص، أو شارفاًها على نزعة معينة.

وبمبهم آخر: فرقي بين أن تصدر عن لومى منتفهاً له بعقلك، وبين أن تصدر عن عقلك منتفهاً للوحي. ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً في تصهيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنساني: فهو إما أن ينطلق عن الوحي قائداً العقل إلى المفضوع له، وإما أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما يوافق النتائج التي وصل إليها العقل، والأول طريق المؤمنين المسلمين، والثاني طريق الفلاسفة أو تبع الموثنيين، والتبع الوثني - نتج إتهام وجوده عقلياً - هو الذي أتاح لانحراف الكامل أى إنكار وجوده، فمادام التبع الوثني قد أعطى حق الوجود، فإن الوثنية - كمبعض - تأتي بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث، هو الذي بدأ لدى الفيلسوف المنعرفة أن يبدعوا في دين الله، وأن يكفروا به سبحانه، هذه نتيجة!

أما النتيجة الثانية فونها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعت موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع شك وريبة فعماذا يبنى من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟ إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية لا يتأق له إلا أن يغيب شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلاً إيماناً

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد في الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون مصوباً، وما ذلك إلا لتسلط التبع الوثني في بحث قضايا الدين ومبادئه، لقد أصبحت قضايا الدين - كل قضاياها - موضع بحث وهل يتأق أن تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بعد أن

وضع وجود الله - مجرد وجوده سبحانه - موضع البحث؟ نستفرك اللهم وننوب إليك! ونسود نقول: إن الدين في نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ولكن الذي تشكو منه إنما هو: التبع، أو المنهج أو النزعة، أو الاتجاه في البحث إن الذي تشكو منه إنما هو:

منهج البحث الوثني: وإن شئت قلت: إنما هو منهج البحث اليوناني. شئ أحد الممارين من الدليل على الله فقال: الله! فقبل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله!

أما الإمام الكبير الشافعي رحمه الله عطاء الله السكندري الذي جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فونه يقول: إلهي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده محقق إليك؟

أفكون لنفرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غشيت حتى تحتاج إلى دليل مدّ عليك؟ متى بدعت حتى تكون الأكار هي التي ترسل إليك؟

«كيف يتصور أن يحصيه شيء وهو الذي أظهر كل شيء»؟

أما جلالة فليعظمه العباد فيقفروا على حدود الأدب معه، ويضع له في قلوب العباد هبة يعصره بها؛ ليكون إذا أمر وصي مسموعاً أمره ونهي، وجعل هذه الهبة في قلوب العباد عن تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَفَعَلُوا عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١٢٠).

وهي من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال الله سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١).

وهذه الهبة التي جعلها الحق في قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لا تيسط جأه المتبوع عليهم، ألم نسمع قوله ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر (١٢٢)؟ أنيسهم الحق ملايس هيبته، وأظهر عليهم إجلال عظمتهم، كأي نزولاً إلى أرض عبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوكة وإن لم تخفق عليهم البنود (١٢٣)، والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

وقه هو القائل في مالك بن أنس رضي الله عنه:

بأي الجواب فما رُاجع هبة والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار، وعز سلطان التقى، فهو المطاع وليس ذا سلطان

ومن ملكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك، قال الله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ﴾ (١٢٤).

وصمحت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

قال ملك من الملوك ليعظم العارفين ممن على:

فقال له ذلك العارف: إلى تقول ولي عبادان قد ملكتهما وملكك وقهرتهما وقهرك وهما الشهرة

«كيف يتصور أن يحبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء» ١٢٠

«كيف يتصور أن يحبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء» ١٢١

«كيف يتصور أن يحبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء» ١٢٢

«كيف يتصور أن يحبه شيء وهو أظهر من كل شيء» ١٢٣

«كيف يتصور أن يحبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء» ١٢٤

«كيف يتصور أن يحبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء» ١٢٥

«كيف يتصور أن يحبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء» ١٢٦

مشتان بين من يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأخيه فأثبت الأمر من وجود أصبه، بالاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، والآن بقي غلب حتى يستدل عليه، وبقي بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه» ١٢٧

الحج: ٤٦.

(١٢٦) التافون: A.

(١٢٧) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(١٢٨) أي ترغرف الرابات.

(١٢٩) آل عمران: ٢٦ - وما ذكره المؤلف رضي الله عنه هو بعض ما تنشر إليه الآية الكريمة وهي عامة، فهي تشمل الملك في الآفاق - كل الآفاق - وفي الأنفس أنه سبحانه المالك للسموات والأرض وما بين السموات والأرض، وهو سبحانه المالك ما يشاء لمن يشاء، ومع قلبك ما يشاء لمن يشاء، فهو المالك الدائم لكل ما خلق ويخلق.

والحرص؟ فأنت عبد عبيد. فكيف أتقى على عبد عبيد؟.

الكسوة الثانية التي يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة البهاء، وذلك ليحليهم في قلوب عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبة، فيكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١٢٦). فحلاهم بحلية المحبة ليجعلهم معبود فيجرحهم حبهم إلى حب الله، والحب في الله يوجب المحبة من الله، لقوله ﷺ حاكياً عن الله: (وجبت محبتي للمتحابين) (١٢٧).

وهي مراتب أربع: الحب لله، والحب في الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله ابتداءً، والحب من الله انتهاءً، والحب في الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواء (١٢٨)، والحب في الله أن تحب فيه من والآله، والحب بالله أن يحب العبد من أحبه وما أحبه منقطعاً عن نفسه وهواه، والحب من الله هو أن يأخذك من كل شيء فلا تحب إلا بإياه.

وعلاوة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلامة الحب في الله أن تحب من لم يحسن إليك بدنياً من أهل الطاعة والخير، وعلامة الحب بالله أن يكون باعث الحظ بنور الله مقهوراً، وعلامة الحب من الله أن يبغضك إليه فيجعل ما سواه عنك مستوراً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

من أحب الله وأحب الله فقد نمت ولايته بالحب.

والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذا من نبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لَهُ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٢٩).

فإذا الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحب الله من لا محبوب له سواء، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

(١٢٥) طه: ٢٩

(١٢٦) مريم: ٩٦

(١٢٧) قال النوري: حديث صحيح رواه مالك في الموطأ.

(١٢٨) يقول الله سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كُنْ تَحِبُّونَ دِينِيَ وَالْأُمَّةَ أَكْثَرَكُمْ وَأَخَوَانَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَتَكُمْ وَأَمْوَالٌ خَرَفْتُمْوهَا وَتِجَارَةٌ تَفْسَدُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحْبَبَ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.

(١٢٩) الجمعة: ٦.

ويتضح لك الحب له في عشرة فاعتبرها فيها ورامعاً:
في الرسول ﷺ (١٣٠). والصدق، والفاروق والصحابة، والتابعين، والأولياء والعلماء الهداة إلى الله تعالى، والشهداء، والصالحين، والمؤمنين.

فإذا اقرن الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء: إلى السنة والبدعة والهداية والضلالة، والطاعة والمعصية، والعدل والجور، والحق والباطل، وميزت وأحببت وأبغضت فأحب له، وأبغض له، ولست تبالي بأيهما كنت، وقد يجتمع لك الوصفان في شخص واحد، ويجب عليك القيام بحقوقها جميعاً، فإذا قد بان لك الحب لله في العشرة الأول، فانظر هل ترى للهوى هناك أثراً، فذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين، والمشايخ الصالحين، والعلماء المهتدين، وسائر من حضر ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات، فإن وجدت قلبك لا متعلق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله، وإن وجدت شيئاً يتعلق به فيمن تحب أو فيها تحب فارجع إلى العلم واتقن النظر في الأقسام الخمسة من الواجب والمنسوب إليه والمكروه والمحظور والمباح.

واعلم أن قول الشيخ: «من ثبتت ولايته لا يكره الموت» هذا سزان أعطاه للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعى فيهم أو ادعوا ولاية الله، فإن من شأن النفوس وجود الدعاوى والتوئب إلى المراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣١).

وقال هنا: ﴿فَتَمْنُواْ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣٢).

وقال الرسول ﷺ لحارثة: «لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» لما قال لحارثة: «كيف أصبحت؟» فقال: أصبحت مؤمناً حقاً ولا يجب الموت من فيه البقاء، ولا من هو مصر على شيء من الخطايا.

وجعل الله فتح الموت شاهداً للولي بولايته، وعدم تقيته شاهداً للغوى بفوايته.

وقل سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ﴾ (١٣٣).

والموت ميزان على الأفعال والأحوال، كما هو ميزان في دائرة الرتب أما الرتب فكما تقدم، وأما الأفعال والأحوال فإذا انتبس عليك أمر أنت فيه لا تدري: هل رضا الله في تركه أو فعله أو

(١٣٠) يقول رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» رواه مسلم.

ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله ﷺ:

واه لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي. فقال: لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسي.

علاء عمر: مات الآن واه أحب إلي من نفسي. فقال: الآن يا عمر.

(١٣١) النحل: ٦٤.

(١٣٢) الجمعة: ٦.

(١٣٣) الرحمن: ٩.

حالة أنت بها لا تدري: هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق، وكل حالة وعمل هزمتها الموت فهي باطل إذ الموت حق والحق يهزم الباطل وبدمعه لقول الله عز وجل:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١٣٤).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَنْزِلُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٣٥).

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَكَفَى الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١٣٦).

وما كنت فيه قائماً بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق. وقد تجاربت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص القلب لله فيه، وأنه لا يشتغل به إلا لله، فقلت له: الذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غداً تموت لم يضع الكتاب من يده. وربنا غرر الغافل من طلبة العلم قول من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»، وليس في قول هذا الغافل ما يستروح به من طلب العلم للرتاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا الغافل عن أمر من به عليه، وفتنة سلمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك ببناءة من به مرض زمين في المسمى أعياء علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجراً وضرب به مرائي بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المسمى قطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقلاء فعله وإن نجيحت عاقبته، وليست سلامة المواقف رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة.

«ليس المغر بمحمود وإن سلباً».

وقول الشيخ رضي الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواه» فهو كلام يستدعي معرفة المحبة وما هي؟

اعلم أن المحبة هي من أجل مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيها أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذي نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشفغ، فأداه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن الحب يريد دوام شهود المحبيب، والراضي عن الله راضى عنه أشهد أم حجب؟ والمحب يجب دوام الوصلة، والراضي عن الله راضى عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة المحبيب والراضي لا طلب له.

ولنا في هذا المعنى:

وكنت قدماً أطلب الوصل منهم قلنا أثنى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلباً له فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل

(١٣٤) الأنبياء: ١٨.

(١٣٥) سبأ: ٤٨.

(١٣٦) الإسراء: ٨١.

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفتهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يخلو
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

المحبة أخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائنة لطاعته، والعقل
متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغموراً في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد،
ويغتنح بما هو أعذب من لذية مناجاته، فيكسى حُلل التقريب على بساط القرية، ويَسَّ أبكار
الحقائق وثبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.
قال له القائل: قد علمت المحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقى؟

وما الذوق؟

وما الشرب؟

وما الرى؟

وما السكر؟

وما الصحوا؟

قال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب،

والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقى هو المتوَلَّى الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عبادِه وهو الله العالم بالمتأدِّير
ومصالح أحيائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظي منه بشيء نَفَساً أو نَفْسَيْن، ثم أَرَجَى عليه
الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقاً.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المغزونة فذلك
هو الرى.

وربما غاب عن المحسوس والمقول، فلا يدري ما يقال، ولا مايقول؛ فذاك هو السكر.
وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحبون
عن الصفات، ومع تراجم المقتدرات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.
فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يبتدون في ليْلهم.

وبشعوس المعارف يستضيئون في نهارهم.

﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (١٣٧).

قال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن رضى الله عنها:
الزم الطهارة من الشراب، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة
أصلحت بالتوبة، ما أفسدت يلهوى أو كدت.

وعليك بحبة الله على التوقير والنزاهة، وأمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت
أو تيقظت شربت، حتى يكونك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله، عن المحبة، وعن الشراب
والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقنس كمال جلالة.

ولعل أحدث من لا يعرف المحبة ولا الشراب ولا الشرب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو.
قال له القائل: أجل، وكمن من غريق في شيء لا يعرف بفرقه، فعرّفني ونهي عن أجهل أولنا
من به علي وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقنس
كمال جلالة.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء
بالأسماء والنعمت بالنعمت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل.

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب
بالتزويج بعد التزويج والتزويج فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتوّل ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد
بالرى، وبعد بالسكر والمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شئ كما أن السكر أيضاً كذلك.

والكأس مفرقة الحق يعرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده
المختصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدا معنوية، وتارة
يشهدا علمية، فالصورة حظ الأبدان والأنفس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ
الأرواح والأسرار.

فيأله من شراب ما أعذبه فطوي لمن شرب منه، وداوم عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (١٣٨).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كتوس كثيرة، وقد
يسقى الواحد بكأس وكتوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الأكوس، وقد يتخلف الشرب من

كأس واحدة وإن شرب منه الجمل الغفير من الأحية (١٣٩).

(١٣٩) لقد خلق بنا الخلق في مرضع المحبة في صورة نسي ما تكون العواطف. والواقع أن المحبة «صراط الأولياء» على حد تعبير الشبل.

إنها صراطهم الدائم. حين يملكون إليها تلجج بها ألسنتهم. ويقتل بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم. والناس في العواطف درجات: فمنهم سلاطين المحبة ومنهم سلطان الماشقين. ومنها جمع بالإنسان أمر الحب. ومنها كالسلطانة فإنه في الأوضاع الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط. وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونها. يقول الله تعالى في حديث قدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به. ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه. ولئن استعاذني لأعيذنه».

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالترجيح في قوة إلى صفاته القلب وطهارة الية بالنسبة لأوليائه. وأوليائه هم:

«الذين آمنوا وكانوا يتقون».

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه المداواة ما يتوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب».

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه وأول خطوة في هذا الطريق:

«أداء ما افترضه عليك».

ولن يتأتى حباً لله سبحانه دون الشرط الأول: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض. والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله. لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله - وكذبوا كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!

لا بد من أداء الفرائض. ولأنما كان لمجملها إلى القرب من الله تعالى من سبقي ومع أداء الفرائض - في وجوب القرب - الإكثار من النوافل. فإنما أكثر من النوافل أحبه الله:

«وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»!

ويترتب على حب الله تعالى لهذا هذا الخير الكثير الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - بهذا محكمًا بن محبة الله سبحانه وتباع رسول الله ﷺ متأسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه:

«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله».

وهذا الرابطة مصداق: الرابطة بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - في لوقيته - هي العمل. ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراز:

«ولمّا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن ناسًا قالوا - على عهد رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله! إننا نحب ربنا حبًا شديدًا» - فجعل الله تعالى لمحبه عليّ وأتزل عزّ وجل:

«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله».

فمن صدق المحبة أتباع رسول الله ﷺ في هديه وزنده وأخلاقه والتأسي به في الأمور كلها. والإعراض عن الدنيا وزهرتها وحببتها. فإن الله عز وجل جعل محبة الله عليه الصلاة والسلام عليّ ودليلًا ومجبة على آتته. ومن صدق المحبة قد تعالى إيتار محبة الله عز وجل في جميع الأمور عن نفسك وهواك. وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قيل أمر نفسك.

ويقول:

«فعلامة المحب الموافقة للمحبوب. والتجاري مع طرقاته في كل الأمور. والتقرب إليه بكل حيلة. والحرب من كل ما لا يعينه على منهجه».

انعطاف:

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، أن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

«أما عن صلة الشبهة بالإيمان فإن الإمام الغزالي يقول: وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخير كثيرة إذ قال أبو زين القليل: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». وفي حديث آخر:

«لا يؤمن القليل حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

وفي رواية: «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرًا وَأَتُواكُم مِّنْ دُونِهِمْ وَلْيَاكُمُ الْعَذَابُ﴾^١ وقال: لا يهدي القوم الفاسقين.

ولما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار... أهـ

ومن أجل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلهي إني مقوم ببنائك، مشغول بشأنك، صغيراً أخلص إياك، وسرايتي جهرتك، وأبستني من لطفك، ونقلني إلى الأحوال وقلبتني في الأعمال: سترًا وتوبه، وزهدًا وشوقًا، ورعًا وحبًا، تسقى من حياضك، وتغني في رياضك، ملازمًا لأمرك، ومشغوقًا بقولك... ولما طر شارب، ولاح طائر، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا، وقد اعتدت هذا منك صغيرًا، قل ما بقيت حولك دندن، وبالشريعة إليك مهمة، لأنني محب، وكل محبة بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وهجد:

فإن ثمة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿يُحِبُّ الشَّعِيرُ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم.

وهي أيضًا أن يجد خلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد خلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرأة لا يجد إلا الله.

٣ - وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

ولقد سمع الناس كثيرًا عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة العدوية رضي الله عنها، وسمعوها عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرقي، وتنبه أن تضع بجوار هؤلاء شخصية تنبها نموذجًا للصوفية في صلته بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان الهم الغفير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تنح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلي ولكن المؤرخين لحياة أبي بكر الشبلي يتحدثون عن حبه العميق وقيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذي يقول عنه:

ومنهم المصنف الزمان، والمصنف المسكر، الزاهد المظن، اجتناب عن التكدر والأفكار، واستطاب إلى الغفوة والأنوار، وسقى بالذات، والرحمن مثلاً ريان: أبو بكر النهر بالشبلي.

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن تمارها، وأن تصرفها وكل ما يحيط بها مغمس في جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من انفراد الشريعة المراد، وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والافتداء برسول الله ﷺ أساسًا لكل تصرفاتهم، أما عن أسباب المحبة: فإنها فيما يرى الشبلي نتيجة «الهمة»:

والهمة عند الصوفية هي التشهير والجد في العبادة.

وقول الشبلي:

«إن من ملئت به منعت محبته»

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الولي مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله في الكلام. ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير يثبت^(١٤٠) في مسامع الخلق عبارته، وحلقت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: كلام المذنون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١٤١).

وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١٤٢).

«فمع هذه إذن صوغاً وهبوطاً تكون اللعبة صوغاً وهبوطاً.

ولقد جلس عنه جمع من المريدين فوجدتهم غفلة لا يذكرونه فقال في حزن:

كفى حزناً بما لواله. الصُّ أن يرى... مشاغل من صوى مصطفة ففرا

وسئل مرة عن أعجب شيء فقال:

«من عرف الله ثم عساه»

ولا ير المص شيء أكثر من موافقة من يحبه

قال أبو القاسم عداة بن علي البصري: قال زجل الشبل:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقة» وأشد:

سُرُّ يهلكى فيه لائق أنسر بما يسر الإلف جدا

ولو سلت عظامي عن بلاها لأنكرت البلى وسمعت جعدا

ولو أخبرت من سقى لسانى فسيب الضيق من يسائه ردا

ولابد للمحب من الأدب الكامل في القول فضلاً عن السلوك ويقول الشبل:

«الاصطاع مع الحق بالقول ترك أدب».

والحبة رقى للمحبوب وإذا سالت عن الفرق بين رقى لعبودية ورقى المحبة فإن أحد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبل - وسئل - يقول: ما الفرق بين رقى العبودية ورقى المحبة؟ فقال: كم بين عبد ذا أعنى صار حراً وعبد كل

أعنى ازداد رقاً.

ثم أنشأ يقول:

لتحسرن عظامي بعد إذ بلغت يوم الحساب ونهنا حكم عني

وقد سألت إنسان عن تعريف المحبة عند الشبل: ما هي؟

والجواب: إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فحبب الصديق والإخلاص، وكنان الحال مع بلال الجهد في المجاهدة.

ثم بعد ذلك لا توصل للمحبيب إلا بفضل» **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك لَنُغْفِرَ لَكُمْ﴾**.

(١٤٠) بيت: أي حسنت وراقت.

(١٤١) الطلاق: ٣.

(١٤٢) الزمر: ٣٦.

وقال سبحانه: ﴿وَأَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤٣).

وقال سبحانه: ﴿وَأَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٤٤)؟ فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق والافتراء بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكنم الأحوال تحقيقاً لفنائهم، وتبنيًا لزهدهم، وعملًا على سلامة قلوبهم، وحيا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأبدوا بالرسوخ والتمكن، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قسمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، نولاهم في ذلك بتأييده وورادات مزيدة لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمره لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت^(١٤٥) إليها.

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء، بل إرادته وف على اختيار سيده له. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولنختم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازا ورفوعا وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيجاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكننا تنبه على نكت^(١٤٦) مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيتا لك لقبول ما نورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نستنه إلّهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.

(١٤٥) رواه مسلم.

(١٤٦) أي مسائل.

(١٤٣) المكي، ١٤.

(١٤٤) فصل: ٥٣.

فصل في الكلام على الكرامات

اعلم أن الكلام في الكرامات ينحصر في طرفين :

الطرف الأول : الجواز.

والثاني : الوقوع.

أما الجواز فلا يخفى أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات : لأنه لو لم يكن من الممكنات ، فلما أن يكون من الواجبات ، وما أن يكون من المستحيلات ، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي ، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي ، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوباً إذا الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولي ولياً وإن لم تخرق العادة له .

فتعين أن يكون من الجائزات ، وكل شيء كان من الجائزات لا يحيله العقل ، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أوليائه .

ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيباً للأرض ، ومشياً على الماء ، وطيراناً في الهواء ، وإطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة ، وتكثيراً لطعام أو شراب ، أو إثباتاً بشرة في غير إبانها ، أو اتباع ماء من غير حفرة ، أو تسخير حيوانات عادية ، أو إجابة دعوة لإثبات مطر في غير وقته ، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور لعادة أو إنماراً لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له ، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية .

وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل وهي الكرامة المعنوية : كالمرقة بالله ، والحشية له ، ودوام المراقبة له ، والمساورة لامتنال أمره ونهيه ، والرسوخ في اليقين ولقوة والتمكين ، ودوام الثقة به ، وصدق التوكل عليه ، إلى غير ذلك .

وسمعت شيخنا أباً العباس رضي الله عنه يقول :

انظري على قسمين : طي أصغر وطي أكبر .

فالطي الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوي لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد . والطي الأكبر طي أوصاف النفوس .

وصدق رضي الله عنه حين طي الأرض لو أعجزك الله عنه وأفقذك إياه ما نقص ذلك من رتبك عنده إذا قست له بالوفاء في العبودية ، وطي أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المعتوبين وحشرت في زمرة الغافلين .

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان مبيتان : كرامة الإيمان بعبود الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة وبجانية الدعاوي والمخادعة فمن

أعطيهما ثم جعل يشناق إلى غيرهما فهو عبد منكر كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعمت الرضا فجعل يشناق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مشهور.

واعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يجعله العقل وقد ورد به النقل.

قال أبو بكر لعائشة رضى الله عنها في مرض موته وزوجه حامل: إنما هما أحوالك وأختك وبطن خارجة أراها جارية فأخبر بأن في بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه.

وقال عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق؛ فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز إلى الجبل فانحاز هو والجيش الذى كان معه فانصرفوا وظفروا وكان قد قال ذلك وهو في أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة، وقال يا سارية الجبل، وعاد إلى خطبته، فجاء بعض الصحابة إلى على رضى الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطف إذا ترك خطبته وقال: يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته. فقال على: ويحكم دعا عمر فإنه ما دخل في شيء إلا كان له المخرج منه، فيعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع نداء عمر في الوقت الذى نادى فيه عمر (١٤٧).

وقول عثمان رضى الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة في الطريق: يدخل أحدكم وأنار الزنى بادية في وجهه.

وأما على بن أبي طالب رضى الله عنه فقد جاء عنه في هذا الباب العجب العجيب حتى إنه ذكر الأخباريون عنه أنه أرجف بالكوفة أن معاوية قد مات فقال رضى الله عنه إذا بلغ ذلك: والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمي هاتين، وإنما أراد ابن هند أن يشيع ذلك حتى يستتير علمي فيه، فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية، وعلموا أن الأمر صائر إليه.

وحكايات الأولياء في كل عصر ومصر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جعده. ثم أنا أدلك - رحمك الله - على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العيد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجشانيته ولا وجود صورته، وإنما هو بنور الحق فيه، دليل ذلك قوله ﷺ:

(١٤٧) يقول ابن خلدون في هذا المقام:

(وأما المتصرف في رياضهم دينية وعبرة عن التماسد للمؤمنين وإنما يقصدون جمع الحق، والإقبال على الله بالكثرة ليحصل لهم أنوار أهل العرفان والشواهد ويذهبون في رياضهم إلى الجمع، والجوع: التحذية بالذكر، فيها تتم وجهتهم في هذه الرياضة، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذ عريت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة القلب والتصرف هؤلاء المتصرف إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه للغير الله، وإنما هي قصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقه، فإن في الحقيقة شرك قال بعضهم:

«من أتر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني» أى (فقد قال بأن الله له ثان - أى أشرك بالله) فهم يقصدون بوجهتهم العبود لا شيء سواه، وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل في العرض وغير مقصود لهم.

وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك لهم معروف، ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر قراصة وكشفاً، وما يقع لهم من التصرف كرامة، وليس شيء من ذلك ينكير في حقهم، وقد ذهب =

«انقوا غراسه المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (١٤٨).

فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه؟

وكذلك قوله في الحديث الذي تقدم.

فإذا أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به - الحديث إلى آخره. ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب يستغرب فيه.

وفي بعض طرق هذا الحديث: فإذا أحبيته كنت له سمعاً وبصراً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً. فإن قلت: كيف تصنع بهذه الآية؟ وهي قوله سبحانه:

﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول﴾ (١٤٩).

فلم يستثن أحداً إلا الرسول؟

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: وفي معناه أر حديق أو وفي (١٥٠).

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز.

فاعلم أنه إذا قيل إن السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده ربما دخل بمالك الوزير معه.

«إلى إيكاره الأستاذ أبو إسحق الأسفرايين. وأبو محمد بن أبي زيد المالكي - فراداً من التباس المعجزة بهمه، والمحول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتعدي فهو كاف.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«إن فيكم محدثين وإن منهم عمر» (أبو فيكم من يخبر بالأمر كأنه حدث به).

وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل - وهو سارية بن زعيم. كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات. وتورط مع المشركين في معركه. وهم بالاهرام. وكان بقره جبل يتجهز إليه، فترفع لعمرك ذلك وهو يحطّ على المنبر بالمدينة فناداه:

«يا سارية الجبل» وسمعه سارية وهو يكلمه. ورأى شخصه هناك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضاً لأبي بكر - رضي الله عنه - في وصية عائشة ابنته رضي الله عنها في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديثه. ثم نهىها على جهده النجزة عن الورثه. فقال في سياق كلامه: «وإنما هما أخوالك وأختاك» فمالت: (إنما هي أسباء. فمن الأخرى) فقال: «ن ذا يطر بنت خازية أراه جارية فكانت جارية. وقع في الموطأ في باب: «ما لا يجوز من النحل». ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم. ولئن بددناهم من الصالحين وأهل الافتداء إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل في زمن النبوة إذا لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى أنهم يقولون:

إن المرید إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها.

والله يروفتنا الخلدية ويرشدنا إلى الحق... أهد مقدمة ابن خلدون ٥٣٢/١ - ٥٣٥ مع تصريف سبيل.

(١٤٨) رواد البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد والحكيم الترمذي، والطبراني وابن عدي عن أبي أمامه. وابن جرير عن ابن عمر - والغراسه بكسر القاء دقة النظر، وتوفور العلم بنور البصيرة.

(١٤٩) الجرن: ٢٦، ٢٧.

(١٥٠) في تفسير الألوسي لهذه الآيات... ظاهر الآية أنه تعالى عالم كل غيب وحده لا يظهر على غيبه المختص به. وهو ما يتفق بذاته تعالى وصفاته عز وجل بدلالة الإضافة: «إلا رسولاً» وهو كذلك. فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلا بالإعلام من رسول ملكي أو بشري. ولا كل غيبه تعالى الخاص مطلق عليه. بل بعضه وأقل الغيب منه. فدل المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه. فهذا هو الآية دون تصف. إلخ.

وكان الإذن لميتوبعهم إذناً لهم، كذلك الولي إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه فإنما ذلك لا يتطوأن في جاء النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه وإنما رأى بنور متبوعه. وأيضاً أن الآية تشير إلى نفي اطلاع العباد على غيب الله إلا من أطلعه الله. وبين سبحانه سبب إطلاع من أطلعه على غيب من غيوبه وأن ذلك إنما كان لأنه مرتضى عنده بقوله إلا من ارتضى.

وقوله من رسول خص الرسول بالذكر ولم يذكر النبي ولا الصديق ولا الولي وإن كان كل منهم ممن ارتضى؛ لأن الرسول أولى بذلك مما سواه. أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكثرها عليهم؛

الأول: أن تعلم أن قدرة الله التي لا يكبر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة في هذا الولي فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد؛ فجدد الكرامة للولي جدد لقدرة القدير؛ وعمى منك من شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثاني: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذي أضيفت إليه؛ وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادة بصديق طريق متبوع؛ فهي بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولي كرامة؛ وهي بالنسبة إلى من ظهرت ببركات متابعتها معجزة؛ فذلك قالوا:

كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي متبوع له؛ فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم المتبوع.

الثالث: أن تعلم أن الذي أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدق به ومنبت له أعظم مما استغفرت به، وأكثرته من اطلاع على غيب أو طيران في الهواء، أو مشي على الماء؛ فمثلك إذا استغفرت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبد من خواص الملك أعطاه الملك سفطاً^(١٥٦) مخلوطاً ياقوتاً تبعنا علمت أنت به؛ كل يا قوة تضمنها ذلك السفط تساوي عشرة آلاف دينار؛ ثم قال ذلك العبد الذي هو من خواص الملك أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار؛ فاستغفرت أنت ذلك فهل يستصوب استغراك هذا ذو غمهم ولب؟ وما أكرم الله تعالى العباد في الدنيا والآخرة كرامة بمثل كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته؛ لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات، وأورد وواردات، وكل نور وعلم وفتح، ونفوذ إلى غيب وسماع مجاطبة؛ وجريان كرامة؛ وما تضمنته اللجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، وكان به أطلها فيها من رضى عن الله؛ ورضى من الله؛ وروية لله؛ فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان؛ ووجود آثاره وإبداد أنواره.

جعلنا الله وإياك من المؤمنين بربوبية الإيمان الذي رضى له خاصة عبادته؛ ويسطنا وإياك بالتسليم له في مراده.

واعلم أن من الناس من واجهه الخذلان من الله فأنكر كرامات أولياء الله أصلاً، فتعود ياته من

(١٥٦) سفطاً: وعاء يهيء للطيب وما أشبهه من أدوات النساء مفتوح الأول والوسط.

هذا المذهب؛ وهو حقيق بأن لا يذكر؛ لكن سيب ذكره أن تعلم أن الله إذا أراد أن يضل عبداً لم ينصره عقل ولم ينفعه (١٥٢) علم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فَتَنَةً فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ (١٥٣).

وقال سبحانه: ﴿قَدْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ (١٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ (١٥٥).

لذلك كانت الأحوال والأقوال والأفعال ومراتب الإنزال موقوفة على توقيفه. لا توجب أنواراً، ولا تستحق قبولاً، ولا يستوجب صاحبها إقبالا حتى ينصره التوفيق، ولعازلة قدره عند الله لم يذكره في كتابه العزيز إلا في موضع واحد، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (١٥٦)، والمجالب للتوفيق وعلامته صدق الرجعى إلى الله في أول كل فعل وترك يتحقق المفقور والفاقة إليه، والانغماس في بحر الذلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ ومن بعد ذلك أبداً، وقد قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بَيْتَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (١٥٧).

وقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ (١٥٨).

فلا تدخل جنة علمك وعملك وما أعطيت من نور وفتح، فنقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبَدُّ هَذِهِ أَبَداً﴾ (١٥٩) الآية.

ولكن ادخلها كما بين لك وقل كما رضى لك؛

﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (١٦٠).

وافهم ههنا قوله عليه السلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» وفي رواية: كنز من كنوز تحت العرش (١٦١).

فالترجمة (١٦٢) ظاهر الكنز والمكنوز فيها هو صدق التبرى من الحول والقوة؛ والرجوع إلى حول الله وقوته.

(١٥٢) وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجي عليه اجتهد

(١٥٣) المائدة: ٤٦.

(١٥٤) آل عمران: ١٦٣.

(١٥٦) البقرة: ٢٠٩.

(١٥٨) التوبة: ٦٠.

(١٥٥) المؤمنون: ٨٨.

(١٥٩) الكهف: ٣٥.

(١٥٦) هود: ٨٨.

(١٦٠) الكهف: ٣٩.

(١٦١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ولفظه فيها روى الشيخان عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ غفلت؛ بل يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٦٢) أى اللفظ والكلام المنطوق به.

ومن أنكر كرامات أولياء الله فالدلائل الثقلية والعقلية تردّ عليه، ويخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة.

ومن الناس فرقة أخرى صدّقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمنهم كمعروف وسري واجنيد، وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ما هي إلا إسرائيلية صدّقوا موسى وعيسى عليها السلام وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه. وفرقة أخرى يصدّقون بأن في ملكة الله أولياء لهم كرامات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمانهم معينا، فكل من ذكر لهم أنه وليّ أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بمقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بمقال الغفلة، المخدوعة بتأمية الهوى، فلن يجرى عليهم هذا التصديق وجود الاقتداء ولا إشراف نور الاهتداء؛ إذ الاقتداء لا يكون بوليّ مجهول العين في كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بوليّ ذلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشرية في وجود خصوصيته، وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكماثتها ودغائنها. ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسارك في طريقك حتى تصل إلى الله، ويوقّظك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الحارب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على عمر الساعات بين يديه (١٦٦٣).

فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عنقاه مغرب. فأعلم أنه لا يعوزك وجدان الدلائل، وإنما قد يعوزك وجود الصديق في طبيعهم، جد صدقاً تجد مرشدًا، وتجهد ذلك في آيتين من كتاب الله: قال الله سبحانه:

﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (١٦٦٤).

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (١٦٦٥).

فلو اضطرتت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمان للهم، والخائف للأمن؛ لوجدت ذلك

(١٦٦٣) يجب على المريد أن يتأدّب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، يقول أبو يزيد البسطامي: من م يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وقال أبو علي الرقاني: الشجرة إذا بنت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقة فبشاً بنفسه فهو عابد هواه لا يجد نفعاً.

ويشترط الرازي في الشيخ أن يكون غلظاً صادقاً قد انتهج الصراط المستقيم وأن يكون سالكاً: أما السالك فلأن الوصول نارة بالجلبة؛ وقال تعالى: «أَنْ يَجِيبَ إِلَيْهِ مِنْ شَاءَ» ويهدي إليه من ينيب، وأخرى بالسلوك والاول لا يصح أن يعتدى به لأنه مثل من وجد كنزاً غنياً، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال. فلا ينفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب، وأما الثاني فهو الذي يصلح لتربية المريد لأن من سلك الطريق، وعرف مراحلها، وتنازلها، وأطلع على مناقبها ومساوئها، أنه كإرشاد المير إلى سواء السبيل، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل.

(١٦٦٤) التعل: ٦٢.

(١٦٦٥) محمد: ٢١.

أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطرت إلى الله اضطراب الأم لولمها إذ فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك؛ ولتوجه الحق بتبيين ذلك إليك؛ فهذا الكلام في طريق الجواز والوقوع جميعاً.

وذكر أعيان الكرامات التي اتفقت للسلف رضى الله عنهم لا يستطيع حصرها؛ وقد أشبع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته وأفرده لها باباً.

واعلم أن الكرامة تارة تظهر للولي في نفسه.

وتارة تظهر فيه لغيره.

فإن ظهرت للولي في نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله وفرديته وأحدثته؛ وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب؛ وأن العوائد هي حاكم عليها ليس هي حاكمة عليه.

وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحدثته؛ فواقف عندها مخدولة، ونافذ منها إليه هو بالنهاية موصول.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد.

أيسئوى من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله؛

ولأجل أنها تثبيت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدوها أرباب النهايات في نهايتهم؛ إذ ما عليه أهل النهاية في الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإلهادية، ولا يحتاج جبل إلى مرسة، فالكرامة دافعة لزلزلة الشك في المنة، ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس في الكرامات على ثلاثة أقسام؛

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجها بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هي الكرامات؟ إن هي خدع يخدع بها أهل الإرادة ليفتوا على حدودهم، وحتى لا ينجوا مقاماً ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشي لأبي عيسى الرقي: ما تقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقال: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقلت: ما أعرف لهم قولاً.

فقال: بل قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حالة السكون إليها، فأما من لم يقتصر ذلك ولم يسكنها فتلك مرتبة الريانين.

وكان هذا من أبي تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء.
فقال فحقّ هنالك: أريد أن أشربه في قدح.
فضرب بيده إلى الأرض فتناوله قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا.
قال أبو العباس الرقي: وما زال القدح معنا إلى مكة.
والقول الفصل في ذلك أنه لا ينبغي أن تطلب أدباً مع الله، ومن أظهرت عليه عُظم لائقها شاهدة
له بالاستقامة مع الله.

القسم الثاني: وهو أن تظهر الكرامة في الولي لغيره، فأنفراد بذلك تعريف ذلك العيد الذي
شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي أظهرت عليه الكرامة، إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى
الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان، أو شاكاً في خصوصية ذلك العيد فأظهرت عليه ليعرفك الله
بما فيه من ودائع الإحسان.

وقد انبسط الكلام في هذه المقدمة، وما كان لنا باختيار، ولكن قد تضمنت علومنا وأسرارنا،
وأُطلعت على من له نصيب من المنّة مشرقاً وأنوار.

وهذا أو أن ابتدئنا بما قصدنا، وإظهارنا ما إله صمدنا^(١٦٦)، والله هو القائم بالبيان، وهو ولي
الفضل والإحسان، له الحمد كما يجب لجلاله، والشكر لتوالي نعمه وأفضاله، وهو حسبت ونعم
الوكيل.

وأما الكتاب فهو ينقسم كما تقدم إلى عشرة أبواب:

الباب الأول

في التعريف بشيخه الذي أخذ عنه هذا
الشأن، وشهادة من عاصره من أهل زمانه من
العلماء الأعيان، إنه قطب الزمان والحامل في
وقته لواء أهل العيان

وهو الشيخ الإمام حجة الصوفية علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمانه
بالمعارف السنية والمفاخر، العالم بالله، والدال على الله، زمزم الأسرار، وسعد الأنوار، والقطب
القوت الجامع؛ تقى الدين أبو الحسن علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن
حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطل بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن
الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه،
عرف بالشاذلي.

منشؤه بالقرب الأقصى.

ومبدأ ظهوره بشاذلة؛ بلدة على القرب من تونس، وإليها نسب.
له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجلييلة، والعلوم الغزيرة. لم يدخل في طريق الله حتى كان يعد
للمناظرة في العلوم الظاهرة؛ ذا علوم حجة.

ذكره الشيخ صلي الدين بن أبي المنصور رضي الله عنه في كتابه، وأثنى عليه الثناء الكبير.
وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني رضي الله عنه في جملة من لقيه من المشايخ، وأثنى عليه.
وذكره الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضي الله عنه، وشهد له بالقطبانية.
وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح رضي الله عنه في كتابه الوصيد، وأثنى عليه.

لم يختلف في قطبانيته ذو قلب مستنير، ولا عارف بصير، جاء في هذه الطريق بالمعجب العجيب،
وشرع من علم الحقيقة الأطناب^(١)، ووسّع للسالكين الرحاب، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي
الإسلام تقى لدين محمد بن علي القشيري رحمه الله يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ
أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

وأخبرني الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قال:

(١) الأطناب: جمع طنب وطلب هو جدل الحجة والبرهان ونحوهما، وما يشد به البيت من الجبال بين الأرض والطرائق.

حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأناضول عَزَّ الدِّين بن عبد السلام، والشيخ محمد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرس، والشيخ يحيى الدين بن سراقه، والشيخ محمد الدين الأحمدي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنهم؛ ورسالة القشيري تقرأ عليهم، وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم فقالوا:

يا سيدي تريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبرأؤه، وقد تكلمتم.

فقالوا: لا بد أن نسمع منك.

قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة.

فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال:

اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله (١).

وأخبرني الشيخ أبو عبد الله بن الحاج قال: أخبرني الشيخ أبو زكرياء يحيى البلمسي قال: صحبت الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ثم سافرت إلى الأندلس، فقال لي الشيخ أبو الحسن عند وداعي إياه: إذا وصلت إلى الأندلس فاجتمع بالشيخ أبي العباس بن مكتون فإن أبي العباس بن مكتون اطلع على الوجود وعرف حيث هو، ولم يطلع الناس على أبي العباس فيعلمون حيث هو. قال: فلما جئت إلى الأندلس جئت إلى الشيخ أبي العباس بن مكتون فحين وقع بصره علي قال لي ولم يعرفني قبل: جئت يا يحيى، حثت يا يحيى، الحمد لله على اجتماعك بقطب الزمان، يا يحيى، الذي أخبرك به الشيخ أبو الحسن لا تغفر به أحداً.

أخبرني رشيد الدين بن الرايس قال: تخاصمت أنا وبعض أصحاب المشايخ فأنت إلى الشيخ أبي الحسن فذكرت معاولتنا له فقال الشيخ: كنت تقول له: أنا رباني القطب، ومن رباه القطب ربته أربعمائة (٢).

وأخبرني والدي رحمه الله قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعت يقول: والله لقد تسألوني عن المسألة لا يكون عندي لها جواب فأرى الجواب مضطراً في الدواة والمحصير والحائط.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي يوماً:

والله إنه ليتزل على المدد فأرى سريانه في الحوت في الماء، والظافر في الهواء. وكان الشيخ أمين الدين جبريل حاضراً فقال للشيخ أبي الحسن: فأنت إذا القطب، فأنت إذا القطب، فقال الشيخ

(١) أي أنه ليس علم كتب ولا دراسة، وإنما هو الهامات وتجليات من الحق سبحانه في جانب المعرفة، والله سبحانه وتعالى يقول: عن عبد من عباده، ﴿وعلَّمناه من لدنا علماً﴾.

(٢) ورد في السنة الظهيرة أحاديث صحيحة وحسنة عن الأبدال تذكر منها قوله عليه السلام: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً فلوهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات وصل أهل الله مكانه رجلاً». رواه الإمام أحمد: «الأبدال في آتئ ثلاثون، هم تقوم الأرض، وهم تقرون، يوم تتصرون» رواه الإمام أحمد.

«الأبدال في أهل الشام، وهم يصرون، وهم يزقون» رواه الطبراني عن عوف بن مالكه، ويزله السيوطي بالهــنـ.

أبو الحسن: أنا عبده، أنا عباده.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: والله ما ولى الله ولياً إلا وضع حبه في قلبي قبل أن يوليه، ولا رفض عبداً إلا وألقي بغضه في قلبي قبل أن يرفضه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: لما رجع الشيخ أبو الحسن من الحج أتى إلى الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام قبل أن يأتي منزله فقال له: الرسول ﷺ يسلم عليك. قال: فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك، قال: فدعنا الشيخ عز الدين إلى خانات الصوفية بالقاهرة وحضر معه محيي الدين بن سراقه وأبو العلم ياسين أحد أصحاب الشيخ العارف بالله محيي الدين بن عربي، فقال الشيخ محيي الدين بن سراقه للشيخ عز الدين: ليهنكم ما سمعنا يا سيدي. والله إن هذا لشيء يفرح به أن يكون في هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ، فقال الشيخ عز الدين: الله يسترنا، فقال الشيخ أبو العلم ياسين: اللهم افضنا حتى يتبين الحق من البطل. ثم أشاروا للقول أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ما دار بينهم فكان أول ما قال:

صدق المحدث والحديث كما جرى . وحديث أهل الحق ما لا يفرى

فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجميع لقدامه.

وأخبرني الفقيه مكي الدين الأسمر رضي الله عنه قال: سمعت مخاطبة الحق فقلت له: يا سيدي كيف كان ذلك؟ فقال: كان في الإسكندرية بعض الصالحين صاحب الشيخ أبا الحسن ثم كثر عليه ما سمعه منه من العلوم الجليلة والمخرقات فلم يسع ذلك عقله. فانقطع عن الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه، فإذا ليلة من الليالي وأنا أسمع أن قلانا دعانا في هذا الوقت بست دعوات فإن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي دعانا بكذا دعانا بكذا حتى عيئت في الست دعوات، قال: ثم انفصل الخطاب عني، فنظرت إلى المتوسط في ذلك الوقت فعرفت الوقت الذي كان ذلك الرجل دعا فيه، ثم أصبحت فذهبت إلى ذلك الرجل فقلت له: دعوت الله البارحة بست دعوات دعوته بكذا، دعوته بكذا، إلى أن عدت له الست دعوات فقال: نعم. فقلت له: أتريد أن يستجاب لك؟ قال: ومن لي بذلك؟ فقلت له: قيل لي: إن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي.

وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كان الشيخ قد قال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل من أحد شيئاً، فمكنت على ذلك سنة ثم قال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تقبل من أحد شيئاً، فكان إذا اشتد الوقت على أخرج إلى ساحل بحر الإسكندرية أنقظ ما يرميه البحر بالساحل من القمح حين يرفع من المراكب، فأنا يوماً على ذلك وإذا عبد القادر النقاد - وكان من أولياء الله - يفعل كفعلي، فقال لي:

أطلعت البارحة على مقام الشيخ أبي الحسن.

فقلت له: وأين مقام الشيخ؟

فقال: عند العرش.

فقلت له: ذلك مقام تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته.

ثم دخلت أنا وهو على الشيخ، فلما استقر بنا المجلس قال الشيخ رضى الله عنه:
 رأيت البارحة عبد القادر النقاد في المنام فقال لى:
 أعرشى أنت أم كرسى؟
 فقلت له:

دع عنك ذا.

الطينة أرضية.

والنفس سماوية.

والقلب عرشى.

والروح كرسى.

والسر مع الله بلا أين.

والأمر يتنزل فيها بين ذلك ويتلوه الشاهد منه.

وقدم بعض الدالين على الله إلى الإسكندرية فقال الشيخ مكيين الدين الأسمر: هذا الرجل
 يدعو الناس إلى باب الله وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان.

وكان شهر رمضان.

وكانت ليلة جمعة.

وكانت ليلة سبع وعشرين.

فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه.

فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما
 أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ:

ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول:

يا علّ طهر ثيابك من الدنس، تحط بيد الله في كل نفس.

قلت: يا رسول الله: وما ثيابي؟

قال: اعلم أن الله قد خلّع عليك خمس خلع:

خلعة المحبة.

وخلعة المعرفة.

وخلعة التوحيد.

وخلعة الإيمان.

وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله هان عليه كل شيء.

ومن عرف الله صغر لديه كل شيء.

ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً.

ومن آمن بالله أمن من كل شيء.
ومن أسلم لله ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره.
ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل: (وثياك فطهر).
وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه:

جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علموك وما مقامك؟ فقال: أما علمي فأحد وسبعون علماً، وأما مقامي فإربع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له: فما تقول في شيخى أبي الحسن الشاذلى؟ قال: زائد على أربعين علماً، هو البحر الذى لا يحاط به.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبي الحسن: من هو شيخك يا سيدى؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنسب لأحد، بل أعود في عشرة أبحر: خمسة من الأئمة النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر.

وأخبرنى ولده سيدنا ومولانا الإمام العارف شهاب الدين أحمد قال: قال الشيخ عند موته: واه لقد جئت في هذا الطريق بما لم يأت به أحد.

ومن الأمر المشهور أنه لما دفن بحميرا وغسل من مائها كثر الماء بعد ذلك وعذب حتى صار يكفى الركب إذا نزل عليه ولم يكن قبل ذلك كذلك.

وكتب إلى الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضى الله عنه أبياتاً يوصى فيها بالشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

عطاه إله العرش في الثغر أحمد سررت به في الصحب فاهه أحمد
ثم يقول في الشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

ووارث علم الشاذلى حقيقة وذلك قطب فاعلموه وأوجد
رأيت له بعد الممات عجائباً تدل على من كان للفتح مجيد

فالذى عنى الشيخ أبو عبد الله بقوله: «رأيت له بعد الممات عجائباً» أن الماء حلا فوق ما كان وكثر لما غسل منه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ: قيل لى:

ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام.
ولا على وجه الأرض مجلس في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم.
ولا على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما نزلت بتونس حين أتيت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب فسمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه:

فقال له رجل: تقضى بنا إليه؟

قلت: حتى أستخير الله، فتمت تلك الليلة، فرأيت كأني أضعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أحضر وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فبظرت إليه فقال لي:

عشرت على خليفة الزمان.

قال: فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الصبح، أتاني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ فمست معه.

فلما دخلنا على الشيخ رأيت على الصفة التي رأيتها فوق الجبل، قال: فدهشت، فقال لي: عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟ فذكرت له اسمي ونسبي.

فقال لي: رفعت إلى منذ عشرة أعوام.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما قدمنا من المغرب إلى الإسكندرية نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها، وكان وصولنا عند اصفرار الشمس، وكانت بنا فاقة وجوع شديد، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعاماً، فلما قين للشيخ عنه قال: لا يأكل أحد منه شيئاً، فبسا على ما نحن عليه من الجوع، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال: مدوا السباط وأحضروا ذئب الطعام، فضلعنا وتقدمنا فأكلنا، فقال الشيخ رضى الله عنه: رأيت في المنام قاتلاً يقول لي: أحلّ الحلال ما لم يحظر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالي نائماً بالإسكندرية وإذا قاتل يقول: مكة والمدينة!

فلما أصبحت عثمت على السفر.

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالمقسم بالقاهرة، فسافرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لي:

مكة والمدينة.

فقلت: لأجل ذلك جئت يا سيدي.

قال: اجلس. فجلست، وإذا رجل داخل عليه وقال:

يا سيدي عثمت على الحج، وما معي شيء من الدنيا.

فقال لي الشيخ: أى شيء معك؟

قلت: عشرة دنانير.

قال: ادفعها لهذا الرجل. فدفعتها له.

فقال لي الشيخ: إذا كان غداً أخرج إلى الساحل واشتر لي عشرين أردب قمح.

فأصبحت ونزلت إلى الساحل وشرت عشرين أردبًا قمحًا وحملته إلى المحزن وأتيت إلى الشيخ فقال لي:

هذا القمح قبل لي أنه مسوس^(٤) ما تأخذ منه شيئًا.

فبقيت متحيرًا لا أدري كيف أصنع فبقيت ثلاثة أيام لا يطالبني صاحب القمح بالثمن فلما كان اليوم الرابع وإذا رجل يطوف على قلبي رآني قال:

أنت صاحب القمح؟

قلت: نعم.

قال: تأخذ فيه فائدة ألف درهم؟

قلت: نعم.

قال: فوزن لي ألف درهم فوضع الله البركة فيها فلو قلت إني أنفق منها إلى اليوم لصدقت.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه:

سافرنا مع الشيخ رضي الله عنه في السنة التي توفي فيها، فلما كنا عند أخمس قال لي الشيخ:

رأيت البارحة كآتي في جلية وأنا في البحر، والرياح قد اختلفت، والأمواج قد تلاطمت، والمركب قد انفتح، وأشرطنا على الفرق، فأتيت إلى جانب المركب، وصيت: أيها البحر، إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لي فالمة^(٥) الله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

فلما سافرنا، وتوفي الشيخ رضي الله عنه ودفعناه بجميئنا من صحراء عذاب وكنا في جلية، فلما صرنا في وسط البحر، ختلقت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب وأشرطنا على الفرق، ونسيت كلام الشيخ، فلما اشتد الأمر ذكرت ذلك فأتيت إلى جانب مركب وقلت:

أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فالمة^(٥) الله السميع العليم، ما قلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لي، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

وسكن البحر وطالب السفر.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في بحر عذاب وكنا في شدة من الريح الأريب^(٦)، وكان المركب قد انفتح. فقال الشيخ: رأيت السباه قد فتحت ونزل منها ملكان، أحدهما يقول: موسى أعلم من الخضر، والآخر يقول: الخضر أعلم من موسى، ونزل ملك آخر وهو يقول: والله ما علم الخضر في علم موسى إلا كعلم الهدد في علم سليمان حين قال: ﴿أحطت بما لم تحيط به﴾^(٧)، ففهمت أن الله سلطنا في سفرنا فإن موسى سخر له البحر^(٨).

(٤) الأريب: الشديد

(٥) الشمل: ٢٢.

(٦) حيث انقلب البحر معجزة وكرامة لموسى ومن آمن معه حينما فرّوا هاربين من فرعون وقومه الذين شعروهم قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوهُمْ عَشْرَتَيْنِ فَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ قَالَ: كَلَّا لِي مَعِيَ رَبٌّ سَيَهْدِينِ. فَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ.﴾ (الشعراء: ٦٠ - ٦٣).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: قال رجل للشيخ: ما تقول في الحضر أحي هو أم ميت؟ فقال الشيخ رضى الله عنه: أذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأبيارى فإنه يفتى أنه حي وأنه نبي والشيخ عبد المعطى لقيه. وسكت ساعة. وقال: أنا لقيته وسبابته ووسطاء سواء. وأعلم أن بقاء الحضر قد أجمع عليه هذه الطائفة وتواتر عن أولياء كل عصر لقائه. والآخذ عنه واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حد التواتر الذي لا يمكن جرده. والمحكايات في ذلك كثيرة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لقيت الحضر في صحراء عذاب فقال لي: يا أبا الحسن أصبحك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحباً في المقام والرحيل.

وذكر الشيخ يحيى الدين بن عربي رضى الله عنه أن أبا السعود بن الشبل كان يوماً في مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني رضى الله عنه يكتس فيها، فوقف الحضر على رأسه وقال: السلام عليكم. فرفع أبو السعود رأسه وقال: وعليكم السلام. ثم عاد إلى شغله بما هو فيه، فقال له الحضر: ما بالك لم تهتبل بي كأنك لم تعرفني فقال أبو السعود: بل قد عرفتك أنت الحضر. فقال له الحضر: فما بالك لم تهتبل بي؟ قال: فقال له أبو السعود - والفت إلى: الشيخ عبد القادر الكيلاني لم يترك في هذا الشيخ فضلة لغيره.

وقال الشيخ يحيى الدين بن عربي رضى الله عنه مخبراً عن نفسه كنت أنا وصاحب لي بالمغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوي إليه الأبدال. فرأيت أنا وصاحب رجلاً قد وضع حصيراً في الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصل عليها فجننت أنا وصاحبى ووقفت تحتها وقلت:

شغل المحب عن الحبيب بسره في حب من خلق الهواء وسخره
العارفون عقولهم معقولة عن كل كون ترتضيه مطهره
فهم لديه مكرمون وعنده أسرارهم محفوظة ومحرره^(٨)

قال: فأوجز في صلاته وقال: إنما فعلت هذا لهذا المبكر الذى معك وأنا أبو العباس الحضر، ولم أكن أعلم أن صاحبى ينكر كرامات الأولياء فالفتت إلى صاحبى وقلت: يا فلان أكنت تنكر كرامات الأولياء؟ قال: نعم. قلت: فما تقول الآن؟

قال: فما بعد العيان ما يقال. وقال الشيخ عبد المعطى الإسكندراني لتلميذه عند موته: خذ هذه الجبة فطال ما عاتقت فيها الحضر.

وقالت زوجة القرشى رضى الله عنه: خرجت من عند الشيخ ولم أترك عنده أحدًا فسمعت عنده رجلاً يكلمه، فوقفت حتى انقطع كلامه ثم دخلت فقلت: يا سيدى اخرجت وما كان عندك

(٧) يعنى: لم لم تهتبل بي وتهتبل فرصة وجودى.

(٨) معنى كلام ابن عربي رضى الله عنه: أن العارف لا يهتم بتفاوت الماديات، وإنما في الكون ومن الكون. واهتمام العارف كل اهتمامه - أن يكون سره مع الله وسعادته - كل سعادته - أن يكون مع الكون، وكان ابن عربي يشعره هذا بنسبة هذا الذى يرتفع في الهواء. ولكن هذا الذى يرتفع في الهواء لم يكن يفعل ذلك لغرض في نفسه؛ ولذلك على نفسه تليلاً أرضى ابن عربي.

أحد والآن سمعت كلاماً عندك. فقال الشيخ: الحضر أتاني بزيتونة من أرض نجد فقال لي: كل هذه الزيتونة فيها شفاؤك.

فقلت له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها.
وكان الشيخ به داء الجذام.

وقد جاء أنه لما توفي رسول الله ﷺ سمعوا قائلاً يقول من جوف البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه: إن في الله خلعاً من كل هالك، وعوضاً من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب. قال الراوى، كانوا يرون أنه الحضر^(٩١).

واعلم رحمك الله أن من أنكر وجود الحضر فقد غلط.
أو من قال إنه غير حضر موسى.

أو من قال لكل زمان حضر وأن الحضرة رتبة يقوم بها رجل في كل زمان،
والمنكر لوجود الحضر معترّب على نفسه بأن منة الله بقاء الحضر لم تواجهه وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها.

ولا تعتر بما عساك أن تنف عليه من كلام أبي الفرج بن الجوزي في كتاب سماه: «عجالة المنتظر في شرح حال الحضر» أنكريه وجود الحضر وقال: من قال إنه موجود فإنما ذلك لمواجس ووساوس وفوس قام به واستدل على عدم وجوده بقوله سبحانه:
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾^(٩٢).

فجيب لهذا الرجل كيف استدلل بهذه الآية ولا دليل فيها؛ لأن الخلد هو بقاء لا موت بعده،
وليس هو المدعى في الحضر، إنما المدعى في الحضر طول إقامة يكون الموت بعدها.
فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الحضر.

(٩١) قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد البغية، حدثنا شافع بن محمد، حدثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوي، حدثنا المزني، حدثنا الشافعي، عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه - الحديث بطوله - وفيه:

فلما ترفى النبي ﷺ وجاءت النعزة سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاءً من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك، ودرهماً من كل فائت، فبأية نقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، فقال على رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الحضر عليه السلام.

وهذا الحديث مرسل وفي إسناده ضعف يحال القاسم المعري هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلية آخرون. ورواه الربيع عن الشافعي عن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، وفي الإسناد للمعري المذكور.

ودوى البيهقي عن الحاكم عن أبي جعفر البغدادي حدثنا عبد الله بن الحارث أبو عبد الرحمن بن أرمند الصنعلي، حدثنا أبو الوليد البخزمي، حدثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله قال: لما توفي رسول الله ﷺ ناداهم مناد: يسمعون الحسن ولا يرون الشخص فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. إن في الله عزاءً من كل مصيبة وخلفاً من كل فائت، ودرهماً من كل هالك، فبأية فتقوا، وإياه فارجوا، فإنما المحرم من حرم الثواب، والسلام عليكم رحمته الله وبركاته، ثم قال البيهقي: هذان لإسنادان وإن كانا صعيبتين فأعدهما يتأكد بالأخر، ويدل على أن له أصلاً من حديث جعفر.. واه أعلم.

(سيرة ابن كثير)

وما يروونه عن رسول الله ﷺ: لو كان الحضر حياً لزارني فلم يشبهه أهل الحديث.
فإن قالوا: لو كان ذلك لنقل.

فاعلم أنه ليس كل شيء أطلع الله عليه رسوله ﷺ يلزمه الإعلام به.

كتب، وقد روى عنه ﷺ أنه قال: علّمني ربّي ثلاثة علوم: علم أمر في إقامته، وعلم نهائي عن إقامته، وعلم خيرتي في إقامته.

وقال بعض عارفين: إن الله سبحانه أطلع الحضر على أرواح الأولياء فسأل ربه أن يبقيه في دائرة الشهادة حتى يراهم شهادة كما رآهم غيباً.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فلما أحس بي قال: حمد قلت: نعم يا سيدي قال: آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام^(١١) ثم نزل به إلى الأرض، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمل له، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(١٢) ما قال في الجنة ولا في السماء فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضاً لك قسط من آدم: كانت بدايتك في سماء الروح في جنة المعارف فأنزلت إلى الأرض النفس لتعبد بالتكليف، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: قال الشيخ ليلة: اجتمع بي الشريف البوني، وشرف الدين بن المجلي وأخبراني أنها دخلا على امرأة بغري الإسكندرية، قالوا: فقالت لنا: أرياني أيديكما فشمت أيدينا، وقالت: أخوان صالحان، ثم قالت: انتهيت في المعرفة إلى مقام الحيرة، فقلت: إلهي هم يخرج العارفون من الحيرة؟ فقول لي: بالتوحيد، فهل فيكم من يعرف هذا التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة؟ قالوا: فقلنا لها: إنما جئنا لنلتزم بركبك. قال: ثم قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: ألا دأوها على من ضيق عليه، ألا دأوها على من ضيق عليه؟ ثم توجه إلى جهتها وقال: التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة لا إله إلا هو، يخرج العارفون من الحيرة بلا إله إلا هو، فأصبح بعض أصحاب الشيخ فذهب إليها فوجدوها وهي تقول: استغفرت استغفرت، فقلنا أن الشيخ أمّها في تلك الساعة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: دخل على الشيخ أبي الحسن عبد القادر النقاد فقال له الشيخ: يا عبد القادر يعصى الولي؟ فقال عبد القادر: أي والله الذي لا إله إلا هو وهو يطالع عين الحقيقة. فقال الشيخ أبو الحسن: أشهد أنك ولي الله.

(١١) يقول الله تعالى: ﴿وإن برأيا عند ربك كآفة من مما تعدون﴾.

(١٢) البقرة: ٢٠.

وقال الشيخ أبو الحسن: كنت في بعض سياحاتي قد أويت إلى مغارة بالغرب من مدينة للمسلمين قمتكت ثلاثة أيام لم أذق طعاماً فبعد الثلاثة الأيام دخل عليّ ناسٌ من الروم كانت قد أرسلت سفينتهم هناك فلما رأوني قالوا: قسيس من المسلمين، ووضعوا عندي طعاماً وإداماً كثيراً، فمجيئ كف وزّقت على أيدي الكافرين ومُنعت ذلك من المسلمين، فإذا قاتل يقول لي: ليس الرجل من نصر بأحيائه إنما الرجل من نصر بأعدائه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: تمت ليلةٌ في سياحتي على راية من الأرض فجاءت السباع قطاغت بي وأقامت إلى الصباح، فما وجدت أنساً كأنس وجدته في تلك الليلة فلما أصبحت خطر لي أنه قد حصل لي من مقام الأنس بالله شيء، فهبطت وادياً، وكان هنالك طيور حجل لم أرها، فلما أحسست بي طارب بكرة فحقق قلبي رعباً فإذا قاتل يقول لي: أيا من كان الياصرة يأنس بالسباع، مالك توجل من خفقان الحجل^(١٣)، ولكنك الياصرة بنا والآن أنت بنفسك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قلت يوماً وأنا في مغارة في سياحتي:

إلّهي متى أكون لك عبداً شكوراً؟ فإذا قاتل يقول لي:

إذا لم تر متعباً عليه غيرك.

فقلت: إلّهي كيف لا أرى متعباً عليه غيري وقد أنعمت على الأنبياء، قد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قاتل يقول لي:

لولا الأنبياء لما اهتديت.

ولولا العلماء لما اقتديت.

ولولا الملوك لما أمنت، فالكل نعمة مفي عليك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: جعت مرة ثمانين يوماً فخطر لي أن قد حصل لي من هذا الأمر شيء، وإذا بامرأة خارجة من مغارة ووجهها كأنه الشمس حسناً وهي تقول منحوس منحوس، جاع ثمانين يوماً فأخذ يدل على الله بعمله، وما أنا لي ستة أشهر لم أذق طعاماً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت في سياحتي في ميدأٍ أرى حصل لي تردد: هل أزم البرارى والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلى لحدائى والديار لصحة العلماء والأخبار؟ فوصف لي ولي هناك، وكان برأس جبل فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا لئلاً، فقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعتة يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خقك فسخرت لهم خلقك، فخرسوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج خلقى على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك. قال: فالتفت إلى نفسي وقلت: يا نفس انظري من أى بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيئته.

فقلت له:

يا سيدى كيف حالك؟

(١٣) الحجل: بفتح الحاء، إناث الجاهليين، واليهاتيب ذكورها.

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار.
فقلت: يا سيدي أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من
برد الرضا والتسليم فلماذا؟
فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتها عن الله.

قلت: يا سيدي سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوما سألوكم أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم
خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئي إلا إليك،
فتبسم ثم قال:

يا بني، عوض ما تقول: سخر لي خلقك، قل: يارب كن لي، أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟
فما هذه الجنة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت أنا وصاحب لي قد أرينا إلى مغارة نطلب الوصول
إلى الله فكننا نقول غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هيبه فقلنا له: من أنت؟
فقال: أنا عبد الملك، فعلمت أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول
غدا يفتح لي بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس، لم لا تمهدين الله؟ قال فتفطنا من
أين دخل علينا فتبنا إلى الله واستغفرنا ففتح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت يوما بين يدي الأستاذ فقلت في نفسي: ليت
شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا
الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من
صدر المكان: أصاب وتفوس فيك ولدي.

وفيل للشيخ أبي الحسن رضي الله عنه: لم لا تسمع السماع؟ فقال: السماع من الخلق بقاء.
وأخبرني بعض أصحابنا قال: استشفع طالب بالشيخ أبي الحسن إلى القاضي تاج الدين بن
بنت الأعز أن يزداد على مرتبه عشرة دراهم، فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضي تاج الدين بحمى
الشيخ وقال يا سيدي غيم جشته؟

قال: من أجل فلان الطالب لتزيده في مرتبة عشرة دراهم.
قال: فقال له القاضي تاج الدين: يا سيدي هذا له في المكان الثلاثي كذا، وله في المكان الثلاثي
كذا، وفي موضع كذا وكذا.

قال: فقال له الشيخ أبو الحسن: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها
فإن الله لم يقطع بالجنة للمؤمن جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم فيها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ:
«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» (١٤).

فأشكلك على معناه، فرأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لى: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ: «من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع^(١٤) له عمل». فمكنت سنة أظن أنه لا يرفع لى عمل أقول: ومن يسلم من هذا؟ فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول لى: «يا مبارك أهلك نفسك، فرق بين خطر وسكن».

وقال رضى الله عنه: رأيت الصديق فى المنام فقال لى: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال: قلت: لا أدري. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال رضى الله عنه: استنار قلبى يوما فكنت أشهد ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، فوقعت منى هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتمعجت كيف حجبتنى هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا قائل يقول لى: البصرة كالبحر أدنى شيء يجعل فيها يعطل النظر.

ولنفقبض عنان المقال لئلا نخرج عن غرض الكتاب، وإلا فكلام الشيخ رضى الله عنه أشهر من أن تنبه عليه، وأكثر ما ذكرته هنا لا يوجد فى الكلام المنسوب إليه، وقد مضى من كلامه فى المقدمة، وسأبقى فى أثناء الكتاب إن شاء الله^(١٥)، وحسبك من كلامه ما ذكره من كرامات القطب، وما ذكره من طريق الخصوص والعموم، والعلوم والحقائق والأسرار، وحلاوة اللفظ ووجازته، مع الاشتغال على المعانى الكثيرة، والهمة التى تجدها عند ذكر كلامه أو سماعك إياه، فن أن نجد ذلك فى شيء من كلام أهل الطريق.

أما ما قال فى كرامات القطب فقال رضى الله عنه: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاها أو شينا منها فليبرز بمد الرحمة والعصمة والخلافة والنباية ومد حمة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وأغصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى انتهاء، ومن نيب فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم بدءا من السر الأول إلى انتهاء ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة لعظيمة القائمة بكفالة الأسرار والمحيط بمدد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى كتاب ختم الأولياء له: إن من ادعى الولاية فيقال له: صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معيارا على من ادعى الولاية^(١٦).

(١٥) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن الرزق وأقسم على ذلك فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ السَّامِعُ الْعَلِيمُ﴾ وما نودعون، فوجب السبأ والأرض إنه لحق حلال ما أنكم تنطقون.

(١٦) انظر سيرة الإمام البناذلى - رضى الله عنه - بالتفصيل فى كتابنا الذى كتبناه عنه - نشر دار الكتب الحديثية

(١٧) كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، وهو من الكتب التى أثارت إعجاب الكثيرين فى عالم الفكر الإسلامى، وأهتم به اهتماما كبيرا لإمام يعنى الدين بن عربى وتحدث عنه أكثر من مرة - وقد طبع هذا الكتاب حديثا فى بيروت.

ولقد أخبرني الشيخ مكي الدين الأسمر قال: مكثت أربعين سنة بشكل على الأمر في طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عني إشكاله، حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل علي.

ولما قدم الشيخ صدر الدين القونوي إلى ديار مصر رسولا اجتمع بالشيخ أبي الحسن، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال: أخبروني بين قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه وما علومه؟ قال: فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جوابا.

وطريقه رضى الله عنه طريق النقي الأكبر، والتوصيل العظيم، حتى أنه كان يقول: ليس الشيخ من ذلك على تعبك، إنما الشيخ من ذلك على راحتك. ونشأ على يده رضى الله عنه رجال.

منهم من أقام بالمغرب كأبي الحسن الصقلي وكان من أكابر الصديقين، وعبد الله الجببي وكان من أكابر أولياء الله.

ومنهم من أتى معه وهاجر إلى ديار مصر منهم سيدنا ومولانا حجة الصوفية علم أهل الخصوصية شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصاري المرسى رضى الله عنه.

ومنهم الحاج محمد القرطبي وأبو الحسن البجاوي وأبو عبد الله البجائي والوجهاني والحرازي ومنهم من صحبه بديار مصر منهم الشيخ مكي الدين الأسمر والشيخ عبد الحكيم، والشيخ الشريف البوني، والشيخ عبد الله اللقائي، والشيخ عثمان البورنجي، والشيخ أمين الدين جبريل. ولكل من هؤلاء علوم وأسرار وإشارات وأصحاب أخذوا عنهم، تركنا تتبع كراماتهم وخصوصياتهم، لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

وطريقته رضى الله عنه تنسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينسب إلى الشيخ عبد الرحمن لمدي، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه. وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: طريقتنا هذه لا تنسب للمشاركة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو أول الأنطاب. وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين تستند إليهم طريق الإنسان من كانت طريقته يلبس الحرقه فإنها رواية، والرواية يتعين تعيين رجال سندها، وهذه هداية. وقد يجذب الله العبد إليه فلا يعمل عليه منة لأستاذ^(١٨)، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون أخذا عنه، وكفى بهذا منة.

ولقد قال لي الشيخ مكي الدين الأسمر رضى الله عنه: أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحمن القناوي رضى الله عنه أنه كان يقول: أنا لأمنة لأحد على إلا لرسول الله ﷺ، وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد ينينه عن الأستاذ حتى لا يكون له فيه سلف.

وقال ملك لبعض جلسائه: إني أريد أن أجعلك وزيرا قال: ليس لي في هذا سلف. قال: إني أريد أن أجعلك سلفا لمن بعدك.

ولنقتصر على هذا القدر فإنه كاف في التعريف بقدر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه. وما الأمر إلا كما قال القائل:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قاتلا فقل
وبدأنا بذكر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه وإن كان غرضنا في وضع هذا الكتاب ذكر مناقب
شيخنا أبي العباس رضي الله عنه، لكن فعلنا ذلك لأمرين:
أحدهما أن ذلك تعريف بقدر الشيخ أبي العباس رضي الله عنه، لأن شرف التابع بشرف
المتبوع.

ولأن الشيخ رضي الله عنه هكذا كان شأنه: ذكر الشيخ رضي الله عنه والدلالة عليه
والإعراض عن ذكر خصائصه هو في نفسه، حتى قال له إنسان: يا سيدي، نراك تقول: قال
الشيخ: وقل أن تستند لنفسك شيئا، فقال له لشيخ: لو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال الله
قلت: قال الله، ولو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله قلت: قال رسول الله ﷺ،
ولو شئت على عدد الأنفاس أن أقول: قلت أنا، قلت أنا، ولكن أقول: قال الشيخ وأترك ذكر
نفسى أدباً معه.

وقد تم الكلام في الباب الأول والحمد لله رب العالمين.

الباب الثاني

في شهادة الشيخ له أنه الوارث للمقام
والخاتر قصب السبق بالتمام وإخباره هو عن
نفسه بما من به عليه من النعم الجسام
وشهادة الأولياء له بأنه بلغ من الوصول إلى
الله لأفضل مرام

ولتقدم أمام ذلك مقدمة:

اعلم أن الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله، وهو الذي تظهر طريق الموروث على يديه
يفسر مجملها ويبسط مختصرها، يرفع متارها ويبت أنوارها، يُعرف الناس بما كان ذلك الرجل الكبير
عليه من العلم بالله والمعرفة والنفوذ إليه ولاحتطاء من نوره، حتى إذا خُط الناس في محبة ذلك
الرجل الكبير وتعظيمه في حال حياته استذكروا ذلك بعد وفاته؛ لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود
فيه وكل معجز عنه متطّل إليه بالشفق، حتى لقد سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول:
يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلحقون إليه بالآ، حتى إذا مات قتلوا كأن غلان، وربما دخل في طريق
الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل فيها في حياته، والذي ظهر بهذه الأوصاف هو: الشيخ أبو العباس
رضي الله عنه.

هو الذي بث علوم الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، ونشر أنوارها، وأبدى أسرارها، وسار
الناس إليه من أقاصى البلاد، وأقبلوا مسرعين إليه من كل ناد، فنشأت على يديه الرجال، ونصرها
وأظهرها بالمقال والفعال، حتى انتشرت في الآفاق الأصحاب، وأصحاب الأصحاب، وظهرت علوم
الشيخ في مظهرى لسان وكتاب.

وأخبرني الشيخ الصالح الأمين العدل زكي الدين الأسواني قال: قال لي الشيخ أبو الحسن
رضي الله عنه: يا زكي عليك بأبي العباس فوالله إنه ليأتيه اليدى يبول على ساقه فلا يمسى عليه
المساء إلا وقد وصله إلى الله، يا زكي عليك بأبي العباس فوالله ما من ولي لله كان أو هو كاتر
إلا وقد أطلعه الله عليه، يا زكي أبو العباس هو الرجل الكامل.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول عن نفسه: وإته ما سر الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف
حتى يلقوا واحداً مثلنا فهذا لقوه كان بغيتهم، ثم قال: وبالله لذي لا إله إلا هو ما من ولي لله كان
أو هو كاتر إلا وقد أطلعتني الله عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حفظ من الله.

ويبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: أبو العباس شمس وعبد الحكيم قمر.

وعبد الحكيم هذا ولي كبير من أصحاب الشيخ أبي الحسن وقد تقدم ذكره.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت يقال لى: لن تهلك أمة نبيها أربعة إمام وولي وصديق وسخري.

قال الشيخ أبو الحسن: الإمام هو أبو العباس.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: ليس الشأن من ملك، الشأن من ملكك وملكك أن يملك، وأنا والله ملكك وملكك أن أملك من ست وثلاثين سنة.

وسمعت رضى الله عنه يقول: الولي إذا أراد أغنى.

وسمعت يقول: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته.

وسمعت يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت.

وسمعت يقول: قال لى الشيخ يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء، وليس فى الأولياء ما فيك.

وقد أخبرني بعض أهل البيت قال: قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال: لى الآن خمس وعشرون سنة ما صحبت فيها عن طاعة الله طرفة عين قال: ثم غاب عنا خمس عشرة سنة ثم قدم علينا فقال: لى الآن أربعون سنة ما صحبت فيها عن الله طرفة عين.

وقال يوماً: والله لو صحبت عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين.

وأخبرني بعض أصحابه قال: دخل عليه بدمهور إنسان، فلما أراد أن يخرج قال: يا سيدى صافحنى، فإنك قد لقيت بلاذاً وعباداً فلما خرج قال الشيخ: ما الذى يعنى ببلاذ وعباد، فقال إنسان: يريد أنك صافحت عبادةً وسلوك بلاذاً اكتسب بركاتها، فإذا صافحك حصل له منك بركة، فضحك الشيخ ثم قال: والله ما صافحت بهله اليد رسول الله ﷺ.

وكان بنشيل القناطر رجل يقال له خليل وهو الآن مدفون بها وكان من أولياء الله قال: دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فتوضأ عندى، ثم أخذ قوساً لى فجرها ثلاث مرات، فقلت له: يا سيدى من هو الخليفة بعدك؟ فقال: من يأتيك إلى ههنا ويتوضأ نحو وضوئى هذا ويحجر هذا القوس ثلاث مرات، فهو الخليفة بعدى. قال: فدخل على أصحاب الشيخ جمعهم وأنا أترصد هل يفعل ذلك أحد فلم يتفق، حتى دخل لشيخ أبو العباس رضى الله عنه على ذلك المكان وتوضأ نحو وضوء الشيخ ورفع بصره فرأى القوس معلقة فقال: ناولى تلك القوس، فناولته إيها فجرها ثلاث مرات ثم قال: يا خليل جاءك وعد الشيخ.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه أنه قال: هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يحب ولو طلب الحجاب لم يجده.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كتب ليلة من الليالي جالساً بالإسكندرية أكتب كتاباً لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هذا فى الهواء، فقلت له: إلى أين انتهت سياحتك فى هذه الليلة؟ فقال: خرجت من نشيل وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى وأنا أريد أن أنهب لى

الست المقدس وأعود إلى بلدى ولو بسط لى أكثر من ذلك لانتسبت.
قال الشيخ: فقلت له: ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتمود فى ليلتك ولكن أنا
الشاعة لو أردت أن آخذ بيدك وأضعك على قاف وأنا ههنا لفلعت.

وأخبرنى أبو عبد الله بن سلطان وكان من أولياء الله قال: أردت أن أرسل إلى الشيخ أبى
العباس عملاً فقلت لبعض أصحابى فقال لى: عندى نصفين غسل فراخ أى جرتان صغيرتان،
وأقنى إلى بها فسدتهما وكتبت عليهما: وديعة الشيخ أبى العباس المرسى وأتيت بها إلى بحر تونس
فأدليتها فيه فجاءنى الخبر من عنده أنها وصلت إلى الله. وأخبرنى بعض أصحابه قال: كان الشيخ يوماً
جالساً فقال لبعض أصحابه: قم بنا، فأقنى إلى بحر السلسلة وأدلى يده وأخرج الجرتين منه.

وأخبرنى عبد الدائم ابن الشيخ ماضى، وماضى هذا أحد أصحاب الشيخ أبى الحسن رضى الله
عنه وهو أخو أبى عبد الله بن سلطان قال: صليت ليلة عند الشيخ أبى العباس قيام رمضان، فلما
فرغ من الصلاة قال لولده: خذ ابن عمك واصد به إلى غوى، قال: فطلقنا عند الشيخ فوضع لنا
قطايف وعسلًا وقال: هذا العسل من عند عمك، فلما ذهبت إلى والدى قال لى: أبطأت الليلة لقد
شغلت قلبى، قلت له: كنت عند الشيخ أبى العباس وأطعمنى قطايف وعسلًا، وقال: هذا العسل من
عند عمك، فقال أبى: عجيب هذا لى فى ديار مصر عشرون سنة ما أرسل لى أخى شيئاً قط، حتى
بلغه أن وصول العسل كان على الوجه الذى تقدم.

وكان يقول: والله لو حججت عن جنة الفردوس طرفه عن ما عدت نفسى من المسلمين.
وكان يقول: والله لو فاتنى الوقوف بعرفة سنة ما عدت نفسى من المسلمين.
وسمعتة يقول: كان الشيخ إذا أوديت من بعض أصحابه يقول: اصبر فوائه ما هى إلا لك أى
ما الورانة إلا لك.

ووجدت بخط ابن ناشئ: أخبرنا الشيخ جلال الدين عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله
عنه أنه قال: أليس اليوم أبو العباس ثياب البدلية حين يجيئهم من الحجاز بالمراسى بالجديد، قال
ابن ناشئ: فكنت إلى شيخى أبى العباس رضى الله عنه فى ذلك:

على ذلك الوجه الجميل تحيى	فيسارب بلغنى إلى باب قدوقى
أقبل أقداماً سمعت نحو خلوة	بها جلوة للشيخ أعظم جلوة
فأخرج من ضيق الضلال إلى الهدى	وصحح لى عقدى وعهدى وثقى
وأشرقت الأنوار من كل وجهة	بتلقينه الأذكار فى كل زوارة
وأبصرت ما أبصرت من ذلك الذى	فلا تسألوا يا قوم عن تكلم التى
أنوح عليها لا أبوح ببعضها	ولكنى إن يحت نحت بعيرتى
فسبحان من أعمى القلوب عن الذى	تصرف فى سر القلوب يحق
ومن ذا الذى روى بحضرة شيخه	فأكرم بها من حضرة بعد حضرة
وكان جديراً فى الجديد بعلته	عند حلة الأبدال أول سفرة
كذلك قال الشيخ وهو مسافر	بلا وقفة للركب فى عام وقفة

أنى الوقت ربانى كأحمد الذى . أثنى قربانى على حين غرة
ومدحى له مدح لأحمد الذى . علا فى العلا أعيلا مقام المحبة
فصلى عليه الله ما سار سائر . إلى قبره بعد القيام بحجة

وأخبرنى الشيخ الإمام المعارف نجم الدين عبد الله لأصيهانى نزىل مكة قال: قال لى شيخ
صحبته - وأنا ببلاد المعجم - إنك ستلقى القطب بديار مصر فخرجت من بلادى قاصداً لذلك،
فأنا فى بعض الطريق وإذا بجساعة من التنازع لاقونى فأمسكونى، وقالوا: هذا جاسوس.
فكثفونى ثم تشاوروا فى قتلى، فقال بعضهم: نقتله، وقال آخرون: لا نقتله، فبنت مكتوفاً ففكرت فى
أمرى وقلت: خرجت من بلادى أريد لقاء من يعرفنى بالله، والله ما جزعى من الموت، ولكن كيف
أموت قبل أن أنال ما قصدت، فعملت أبياتاً ضمنت فيها شعراً لأمرى القيس:

وقد أرطأت نمل كل أرض . وقد أتعبت نفسى باعتراب
وقد طوفت فى الأفاق حتى . رضيت من الغنيمة بالإياب

فما استتممت الإنشاء إلا وأنا أرى رجلاً كثر اللحية ظاهر الهبة أتى إلى كابلأزى إذا انقض
على الفريسة فحل كنانى، وقال: قم يا عبد الله فأنا مطلوبك، ثم إنى قدمت بديار مصر فقيل لى: هنا
رجل يقال له أبو العباس المرسى، فذهبت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذى حل وثاقى وقال: لقد
أعجبنى نظمك ليلة أسرت وقولك وذكر الأبيات إلى آخرها.

وأخبرنى لشيخ نجم الدين أيضاً قال: قال لى شيخى: إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك،
فجئت يوماً إلى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه وهو بالإسكندرية عند صلاة العصر فلما دخلت
عليه قال: أصليت العصر؟ قال: قلت: لا. قال: قم فصل، وفى المكان الذى هو فيه إيوانان قبلى
وبحرى، وكان الشيخ جالساً فى البحرى منها، فلما قمت لأصلى ذكرت ما قاله لى شيخى: «إذا
لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك» وعلمت أنى إذا صليت كان الشيخ خلف ظهرى، فأقام الله فى
قلبي حاله وقلت: حيث ما كان الشيخ هنالك القبله فتوجهت لتاحية الشيخ وأردت أن أكبر فقال
الشيخ: لا، لا، هو لا يرضيه خلاف السنة.

وقال رضى الله عنه: ما أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواماً يعبر أحدهم على الشجرة
الباسية فيشير إليها فتتم رمثاً للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء^(١).
وأخبرنى بعض أصحابنا قال: كنت أصحب بمدينة «قوص» الشيخ أبى عبد الله البجائى، أحد
أصحاب الشيخ أبى الحسن الساذكى رضى الله عنه، فكان يقع لى الأمر، فأسأل عنه الشيخ
أبى عبد الله، فيقول لى: ليس هذا الأمر لى، ولكن إن جمع الله بينك وبين الشيخ أبى العباس المرسى
تجد عنده ما تريد.

قال: ورأيت فى المنام كأن معى طبقاً فيه بسر وجوارى نأكل منه، فغيرته، فقيل لى: هذا رجل
كبير لك على يديه علوم كثيرة بعدما أتى وقتها. فلما ورد الشيخ أبو العباس إلى مدينة «قوص»

(١) إن الكيمياء بالفتح القديم - وهو المراد هنا - هى: تحويل العناصر إلى بعضها، تحويل النحاس مثلاً إلى ذهب، وهذا
هو المعنى المقصود من كلمة «الكيمياء»، هنا وكان كثير من القدماء يعتقدون أن ذلك ممكن، ويسمون ورله تحقيقه.

دخلت عليه فسألته عما كان يقع له، فأجابني عن ذلك وقال: تذكر رؤياك البسر والمُوَارَى تأكل منه. أنا ذلك المُوَارَى^(٢).

وتجارت الكلام يوماً مع الشيخ مكي بن الدين الأسمر رضى الله عنه فقلت له عن الشيخ أبي العباس قال الشيخ كذا وقال كذا إلى أن تقادى بنا الكلام والفقيه مكي بن الدين يستغرب تلك الحقائق التي أقولها عن الشيخ، إلى أن قال: نقول لك الحق: ما عرفنا الشيخ أبي العباس. فهذا عتراف من الشيخ مكي بن الدين^(٣) الأسمر بعظيم شأن الشيخ أبي العباس وأنه لم يعرفه مع أن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه شهد لشيخ مكي بن الدين الأسمر أنه من السبعة الأبدال.

وكنيت يوماً عند الشيخ أبي العباس الدمنهوري، وعنده إنسان من أصحاب الشيخ أبي العباس فقال له إنسان: يا سيدي هذا من أصحاب الشيخ أبي العباس المرسى. فقال له الشيخ أبو العباس الدمنهوري: سيدي أبو العباس المرسى ملك من ملوك الآخرة. وأخبرني سليمان بن الياحس قال: دخلت على الشيخ أبي العباس الدمنهوري فسمعتة يقول: يارب هذاك أبو العباس وأنا أبو العباس ويكرر ذلك فقلت: يا سيدي من أبو العباس؟ قال المرسى: يابني ما بين أسوان إلى الإسكندرية رجل مثله.

ثم قال: ما بين أسوان إلى دمياط إلى الإسكندرية رجل مثله. وأخبرني سليمان هذا قال: لقيت يوماً الشيخ أبي العباس المرسى، وقد خرج من الحمام فعممت عليه، فطلع عندي فقدمت له من البطيخ الصالحى، فهو في أثناء أكله سألته عن رجل كان كثير الشهرة يرحل بالخلق الكثير والرايات ولا يحضر صلاة الجمعة، فلما ذكرته للشيخ تغير وقال: والله لو أعلم أنك تذكره في ما طلعت عنده، تذكرون بين يدي الأبدال والأولياء أهل البِدْع. وسمعتة يقول: والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قط إلا واحداً عن واحد إلى الحسن.

وأخبرني جماعة من أهل أشموم قالوا: قدم علينا الشيخ أبو العباس البجاني من أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه، وكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه فإذا رأى إعجابنا بذلك

(٢) السر: جمع بسرة - أسر النخل صار ما عليه يسر - أي بعد أن يكون: طلباً ثم خلا ثم بلغاً ثم يسراً والموارى بالضم ونشيد الرأى - وقع الرأى - اندقيق الأبيض وهو لباب الدقيق وتجمد وأغلظ.

(٣) والتشيخ مكي بن الدين الأسمر كما في جامع الكرامات الملية هو القبط لربما كان صاحب المكاشفات والجهادات، الحائز لأسرار أهل الحقائق والتسكين، شيخ المشايخ الراغبين الفقيه المحقق سيدي ومولاي أبو عبد الله بن منصور الإسكندراني الشاذلي الملقب بالشهيد مكي بن الدين الأسمر، كان من أرباب المجاهدات، وله مكاشفات عجيبة وأحوال غريبة، ولد بالإسكندرية وبها نبأ، وحفظ القرآن، وبرع فيه وفي علومه حتى صار أوسع أهل زمانه، ونشئت إليه أرحام، ووقفت عليه أكارب الرجال، كان في بدايته يخطئ ملابس ويتقوت من ذلك وهو مع ذلك يطلب العلم، قال فيه أبو الحسن الشاذلي، الشيخ مكي بن الدين الأسمر أحد السبعة الأبدال، وله كرامات ومكاشفات، كان رضى الله عنه في زمنه شيخ القراء، قرأ عليه ناس كثيرون وجماعة آخرون، توفي نفعنا الله به بالإسكندرية سنة ٦٩٢ ومولده بها سنة ٦١٤.

قال: كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباس المرسى، لو أطلق الشيخ أبوانعيس لساناً لتكلمت بالعالم الغربي.

وسمعه يقول: كان يتكلم في هذا العلم ثلاثة شيوخ: أبو الحسن وصاحبه الشيخ أبو الحسن الصقلى وأنا، توفى الشيخ رضى الله عنه، وتوفى أبو الحسن الصقلى ولا أعلم اليوم على وجه الأرض أحدًا يتكلم في هذا العلم غيرى.

وكنيت أنا حين توفى الشيخ أبو العباس بالقاهرة فدخلت يوماً زاوية أشيخ صفى الدين بن أبى المنصور فجلست فيها، فقال واحد من الفقهاء^(١) يخاطب آخر: يا أخى قدم مات رجل كبير اليوم، فقال له الآخر: من هو؟ قال: الشيخ أبو العباس المرسى، وهما لا يعلمان أنى من أصحاب الشيخ، تدرى ما أتفق له من شيخنا صفى الدين؟ قال: لا. قال: سمع الشيخ ليلة ههنا ذكرًا لا يعهده فقال لى: ذهب فانظر من هذا؟ فذهب فإذا هو الشيخ أبو العباس وأصحابه، فرجعت إلى الشيخ صفى الدين فأخبرته فقال: يابى هذا الرجل إلى هنا ولا يزورنا؟ ما هذا إلا أمر عجيب. قال: ثم أصبح الشيخ صفى لدين فقال لأصحابه: رأيت البارحة كأننى في فلاة من الأرض وأبو العباس في موضع مرتفع وهو يقول لى: يا أخى يابى الله أن نجتمع إلا هكذا. وقال الشيخ أبو عبد الله بن النعمان، الشيخ أبو العباس المرسى وارث علم الشيخ الشاذلى حقيقة.

وأخبرنى بعض الفقهاء من أهل البهسا قال: قال لى الشيخ أمين الدين جبريل: تريد أن أريك ولياً من أولياء الله؟ قلت: نعم، قال: امضى بنا، فألقى لى إلى الشيخ أبى العباس وقال: هو هذا. وأخبرنى بعض أصحابه قال: عزم على الشيخ إنسان، فقدم له طعاماً يختاره به، فعرض الشيخ عنه ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام فقال: إن كان الحارث بن أسد المحاسبى كان في أصعبه عرق إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة نحره عليه، فأنا في يدى ستون عرقاً تتحرك على إذا كان مثل ذلك، فاستغفر صاحب الطعام واعتذر إلى الشيخ.

ومن المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يوماً بالقاهرة في دار الزكى السراج وكتاب المواقف^(٢) للنفرى يقرأ عليه، فقال: أين أبو العباس؟ فلما جاء قال: يابى تكلم، يابى تكلم بارك الله فيك تكلم ولن تسكت بعدها أبداً، فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت في ذلك الوقت لسان الشيخ.

ولقد كان علماء الزمان يسمون له هذا الشأن، حتى كان شخنا الإمام العلامة سيف المناظرين، حجة المتكلمين شمس الدين الأصبهاني، والشيخ العلامة شمس الدين الأيكي يجلسان بين يديه جلوس المستفيد، آخذين عنه ومتلقين ما يديه حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين في الوقت: يابىدى أتعرفه؟ فقال الشيخ: أعرفه هنا - وأشار إلى الأرض - ولا أعرفه هناك - وأشار إلى السماء.

(١) المتصو: الفقهاء من الله وهم الصوفية.

(٢) كتاب «المواقف» من أعظم كتب التصوف بحيث لا يتناولها إلا خاصة الخاصة وهو مطبوع إلا أنه من الندرة بمكان.

وسأله أحدهما عن إنسان كان يدمشق الغالب عليه السكر والغيبة، فقال الشيخ رضى الله عنه: كل من لا يكون له في هذه الطريق شيخ لا يفرح به.

وكان من مذهبه رضى الله عنه: أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسنياً بل قد يكون من غير هذا القبيل.

وتنكم يوماً في القطب وأوصافه ثم قال: وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه. وأخبرني بعض أصحابه قال: استلقى الشيخ يوماً على ظهره وأمسك بلحيته وقال: لو علم علماء العراق والشام ما تحت هذه الشجرات لأثروها ولو سعيًا على وجوههم.

وكان يقول: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلا نرى فضل الله علينا، وقال في الإمام أبي حامد الغزالي رضى الله عنه: إنا لنشهد له بالصدقية العظمى.

وكان الشيخ أبو الحسن يقول: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد. وكان يقول عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنه: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتب القوت^(٦) يورثك النور.

وكان يقول عن الشيخ أبي الحسن: عليكم بالقوت فإنه قوت.

وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي^(٧)، وكان لكلامه عندهما الحظوة الثامنة، وكان يقول عنه: إنه أحد الأربعة الأوتاد.

ودخلت عليه يوماً فرجده مخموساً في وادٍ ورد عليه فقال: سمعت البارحة يقال لى: السلام

(٦) كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي. وهو من الكتب التي تعتبر من عدد التصوف، وقد قرأه الإمام الغزالي واستفاد منه. وكان الإمام الشاذلي يوصيه لمريديه، ويحثهم على قراءته - وهو مطبوع متداول.

(٧) هو صاحب كتاب «ختم الأولياء» الذي أثار ثورة فكرية في الجوف الصوفي وقد طبع به هذا الكتاب أخيراً في لبنان، وطبع له من قبل كتاب «وادي الأصول» وكتاب «الصلاة» وله كتب كثيرة تحت الطبع وقد كتب عنه أصحاب الطيقات، فيقول عنه صاحب الرسالة القشيرية:

ومن كبار الشيوخ وله تصانيف في علوم التزويج، صاحب أبا تراب النخشي وأحمد بن خضروية، وابن الحلال وغيرهم. سئل محمد بن علي عن صفاته فقال:

«ضعف ظاهر، ودعوى عريضة».

وقال محمد بن علي:

ما صفتك حرفاً عن تدبير، ولا ينسب إلى شيء منه، ولكن كان إذا أشد على وقتي اتسلى به؟

والترمذي: نسبته إلى (ترمذ)، مدينة على طرف نهر بلخ المسمى (بجيسون)، قال الحافظ بن النجار في تاريخه: كان أماًناً من أئمة المسلمين، وله التصانيف الكثيرة في التصوف، وأصول الدين، وسعاف الحديث.

وقال الكليني - في التصوف - هو من أئمة الصوفية، وقال ابن عطاء الله:

كان الشاذلي وقرسي عظمتانه وبقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة؟

ومن حكمه: إذا سكنت الأرواح بالسرة، نطق الجوارح بالرب.

وقال: الولي أبدأ في ستر حاله، والكون ناطق بولايته، ومدعى الولاية ناطق بولايته، والكون كله يكذبه.

وقال: ما استغفرت أحدًا من المسلمين إلا وجدت نقصاً في معرفتي وإجازته وما منع الناس من الوصول إلا تركتهم في

الطريق بغير دليل؟

عليكم يا عبادي ثم قال:- وهذا قد أسمعُ في السنة مرةً أو مرتين.

وهذا من الحديث الذي قال فيه أبو العباس بن العريف:

بدا لك سرُّ طائرٍ عنك اكتتاه	ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرِّ وجيه	ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حلَّ فيه وطنت ^(٨)	على موكب الكشف المصون خيام
وجاء حديث لا يمل سماعه	شهِى إلنا نشره ونظامه

(٨) طنت: أي شئت باطنياً، وهي الجهال الطويلة.

الباب الثالث

في بحرياته ومنازلاته وما اتفق لأصحابه معه
ومكاشفاته

سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: كنت أنا وصي عند المؤدب إذ جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال لي: الصوفي لا يسود بياضا، قال: فقلت له: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسود بياض. لصحائف بسواد الذنوب.

وسمعته يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال السقارة وأنا إذ ذاك صبي فحضرتة، فلما أصبحت وأتيت إلى المؤدب، وكان من أولياء الله أنشدني حين رأيته:

يا ناظرا صور الخيال تعجبا وهو الخيال بعينه لو أبصرا

وقال رضي الله عنه: رأيت لمة كآني في ساء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية، فقال قل:

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد. هذا دعاء الخضر، من قاله كل يوم كتب من الأبدال، فقيل لي: هذا الشيخ ابن أبي شامة، فلما انتهيت أتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فجلست ولم أخبره بشيء، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد، واللهم ارحم أمة محمد، واللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد، هذا دعاء الخضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال.

وقال رضي الله عنه: كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنارة فخرجت يوما إلى المنارة، فتمت عند الجانب الشرقي، وكان قد خطر في نفسي: ما سبب قلعة رواية أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له؟

فإذا قائل يقول لي: أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإنما قلت روايته عنه لتحقيقه به.

وقال رضي الله عنه: طالعت مقام الرحمة فإذا قائل يقول لي: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبي الطواجين، وكان ابن أبي الطواجين هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما.

وقال رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في مدينة الرسول ﷺ فأردب أن أزور حمزة رضي الله عنه، فخرجت من المدينة، فتبعني رجل فأتينا إلى التربة، فإذا الباب مقالي، فانفتح بيركة رسول الله ﷺ فدخلنا فوجدنا هناك رجلا من الأبدال قتل للرجل الذي تبغى: ادع في هذا الوقت بما تريد، فإنه

يستجاب لك، فعدا ذلك الرجل أن يعطيه الله ديناراً، فلما رجعنا إلى المدينة لقيه رجل فأعطاه ديناراً، فلما دخلنا على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه قال له: يا بطال صادقت وقت إجابة فسألت الله ديناراً! هلا سألت الله كما سأله أبو العباس، سأله أن يكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة وقد استجاب الله له في ذلك.

وقال رضى الله عنه: كنت يوماً جالساً بين يدى الأساذ فدخل عليه جماعة من الصالحين فلما خرجوا من عنده قال: هؤلاء أبدال، فنظرت بهصيرى فلم أجدهم أبدالاً، فتحيرت بين ما أخبر به الشيخ، وبين ما شهدته بصيرى، فبعد ذلك بأيام قال الشيخ: من بدلت سيئاته حسنات فهو بدل، فعلمت أن الشيخ أراد أول مراتب الهداية.

وأخبرنى الشيخ العارف نجم الدين الأصهبائى، قال: قال لى الشيخ أبو العباس يوماً: ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطرت لى أن الشيخ يجب أن يقف على لغة العجم، فأثيت إليه بكتاب «الترجمان» قال: فقال الشيخ: ما هذا الكتاب؟ فقلت: كتاب «الترجمان» قال: فضحك الشيخ وقال: سل بالعجمية ما شئت أجيبك بالعربية، وسل ما شئت بالعربية أجيبك بالعجمية، فسألته بالعجمية فأجابنى بالعربية، وسألته بالعربية فأجابنى بالعجمية، وقال: يا عبد الله ما أردت بقولى ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن، ويخفى عليه شيء من الألسنة.

وأخبرنى أيضاً قال: قال الشيخ أبو العباس يوماً: كم بين بددة كذا وبلدة كذا من تهر لبلدين من بلاد العجم؟ فقلت: أربعة أنهر. فقال: والنهر الذى غرقت فيه؟ فذكرت أنى نسبت نهرأ أثيت لأخوضه فكنت أن أغرق فيه.

وأخبرنى الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم على إنسان فقدم لى طعاماً، فرأيت عليه ظلمة كالمكب فقلت فى نفسى: هذا حرام فامتنعت من أكله، ثم دخلت على الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فقال: أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام فىرى عليه ظلمة فيقول هذا حرام، يا مسكين ما يساوى ورعك سوء ظنك فى أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردن الله به. ودخلت أنا عليه يوماً، وفى نفسى ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة.

فقال من غير أن أبدى له شيئاً: صحبى بقوص إنسان يقال له: ابن ناشى وكان مدرسا بها وثائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا، فقال: يا سيدى أترك ما أنا فيه وأنفـرغ لصحبتيك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك وأصل.

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وعد غسل الله تلك الخواطر من قلبى وكأنا كانت ثوباً نزعته، ورضيت عن الله فيها أقمضى فيه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال، ورجلا في وسطها، وكل من في تلك الدائرة متوجه إليه، فقلت في نفسي: هذا هو القطب، وعرفت ذلك الرجل بصلته وبقيت كلما ذكر لي عن رجل آقٍ إليه وأقول: عسى أن يكون ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة. حتى قيل لي عن الشيخ أبي العباس، قاتب إليه فإذا هو ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة فأخبرته، فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطني فهم المدد من باطن حقيقتي، والذين يقابلون ظهري فهم المدد من ظاهر علمي، والذين يقابلون جنبي فهم المدد من العلوم التي بين جنبي. وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقراءة الصغرى، والناس مجتمعون ينظرون إلى السماء وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس تبت رجليه في الأرض، وتها لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه، حتى غاب فيه واستيقظت.

وأخبرني الشيخ محمد السراج رحمه الله قال: كنت ليلة من الليالي نائما وأنا أرى في المنام قائلا يقول لي: اذهب إلى خارج الإسكندرية من باب السدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر فادخل فيه فإنك تجد فيه جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك رجل من الرجال، ثم قيل: إن في الجامع حلقة من دخل فيها فهو آمن، فلما أصبحت خرجت إلى ظاهر الإسكندرية ودخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقة هناك، فرفعت بصرى لأنظر إلى أطولها نخلة، فإذا قائل يقول لي: كلها طوال؛ فإذا الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه، فسلمت عليه وجلست وقلت: يا سيدي رأيت البارحة كذا وكذا وقصصت عليه الرؤيا فقال: الجميع أنا، والحلقة هم أصحابي، ومن دخل فيها فهو آمن، أي من دخل في شروطنا فهو آمن، ثم قال: أنا الليلة أتيك فقلت: يا سيدي أنتظرك على الباب، أو أترك الباب لك مفتوحا؟ فقال: لا ولكن اغلق بابك، وأنا أتيك.

قال: فلما كان الليل أخذني شبه الوهم، وصرت أقول: من أين يأتي؟ من هنا يأتي، لا بل من هنا يأتي، فلم أطق المكث، فخرجت إلى رباط الواسطي، وصعدت الماذنة، ووقفت أصلي، فأت في الصلاة، وإذا الشيخ أبو العباس قد أتى في الهواء وقال: يا محمد، أتنظرنك إذا جئت هنا يخفى على مكانك؟ فقلت: يا سيدي إنما جئت هنا لأنني لم أطق المكث، وهاتني الأمر، وكان المخاطب له مني لبسا آخر غير الذي كنت أقرأ به.

وأخبرني بعض أصحابه قال: كنا مع الشيخ بمدينة «قوص» وكان من أصحاب الشيخ أبي العباس أبو الحسن المرسى، وكان في خلقه حدة فنزل ولد الشيخ يوما يلعب كما يلعب الصبيان، فقال له الشيخ أبو الحسن المرسى: اطلع لا أطلعك الله، فسمعه الشيخ أبو العباس فنزل وقال: يا أبا الحسن حسن خلقك مع الناس، بقي لك عام وقوت، فمات إلى تمام العام.

وأخبرني أبو عبد الله الحكيم المرسى رحمه الله قال: قدم علينا الشيخ بأشموغ، فلما جن الليل دعاني الشيخ وقال: ادن مني يا حكيم فحدثت منه فوضع يده خلف ظهري، وفعلت أنا كذلك،

وضمني إليه ويكني: فيكيت ليكانه ولم أدر مم يكن؟ فقال: يا حكيم ما جئتمكم إلا مودعا، يا حكيم نذهب إلى المقسم نودع أخى ثم نعود إلى الاسكندرية نبيت بها ليلة، وندخل في اليوم الثاني قبرى، فسافر فأقام عند أخيه مدة يسيرة، ثم انحدر إلى الاسكندرية فأقام بها ليلة، ودخل في اليوم الثاني قبره كما قاله رحمه الله.

وأخبرني سيدى جمال الدين ولد الشيخ رضى الله عنها: قال: ورد رسول الإفرنج إلى الإسكندرية فذهبت لأنظروه. ولم أعلم الشيخ، فلما جئت قال: أين كنت؟ قلت: ههنا.

قال: بل ذهبت تنظر رسول الإفرنج، أنظرن أن شيئا من أسوالك يخفى على؟ كان الرسول لابساً كذا وكذا، وراكبا على كذا عن يمينه فلان، وعن يساره فلان فوصف الحال على ما كانت عليه؟

وأخبرني عبد العزيز المدبولي قال: قال لى الشيخ: يا عبد العزيز سقيت الفرس؟ فقلت: نعم، فكرر ذلك مراراً وأنا أقول نعم، ففى المرة الأخيرة قال يائه. وطار فى الهواء حتى غاب عن بصرى، فلما كان فى اليوم الثانى قال: يا عبد العزيز ما الذى يروج الإنسان منكم أن يقول غير الحق، كنت تقول ما سقيتها، وماذا كنت أصنع بك إذا لم تسقها؟

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا ينجى، منه فى العلم لظاهر شيء، فشق على أن يفوتنى العلم، وشق على أن يفوتنى صحة الشيخ رضى الله عنه.

فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً يخلُّ فقلت فى نفسى: ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده فما استسممت الحائط إلا وقد دفع فى فمى لقمة فى يده ثم قال:

نحن إذا صحبنا تاجراً ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال، ولكن نفر كل أحد فيما أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه.

وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ فما قال لتاجر اترك تجارتك ولا لذى صنعه اترك صنعتك بل أقرهم على أسابهم وأمرهم بتقوى الله فيها.

وسمعتة يقول: سافرت إلى «قوص» ومعى خمس أنفس: الحاج سليمان، وأحمد بن الزين، وأبو الربيع، وأبو الحسن الرسى، ورفلان، فقال لى إنسان: ما الذى تقصد بسفرنا يا سيدى؟ فقلت له: أدفن هؤلاء بقوص وأجىء؛ فدفنت الخمسة بها، أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من حوض الكوثر، وأخبرنى بعض أصحابه قال: نزل عنده بعض الأعيان فقال فى نفسه: أشتى من ينهى قبل الفجر بمنزلة ويأتى بإبريق ماء سخن ويأتى بسراج ويريق محل الطهارة قال: فما كان قبل الفجر إلا وطارق يطرق الباب؛ فخرجت فإذا هو الشيخ فقال: الوقت قبل الفجر بمنزلة وهذا إبريق فيه ماء سخن وهذه شمعة تعال حتى أريك محل الطهارة.

وكنت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية وجعلنى فى خاطره؛ فقال ذلك للشيخ؛ فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه فقال: لا تطلبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون التبيين فى خاطركم، فقل مقدار ما يكون الشيخ عندهم تكونون عنده.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون، والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، فكان من فضل الله سبحانه ما لا تتكره.

وأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ، هم يريسون يصنرون ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصنرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف.

ودخلت أنا عليه فقال لي: إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية؛ وتتكلم إن شاء الله في العلمين فكان ما أخرجه رضى الله عنه. سمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدي جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذته فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك؛ الولي لا يفضل عليه أحد نجد هذا إن شاء الله في ميزانك، فلما أتيته بالجزء الثاني لقيني بعض أصحابه بعد نزولي من عنده؛ وقال: قال الشيخ عنك: والله لأجعلنه عيناً من عيون الله يقتدى به في لعلم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقيني بعض أصحابي وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجدة حرام، فقال: هذا كتاب استنسخه لي ابن عطاء الله، فوالله ما أرضى له بجسمة جده، ولكن بزياده التصوف.

وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ يوماً: إذ جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلموني به. فلما أثبت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقم فتقدمت بين يديه، ثم قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبه قريش، فقال له جبريل عليه السلام: هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش. فسلم عليه ملك الجبال وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ففعلت. فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحّد الله ولا يشرك به شيئاً فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم^(١)، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

وخرجت يوماً من عند الفقيه مكيين الدين الأسمر رضى الله عنه وخرج معي أبو الحسن الجيزي - وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن - فسلمت عليه فسلم عليّ بيشاشة وإقباله، فقلت له: من أين تعرفني؟ فقال: وكيف لا أعرفك! كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس

(١) عندما لم يرسل الله ﷺ من أهل لطائف الكثير من الأذى ودعا دعائه المشهور: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهوان على الناس». عند ذلك نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال وكما روى البخاري بسنده عن عائشة قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أحد؟ فقال:

لقد أتيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم بعد يوم البقية إذ عرضت نفسي على عبد يائيل بن عبد كلال، فلم يصحبني إلى ما أردت فاضلعت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمت. فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، ومارقدوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما نشئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم عليّ فقال: يا محمد ذلك لك، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً وانظر الروض الألف ٥٦٤ - ٥٦٥.

وكنْتُ أنتَ عنده فلما نزلت قلتُ له: يا سيدي إنه ليعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن إن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله، فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

وأخبرني أبو الحسن هذا قال: كنت ليلةً عند الشيخ أبي الحسن، وكان يقرأ عليه كتاب «ختم الأولياء» للترمذي الحكيم، قرأت واحدًا جالسًا ثم يطلع معنا. ولم يكن عند الشيخ وقت طلوعنا، فقلتُ لإنسان إلى جانبي: من هذا الرجل الجالس إلى جانب فلان؟

فقال: ما ههنا أحد غير الجماعة الذين تعرفهم، فسكتُ وعلمتُ أنه لم يره فلما انصرف الجمع سألت الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه فقلت: يا سيدي رأيت هنا رجلاً لم يطلع معنا ولم يكن عندك قبل طلوعنا، فقال الشيخ: ذاك أبو العباس المرسى يأق كل ليلة من المقسم حتى يسمع الميعاد ثم يعود من ليلته إلى مكانه والشيخ أبو الحسن إذ ذاك بالإسكندرية.

وكنْتُ كثيرًا ما يطرأ على الوسواس في الطهارة فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن فقال: بلغني أن بك وسواسًا في الوضوء.

قلت: نعم.

فقال رضى الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشیطان، لا الشيطان يلعب بها، ثم مكثت أيامًا وودعت عليه فقال: ما حال هذا الوسواس؟ فقلت: على حاله.

فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا، فشق ذلك على وقطع الله الوسواس عني. وكان رضى الله عنه يلقن للوسواس: «سبحان الملك الخلاق، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز».

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سبأى ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال - حين أنشدت - :
أيُّدك الله بروح القدس. ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته - جوابًا لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أحميم وسبأى ذكرها أيضًا آخر الكتاب إن شاء الله تعالى - فلما قرئت عليه قال: هذا الفقيه صحنى وبه مرضان، وقد عافاه الله منها، ولا بد أن يجلس، ويتحدث في العلمين.

يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة فقد انقطع عني ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التي أجدها قد تساهلت في بعض الأمور.

والمرض الآخر: كان بي ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى، فعافانى الله وشفانى. وبث ليلةً من الليالي مهمومًا، قرأت الشيخ في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه، فقال: اسكت والله لأعلمنك علمًا عظيمًا، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضى الله عنه، فقصص عليه الرؤيا فقال: هكذا تكون إن شاء الله.

وقدم يومًا من السفر فخرجنا للقاءه فلما سلمت عليه قال: يا أحمد كان الله لك، ولطف بك، وسلك بك سبيل أوليائه، وهبك بين خلقه. فنقد وجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق، وأنى مراد بهم، لقوله: «وبهالك بين خلقه».

وكنْتُ أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صحَّ نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقولة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلتُ لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيماً وظاهر الشرع يأباهما، فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ، تدرى ما قال لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ قلت: لا. قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف يأمرنا، ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً يذكره ظاهر العلم، من الذي كان ينقله عنه من يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه. فأتيت إلى مجلسه فوجدته يكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال:

الأول: إسلام.

والثاني: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأول عبادة.

والثاني: عبودية.

والثالث: عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة.

والثاني: حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فما زال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عيني وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي، ومعدن رباني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادي، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء، وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملتني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستوفيت عليّ فلما دخلت عليه، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: ياسيدي أنا والله أحبك.

فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضي الله عنه:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.

فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر.

وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

فقيمت من عنده وكأنما كانت المعلوم والأحزان ثوباً نزعته ثم سألتني بعد ذلك بمدة كيف حالك؟

فقلت: أفتش على الهم فلا أجده، فقال رضى الله عنه:

ليلى يوجهك مقمر وظلامه في الناس سار

والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

الزم. قوائمه لمن لزمته لتكوتن مفتحة في المذهبيين، يريد

مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر

ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.

الباب الرابع

في علمه وزهده وورعه ورفع همته وحلمه
وصبره وسداد طريقته

كان رضى الله عنه لا يتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدث معه فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم - لاسيما علم الحديث والتفسير.

وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.

وكان كتابه في أصول الدين «الإرشاد»، وفي الحديث كتاب «المصابيح»، وفي الفقه «التهذيب والرسالة» وفي التفسير كتاب ابن عطية^(١).

ولقد كان يقرأ عليه بعض المرقين في العربية فيرد عليه اللحن.

وأما علوم المعارف والأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله، هو بأخبار أهل السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.

وسمعت ن الشيخ أبا الحسن قال عنه: أبو العباس يطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض.

كنت لا تسمعه يتحدث إلا في العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربع، والأسماء والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه، حتى لقد سمعته يقول:

واؤه لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون غدا من رحمة الله.

وإن تنزل إلى علوم المعاملة ففي الزمن اليسير حاجة الخلق إلى ذلك؛ ولذلك قل أتباع من هذه علومه، وقد يكثر المشتري للرجان، وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان؛ ولذلك كان يقول رضى الله عنه:

أتباع أهل الحق قليلون وقد قال الحق سبحانه:

﴿وقليل ما هم﴾.

وقال سبحانه: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾.

(١) كتاب ابن عطية، هو كتاب المعرر الوجيز، وله من اسمه نصيب فهو بحر، وهو في عرف ابن عطية وجيز، وإن كان متوسط الحجم، وما زال الكتاب مخطوطا، ولكن عدة جهات تعمل على نشره، ونرجو الله له التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال في أهل الكهف: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فأولياء الله أهل كهف الإيواء، قليل من يعرفهم.

وسمعه رضى الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، ومتى حتى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب.

وأما زهده في الدنيا فاستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرئاسة، ويستدل على الزهد في الرئاسة بالزهد في الاجتماع بأهلها، ولقد مكث رضى الله عنه بالإسكندرية ستاً وثلاثين سنة ما رأى وجه متوّلها ولا أرسل إليه، وطلب ذلك المتوّل بالإسكندرية فأبى الشيخ من ذلك. وقال له الزكي الأسواني: يا سيدي متوّل الإسكندرية قال: إنه يريد الاجتماع بك، ويأخذ بيدك فتكون شيخه.

فقال له الشيخ: يا زكي، لست ممن يلعب به، والله إنى ألقى الله، ولا يراقى (المتوّل) ولا أراه فكان كذلك.

وكان إذا نزل بلدة - وقيل له: متوّل البلد يريد أن يأتيك غداً - ساغر هو ليلاً. ولقد كان يأتي إليه متوّل الثغر وناظره ومشّدّ الدواوين به، قليلة إتيانهم، يغلب القيس عليه، ولا ينسب للكلام كحاله في عدم حضورهم، حتى كأن يقول: ليت ذلك الكلام الذى كان في غيبته كان ليلة حضورهم.

ولقد أتى إليه الشجاعى في بحيرة عزّه، وتمكّنه من السلطة، فما ألوى إليه عنان همته، ولا قوى إليه سهام عزيمته، حتى لقد بلغنى أن الزكي الأسواني لما استعرض للشجاعى حوائجه قال للشيخ: يا سيدي اطلب منه أرضاً يزرعها أصحابك.

فقال: يا زكي - هذا ما لا يكون أبداً.

ومن زهده رضى الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجراً على حجر، ولا اتخذ بستاً؛ ولا افتتح سبباً من أسباب الدنيا؛ ولا خلف وراءه ورقة مع أن الزهد وصف من أوصاف القلوب يصف الله أبه قلب من أحبه، ولكن له علامات تدل عليه.

وقال لشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: رأيت الصديق في المنام؛ فقال لى: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدري؛ قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الرحد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه في المنام؛ فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا؟ قال: خوف المذمة وحب التناء.

فإذا كان علامة حبها خوف المذمة؛ وحب التناء، فعلمة الزهد فيها وبفضها أن لا يخاف المذمة ولا يحب التناء.

وأما ورعه فبقد أخبرني بعض أصحابه أنه دخل يوماً بيت واحد من الجماعة في المبرج الذي هو فيه فوجده يضرب فيه وتدّاً؛ قال: فاتفق للشيخ من الحرج الأمر الكبير، وقال كيف يحل لك أن تتصرف في الميسر؟^(٢) بأمر لم يؤذن لك فيه.

وكان يقول: والله ما دخلت بطئى حرام قط.

وكان يقول: الورع من ورعه الله.

وقال رضى الله عنه: عزم علينا بعض صلحاء الإسكندرية في بستان له بالمرمل، فخرجت أنا وجماعة من صلحاء النفر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان فتجارينا ونحن خارجون الكلام في الورع، فكلّ قال شيئاً، فقلت لهم: إننا الورع من ورعه الله، فلما أتينا البستان، وكان زمن ثمرة التوت كلهم أسرع إلى الأكل وأكل، وكنت كلما جئت لأكل أجد وجمعا في بطئى، فأرجع فينقطع الجمع عني، فعلت ذلك مراراً فجلست ولم أكل شيئاً، فهم يأكلون، وإذا بإنسان يصيح: كيف يحل لكم أن تأكلوا من ثمرة بستانى بغير إذن، فإذا هم قد غلطوا بالبستان، فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع من ورعه الله سبحانه؟

واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل فإن من جملة ورعهم ورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو أن يميلوا بالحب لغيره أو تقتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات، والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التجليات.

ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاءً.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراه: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت عليّ: بعزها وحاضها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت عليّ الجنة: بنحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها.

فقبل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأول لحببتك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحببتك عنّا، فما نحن لك وقسطك من الدارين - يأتيك.

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربي - وكان مقيماً بشفى الإسكندرية - حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمتم على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا قاتل يقول لي: إنك العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لي الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى «عدن» فأنا يوماً على ساحلها أمشي، وإذا أنا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل قد قرش سجادة على البحر، ومشى على الماء فقلت في نفسي: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا قاتل يقول لي: من لا يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

(٢) الميسر: هو الوقف - والمراد أنه يحدو وتدّاً في بناء الوقف.

وقال الشيخ أبو الحسن:

الورع | نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على اليقظة الواضحة والبصيرة الفائقة.

فهم في عموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله والله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع لا يتفرقون فيها هو أعلا، ولا فيها هو أدنى، وأما أدنى الأدنى: فأنه يؤرّعهم عنه ثواباً لورعهم، مع الحفاظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنياً أو مصروف بدعوى، وميراثه التميز للحقيقة، والاستكبار على مثله، والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الحسran المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكاس يتوزعون عن هذا الورع، ويستعيزون بالله منه، ومن لم يزد بعلمه وعمله افتقاراً لربه، وتواضعاً خلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

فانظر فهمك الله سبيل أوليائه، ومن عليك بتباجة أحبائه هذا الورع الذي ذكر الشيخ رضي الله عنه: هن كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله: «فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على اليقظة الواضحة والبصيرة الفائقة».

فهذا هو ورع الأبدال والصدّيقين لا ورع المتطّعين الذي ينشأ عنه سوء الظنّ وغلبة الوهم، وأما رفع همته فكان آتياً من ذلك بالحجب العجائب، وقد تقدم من رفع همته عن ولاء الأمر مع استعراضهم لحوائجهم وتطارحهم عليه.

وقال رضي الله عنه يوماً لأصحابه: جاءني اليوم الطواشي بهاء الدين وهو مشدّد الدواوين إذ ذاك والفقيه شمس الدين الخطيب - وهو يومئذ ناظر الأحباس (٣) - فقالا لي: إن هذه القلعة تحتاج إلى حصر وزيت، وقناديل، ويحتاج الفقراء فيها ما يأكلون ونحن حكام الوقت نطلق لها شيئاً في كل شهر.

قال: فقلت لهم: حق أنشاور أصحابي، وأنتم أصحابي فماذا تشيرون؟

فلم يرجع إليّ أحد جواباً، فأعاد الأمر مراراً فلم يجبه أحد.

فقال: اللهم اغثننا عنهم، ولا تغننا بهم إنك على كل شيء قدير، ولم يجبههم إلى ما ذكرناه، ومات الشيخ رضي الله عنه، وليس للمكان مرتبة ولا معبود.

وسمعت رضي الله عنه يقول: والله ما رأيت المرء إلّا في رفع الهمة عن الخلق.

وسمعت يقول: رأيت كلباً في المحبّة، ومعى شيء من الخير فوضعت بين يديه، فلم يلتفت إليه.

فعرّبته من فيه فلم يلتفت إليه، فإذا قائل يقول لى: أف لمن يكون الكلب أرهد منه.
وسمعه يقول: خرجت يوماً أشتري حاجة من بعض من يعرفنى بنصف درهم، فقلت فى نفسى:
ولعلّه لا يأخذه منى، فإذا قائل يقول لى: السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين.
قال: فأنتيت إلى الموضوع الذى كنت مقيماً به، ودخلت وأغلقت الباب، فأنا جالس، وإنسان قد
فتح الباب بجرّة (١)، وقال: بماذا تكون الإسلامية فى الدين؟

قال: فقلت: بترك لطمع فى المخلوقين، فأخذها كأنها كانت ضالّة وجدها، فتبين من حاله أن
الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: اذهب إلى موضع الغلة، فاكل لك ثلاث وبيات، فذهب فاكلت
لنفسه إردباً، فبلغ ذلك الشيخ فقال: دعوا ما اكثاله فى موضعه، وأعطوه ثلاث وبيات التى كنّا
أعطيناها إياها.

وقال رضى الله عنه: الطمع ثلاثة أحرف، كلها مجوفة فهو بطن كله؛ فلذلك صاحبه لا يشبع
أبداً.

وكان يقول رحمه الله: للناس أسباب، وسبب نحن الإيمان والتقوى قال الله سبحانه:
﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (٥) تنبيه وإعلام:

اعلم أن رفع الهمة عن الخلق شأن أهل لطريق، وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد: أيزنى
العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرًا مقدرًا، ولعمري هو سئل: أيطمع العارف فى غير الله؟ فقال: لا،
وإنما مراد الحق سبحانه أن يعبد العباد فى كل شيء حباً وثقة، وتركلاً وخوفاً ورجاءاً، وذلك الذى
تستحقه فرديته.

وكان بعض العارفين يتشد:

حرام على من وحد الله ربه . وأفرده أن يجتدى (٦) أحداً وقد
وينا صاحبه يقب لى مع الحق وقفة . أموت بها وجداً وأحيى بها رجداً
وقل للملوك الأرض تجهد جهدها . فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

ورفع الهمة إنما ينشأ عن صلق الثقة بالله.

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة، فيوجب لهم إيمانهم
إلحازاً بالله، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (٧).

والنصر من عند الله، قال سبحانه:

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٨).

(٧) المنافقون: ٨.

(٨) الروم: ٤٧.

(٦) مرة يكسر اليم أى قوة.

(٥) الأعراف: ٩٦.

(٦) يجتدى: يطلب المطام.

والنجات من العوارض الصّادة عن الله قال سبحانه:
﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٩).

فَمَنْ الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَقْتَهُ بِوَلَاهِ، وَنَصْرَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَهَوَاهِ، وَنَجَاتَهُ مِنَ الْعَوَارِضِ أَنْ تَقْطَعَهُ عَنْ سَبِيلِ
هُدَاهِ.

وشعار أهل الإرادة ودناهم الاكفاء بالله، ورفع الهمة عبا سواء، وصيانة ملابس الإيمان من أن
تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع في غير الملك الثّان.

ولنا في هذا المعنى:

بكرت تلوم على زمان أجحفا	فصدقت ^(٢٠) عنها علما أن تصدقا
لا تكثرى عنها لدهرك إنه	ما أن يطالب بالوفاء ولا الصفا
ما ضرني أن كنت فيه خاملا	فاليلدر بدر إن تبدي أو خفي
الله يعلم أننى ذو همة	تأبى الدنيا عنة ونظرفا
لم لا أصون على الورى ديباجتى	وأرهم عز الملوك وأشرفا
أأرهم أنى الفقير إليهم	وجميعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه	هذا - لعمرى إن فعلت - هو الجفا
شكوى - الضعيف إلى ضعيف مثله	عجز أقام بحامله على شفا
فاسترزق الله الذى إحسانه	عم البرية منة وتعطفنا
والجأ إليه مجده قبا ترنجي	لا تعد عن أبوابه متحرفا

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله: علمك بأنه لم يفرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك،
ومنحك وأعطاك، ولم يبق لك حاجة عند غيره، وبذا كان قد اقتضى لهم الفهم عن الله أن يكتفوا
بعلمه عن مسألته، فكيف لا يوجب لهم الفهم عن الله الاكتفاء بعلمه عن سؤال خلقه؟
ومن فاتحه الحق سبحانه بشيء مما فاتح به أحبائه فقد اقتضى منه رفع همة إليه كما احتضاه من
غيره وأولى.

ألم تسمع قوله سبحانه:

﴿وَلَدَّ آتِينَكَ سُبْحًا مِنَ الْمُنَى وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، لَا تَمُنُّ عَيْنُكَ﴾^(٢١) الآية. وكيف لا تكون متته
فيك ومواهبه وفوائده غنايته وخصائص ولايته، ناهية لك عن التعلق بغيره؟

وكان بعض العارفين ينشد:

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق	وبعد انبساطى فى مواهب خالقى
وفى حين إشرافى على ملكوته	أرى بأسطا كفا إلى غير رازقى؟

(١٩) صدقت: أى أعصت

(٢٠) بوتس: ١٠٣.

(٢١) المفسر: ٨٧، ٨٨ - وقام الآيتين: ﴿لَا تَمُنُّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّاعَهُ أَزْوَاجُهَا مِنْهُمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإن كل ذى رتبة من المخلوقين لا يرضى منك أن تنسب له رتبة تضيف المنع والعطاء والولاية والعزل فيها لغيره؟

فاحذر أن تكون من الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٦٢).

وقبيح أن تكون في دار ضيافته وتوجه وجه طمعك لغيره.

ولنا في هذا المعنى:

أَجْمِنُ بِى أُنْزِلْ ذُرَاكُمُ (١٦٣) أَوْجِهْ يَوْمًا لِلْعِبَادِ رَجَائِيَا

بِى إِنِّى أَلْهَى إِلَيْكَ أَخْلَفَ فِيهَا مَا سَوَاكَ وَرَائِيَا

ولا تطلب من هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد.

أَمْ تَسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (١٦٤) الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمْنَا مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (١٦٥) الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١٦٦).

وقال سبحانه: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١٦٧).

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (١٦٨).

كل ذلك ليجمع هم عباده عليه، وكلياً يرفعوا حوائجهم إلا إليه.

وأما حلمه رضى الله عنه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها.

ولقد دخلت عليه يوماً فقال لى: ما تقول فى فلان - رجل كان قد أذى الشيخ الأذى البالغ، أتى إلى أصحاب فلان بعض من كان له الأمر فى ذلك الزمن، وكان يتردد إلى الشيخ وقالوا: يا سيدى هذا الرجل الذى أذاك نسعى فى ضربه وإشهاره فى البلدتين مصر والقاهرة فماذا تقول أنت؟ قلت: مصلحة.

فقال كالمنكر: لأى شيء؟ قلت ذاك حق يُشفى منه. قال: أنا ما أنشفتى من أحد. قلت: إفا أردت الأتياع. قال: ولا يحمل أتباعى على التشفى. فأطرت خجلًا فبا توجه أحد لنا بالأذى بعد ذلك، فنزلت به نازلة، فهتمت النفس بالتشفى منه إلا وذكرت كلام الشيخ: «أنا ما أنشفتى من أحد» حتى كأتى قد سمعته ذلك الوقت، فتخمدت النفس عن التشفى بذلك، واتفق بعد مدة نحو

(١٦٢) يوسف: ١٠٦.

(١٦٣) النورى: الكف والضيافة والستر والدفء.

(١٦٤) البقرة: ١٨٦. وقامها: «أجيب دعوة لداع إذا دعان فليستبيرا لى رليؤبورا لى لهم يرشدون».

(١٦٥) ق: ١٦. (١٦٦) النساء: ٣٢.

(١٦٧) غافر: ٦٠. (١٦٨) المائدة: ٦٦.

خمس عشر عاماً أن الذي كان قد سعى في أذية الشيخ سعى في إزايئنا فانفتحت له نازلة فصاتني الله من التشفي منه وسلم.

وكان الشيخ يقول: هذا الذي استشرتك فيه سيئفك فيه سيئفك لي، فاقبل منه كما فعلت معه، وهذا هو كلام الأكابر يطوى في صحائف قلوب المريدين، حتى إذا جاء وقته أظهره الحق سبحانه، كأنك قد سمعته في ذلك الوقت.

وربما أحضر الله بشركك شيخك الذي خاطبك به بهيته وزيه، وربما تمثل ذلك في الخيال المنفصل. وربما حضر بوجوده الحسى عند وجود النوازل مثبِّتاً للمريد ومعلِّماً. وسمعته رضى الله عنه يقول: ما سمعتموه مني ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى الله بيانه.

فكلام الأكابر مردود على المريدين وقت حاجاتهم فيظن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذ، ولكن للحكمة بذر ونبات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موهوفاً على مجيء سحابة مطرة، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامناً، فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: لا حجاب إلا الوقت. وسمعته يوماً يقول: كان إذا آذى إنسان يهلك للوقت وأنا الآن لست كذلك. قرأت رضى الله عنه مستشرفاً لسبب ذلك، فقال: اسعيت المعرفة. وسمعته يقول: لحوم الأولياء مسمومة! واعلم علمك الله من العلم الذي يدل عليه، وجعلك من الدائمين بين يديه. أن انتصار الحق لأوليائه ليس ذلك لهم لأنهم طلبوه من الله، ولكن لما صدقوا التوكل عليه، ولرجعوا الأمر إليه انتصر الحق لهم، ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

ولا تقولن هم من ينتصر لنفسه منك، بل عدهم من ينتصر الله له، فإنه الغالب الذي لا يضرب، والهاد الذي لا يعجز، والفاخر الذي لا قبل لأهل السموات والأرض بثرة من بلائه، ولو وضع ذرات قهره على الجبال لأذايتها.

ومعنى قول الشيخ: «استعيت المعرفة» أن المريد في مبدأ إرادته بهيمته، وفي نهايته بوجود معرفته، فإذا كان في مبدأ إرادته توجهه بصدق الهمة إلى الله لاجئاً إليه في الانتقام من آذائه فينتصر الحق له لوجهه بصدق الهمة في طلب النصرة، ولضيق عطنه عن الصبر على تأخر الانتقام له، والعارف اتسع عليه بحر المعرفة، فانطوت هتة وإشامته وتدييره في إشاعة الحق له، وتدييره إياه ومن غلب عليه شهود المشيئة فأبى همة تبقى له!

وأيضاً: إنه إذا أخرت عقوبة من آذاه شهد حسن اختيار مولاه، فلم يجعل له الانتصار؛ لأنه لا يخشى عليه ما يخشى على المريد من عدم الصبر إذا أخر الانتقام له.

وأيضاً: إن المعارف لما توجه لطلب الانتقام من ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به لتخليقه بخلق معروف^(١٩) فمتناه من الانتصار وإن كان على ذلك قدراً، وكيف ينتصر من الخلق من يرى الله قعلاً فيهم؟

ثم أولياء الله إذا ظلموا على طبقات:

داع يدعو على من ظلمه، استنار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطراب، فهذا الذي لا يرد دعوؤه ومنه قوله ﷺ:

«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٢٠).

القسم الثاني: وهم الذين إذا ظلموا لجئوا إلى الله سبحانه في طلب النصرة وتعجيل الإجابة، غير أنهم علموا أن الله يعلم السر وأخفى فرفعوا أمرهم إلى الله سرّاً سرّاً وهؤلاء أولى بالانتصار الحق لهم لتوكلهم عليه، وإرجاعهم الأمر إليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(٢١).

ولقد ذكر أن امرأة كان لها دجاجة، ليس عندها غيرها، وكانت تتقوّت من بيضها فجاء سارق فسرقها، فلم تدع عليه، وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه، فأخذ السارق الدجاجة فذبحها وتنف ريشها ففنت جميعه بوجهه، فسعى في إزالة ذلك فلم يستطع، وسأل الناس فلم يقدر أحد على إزاله ما نزل به، إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل، فقال: لا أجد لك دواءً إلا أن تدعو عليك لمرأة التي سرت دجاجتها فإن فعلت ذلك شفيت.

فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك التي كانت عندك؟

قالت: سُرقت.

قالوا: لقد آذاك من سرقها.

قالت: قد فعل.

قالوا: وقد قجعك في بيضها.

قالت: هو كذلك.

فما زالوا بها حتى أثاروا الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه.

فقبل لذلك الحبر: من أين علمت هذا؟

قال: إنها لما سرت دجاجتها لم تدع عليه، ورجعت إلى الله في أمره، فانتصر الله لها، فلما دعت

(١٩) أي لتخليقه بخلق الله سبحانه من الرحمة والرأفة.

(٢٠) رواه أحمد والنسائي في الزكاة والجهاد والنظام والمغازي، ومسلم في الإيمان وأبو داود في الزكاة، والترمذي في الزكاة.

والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الزكاة، والدارقطني في الزكاة.

(٢١) الطلاق، ٣.

انتصرت لنفسها، فسقط الريش من وجه السارق.

القسم الثالث: عباد لما ظلموا لم يدعوا ولم يلجئوا إلى الله في طلب الانتقام ممن ظلمهم، ولكن فوضوا الأمر إلى الله، فكان هو المختار لهم.

القسم الرابع: وهم الطبقة العليا وهم الذين إذا ظلموا رحمو من ظلمهم.
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه.

وإذا آذاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال، واحذر أن تغلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان، ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك؟

فإذا فعلت ما أزممت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصبر حتى تغفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له، فتجيب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رُحِم بك من ظلمك، فتلك درجة الصديقين الرءاء: ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (٢٢٢).

ومن هذا القبيل الذى ذكره الشيخ أبو الحسن: ما اتفق لإبراهيم بن أدهم - رضى الله عنه - أنه قال له جندى: أين العمران؟ فأشار إلى المقابر، فظن أنه يهزأ به، فضربه فشق رأسه، وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.

فعل للجندى: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فأنكب على رجله يقبلها، ويعتذر إليه، فقال له إبراهيم بن أدهم: والله ما رفعت يدك من ضربى إلا وأنا أسأل الله لك المغفرة لأنى علمت أن الله يثيبنى على ما فعلت بى، وبواخذك على ما فعلت: فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر.

فقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: ليس هذا عين الكمال، ما فعله الصحابى سعد أحد العشرة وهو عين الكمال، ادعت عليه امرأة أنه احتاز شيئاً من بستانها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعقمها وأمتها فى مكانها. فصميت وجاءت يوماً تمشى فى بستانها، فوقعت فى بثر فماتت، فو كان ما فعله إبراهيم عين الكمال لكان الصحابى أولى به ولكنه كان سعد أميناً من أمناء الله، نفسه ونفس غيره عنده سواء، فما دعا عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يصل إلى هذه المرتبة، فترك الدعاء على الجندى لئلا يكون ذلك انتصاراً لنفسه، وسعد رضى الله عنه قد خلصه الله من نفسه وأبرزه إلى الخلق، فخلص به من يشاء من عباده، والصوفى لا يستقضى الحق لنفسه ولكن يستقضى الحق لربه.

فمائدة:

إعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليظهروا من اليقاي، وتكمل فيها المزايا، وكيلا يسلكوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد ومن أذاك فقد أعنتك من رقى إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقى بوجود امتنانه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: جُبلت

القلوب على حب من أحسن إليها.
وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا^(٢٣) له. كل ذلك ليتخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق.
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير لك من أن تصاب في قلبك، ولعند متصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعد إقبالهم عليك ليلاً وإعراضهم عنك نهاراً ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا؟ وتسلط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنة الله في أحبائه وأصفيائه، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنح دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك.

وبما يدلك على أن هذه سنة الله في أحبائه وأصفيائه قول الله سبحانه: ﴿وَوَلَّوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(٢٤). وقال عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرِّسْلَ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا نَصْرَنَا﴾^(٢٥).
وقوله عز وجل:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَتَكُنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢٦).
وقوله عز وجل: ﴿أَوَدِّنَ لِلَّذِينَ يَفْقَهُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغِيرَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٢٧).
إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

فمن حالهم في بداياتهم طأطأ إبراهيم بن أدهم رأسه حين ضربه الجندي وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.
وقوله: فرحت من عمرى مرتين.

مرة كنت في مسجد فأصابني البطن فكنت أقوم وأقع، فجاء صاحب المسجد وأمرني أن أخرج فلم أستطيع لقوة الضعف، فأخذ برجلي يجرني حتى أخرجني؟
والمرة الثانية: ركبنا في سفينة وكان هناك مضحك، فكان يقول: كن تأخذ العلاج في بلاد الروم

(٢٣) رواه أبو دارود والترمذي بإسناد صحيح نحوه.

(٢٤) التوبة: ٢٦٤.

(٢٥) يوسف: ١١٠.

(٢٦) القصص: ٥.

(٢٧) الحج: ٢٦، ٤٠.

هكذا وعد يده إلى لحيتي فأعجبني ذلك إذ لم ير في السفينة من هو أحقر مني وهذا شأنهم في بداياتهم عليا منهم بوجود اليقاييا فيهم فخافوا أن ينتصروا فينتصروا لأنفسهم، فيسقطون من عين الله تعالى، فرجعوا إلى وجود الحلم كافرين أيديهم عن الانتصار؛ لعلهم بأفات الانتصار للنفس، وشرعة الحق سبحانه وعادته في أصفيائه كثرة الأعداء والنصرة منه لهم عليهم.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

أذاني إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك فتمت قرأت قائلا يقول لي: «من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يزال بهم».

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة في مواطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد هلكته، فأزعجها عن ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة المحاسدين.

وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب، إذا ساكنت غيره، لولا ذلك لرقد القلب في ظل المز والجساء. وهو حجاب عن الله عظيم.

وصلى رضي الله عنه.

وهذا الصنيع من حسن نظر الله تعالى لأوليائه وأحبابه، وإظهار لآثار ولايته فيهم لقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فإنما تمت أنوارهم وتظهرت من اليقاييا أسرارهم حكمهم في العباد، فحينئذ يكون العيد المحتفى سيقا من سيوف الله تعالى ينتصر الله به لنفسه.

من هذا الباب دعا سعد على المرأة التي ادعت عليه كذبا وقال: اللهم أعم بصرها وأمتها في مكانها، فاستجيب له، ولما دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه الدار لطم إنسان وجه زوجته، فقال له عثمان رضي الله عنه: قطع الله يديك ورجليك وأدخلك في النار.

فرى ذلك الرجل بالشام وقد قطعت يده ورجلاه، وهو يقول: دعوة عثمان استجبت في اثنتين، وبقيت الثالثة، ولذلك قد تلبس أحوال الرجال عي عموم العباد فلا تفضل ولما ظلم فصيح على ولي ظلم فانتصر أو دعا، فقد يكون صفح من صفح لعلمه باليقاييا في نفسه، ودعاء الداعي لعلمه ينظيره من اليقاييا قدعا انتصارا لربه.

وأما صبره، فكان رضي الله عنه من الثابتين في مركز الصبر، وكان به أمراض عديدة لو وضع بعضها على الجبال لذابت؛ كان به برد الكلى، وكان به الحصى، وكان به اثنا عشر بأسورا وهو يجلس للناس، ولا يقطع الجلوس لهم ولا يتأوه في حين جلوسه، ولا يعلم لجلوسه عنده أن به شيئا من الأمراض، ولم تكن الأمراض أورثته صفرة في الوجه. ولا تغيرا في البدن حتى كان يقول: لا تنظروا إلى حمرة وجهي فحسرة وجهي من قلبي.

ودخل عليه إنسان فوجد ألما به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدي. فسكت الشيخ رضي الله عنه ولم يجابره، ثم مكث ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدي. فقال الشيخ: وأنا سألت الله العافية، أنا قد سألته العافية والذي أنا فيه هو عين العافية.

رسول الله ﷺ قد سأل العافية، وقد قال رسول الله ﷺ: ما زالت أكلة خيبر تعتادني فالآن قد قطعت أبهري (٢٨).

عمر رضي الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مطعونا.
عثمان رضي الله عنه قد سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبحا.
علي رضي الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولا.
فإذا سألت الله العافية فاسأله العافية من حيث يعلمها لك إنها عافية.
وكان رضي الله عنه يقول: الصبر مشتق من الأصبار، وهو الغرض الذي يرمى عليه بالسهام؛ فالصابر من نصب نفسه غرضا لسهام القضاء.
وكان هجيراء يسأل الله اللطف قل أن يفتر عن ذكر ذلك.
ودخلت عليه يوما فوجدت ألما به فقلت: يا سيدي أظنك ضعيفا فقال رضي الله عنه: الضعيف من لا إيمان له ولا تقوى.
واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر على الواجبات، وصبر على المحرمات، وصبر في البليات.
وصبر الأكابر على كتم الأسرار، وفقد الركون إلى الآثار، وعدم الوقوف مع الأنوار.
صبرهم على حمل الأذى، والثبوت تحت إجماري القضاء.
صبرهم على حمل أنقال العباد، والصبر مع الله فيها أراد.
صبرهم على القيام بأحكام العبودية، والثبوت منجاري أحكام الربوبية.
صبرهم على مكارم الأخلاق؛ والقيام مع الله بشرط الوفاق.
صبرهم على جمع المصم عليه، والرجوع في كل أمرهم إليه.
صبرهم على الجلوس للخلق، والدلالة على الملك الحق.
وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول: والله ما جلست للخلق حتى هُذت بالسلب.
وقيل لي: لئن لم تجلس للناس لتسلبنك ما وهبتك.

وأما سداد طريقته، فكان رضي الله عنه شديد التحرز من حقوق العباد، مسرعا للوفاء بها حتى أنه يوفي الشيء قبل استجماعه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد.
إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الانتضاء، منقطعاً عن أبناء الدنيا والتردد إليهم، لا يرفع يده لأحد منهم، ولا يبعث إليهم، إذا طُلب منه أن يكتب إليهم، قال لطالب ذلك: «أنا أطلب لك ذلك من الله، فإن رضي الطالب بذلك نجح مسعاه، ولطف به

(٢٨) الأعر، عرق في الظهر، يقال هو الوريد في العنق، وقال أبو عبيد: «الأعر عرق مستعطن في الصلب، والغلب متصل به فإذا انقطع لم تكن مع حياته» اهـ.

مولاه متبتلاً إلى الجلوس للخلق، لا تأتبه ليلاً ولا نهاراً إلا وجدته.

ولقد أتته يوماً واستأذنت عليه، فقبل لي: اصبر قليلاً، فتشوّست من ذلك، وقلت: قد يكون بلغ الشيخ عني ما أوجب تغيره.

فبعد ساعة أذن لي فدخلت، فقال الشيخ رضى الله عنه: اعذرني، كانت ابنة الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه عدى فكرهت أن أقطع كلامها، والله ما أعد نفسي إلا خادماً من خدامهم! وكان ينهى أن يعوق المريد إذا جاءه ويقول: المريد يأتي بشعلة هبته، فإذا قبل له: كف ساعة: طُفِيت ما جاء به.

وكان لا يبدل المريد على المتاعب والمشقات ولا يلزمه ذلك.

وكان يقول عن شيخه أبي الحسن: ليس الرجل من ذلك على تعبك، إنما الرجل من ذلك على راحتك.

ومبنى طريقته رضى الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة؛ وملازمة الخلوة والذكر. ولكل مريد معه سبيل يحمل كل واحد على السبيل التي تصلح له.

وكان لا يحب المريد الذي لا سبب له.

وكان يندل المريدين على الانجماع في حبه، ولا يُكرِّم المريد أن لا يرى غيره.

وكان يقول عن شيخه رضى الله عنه: أصحابي ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منيلاً أعذب من هذا المنهل فردوا.

وكان إذا دخل المريد في أرواده بنفسه وهواه أخرجه عنها.

وكان إذا مئح بقصيدة أو أبيات يميز المادح بإقباله، وربما واجهه بنواله. وكان مكرماً للفقهاء ولأهل العلم وطلبته، إذا جاءوه!

وكان يقول لأصحابه إذا جاءه رئيس أو ذو وجهة: عرّفوني به.

وكان أزهّد الناس في ولاية الأمور، فإذا جاءوه أكرمهم وربما مشى لهم خطوات.

وكان شديد التعظيم لشيخه أبي الحسن رضى الله عنه، حتى إنك كنت تشهد منه أنه لا نبات منه لنفسه معه.

وكان ينشد إذا ذكر الشيخ رضى الله عنه هذه الأبيات:

لى سادة من عزّهم أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى فى حبّهم عزّ وجباه

وكان من شأنه أن ما عني به لا يأكله.

وكان يكره أن يعلم بطعام أو هدية قبل إتيانها.

وكان لا يدعو للمحسن بحضرته، بل إذا غاب دعا له بظهر الغيب.

وكان إذا أهدى له شيء يسير تلقاه ببشاشة وقبول، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقاه بالعز.
وكان لا يمن على مريد ولا يرفع له علماً بين إخوانه خشيةً عليه أن يُحسد.

وكانت صلاته موجزة في تمام، وكان يقول: صلاة الأبدال خفيفة.

وكان إذا تلا تقول الكون كله مستمع له، وصلى قيام رمضان سنة، فقال: قرأت القرآن في هذه السنة، كأنما أقرؤه على رسول الله ﷺ، ثم جاء رمضان الثاني فقال: قرأته في هذه السنة: كأنما أقرؤه على جبريل عليه السلام، ثم جاءت السنة الثالثة فقال: قرأته في هذه السنة كأنما أقرؤه على الله عز وجل.

وكان إذا كانت ليلة القدر أخبر بها أصحابه، ودعا فيها بقدر ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات.

وكان يقول: أوقاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر^(٢٩).

وأشدنا بعض إخواننا لبعض أهل الطريق في المعنى:

لولا شهود جمالكم في ذاتي ما كنت أرضى ساعة بحياتي
ما ليلة القدر المظم شأنها إلا إذا عَمَرْتُ بِكُمْ أوقاتي
إن المحب إذا فُكِّن في الهوى والمحب لم يحتج إلى ميقات

وجاء الفقيه مكي الدين الأسمر رضى الله عنه سنة، فقال له: يا سيدي رأيت ليلة القدر، ولكن ليس كما أراها كل سنة، وأتمتها هذه السنة لا نور لها. فقال له الشيخ رضى الله عنه: مورك «مسن» نورها يا مكيين الدين.

(٢٩) كانت هالك محاولات طريقة من بعض العلماء والصالحين لتحديد ليلة القدر: فمثلاً قال بعضهم: إن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كمعد أيام رمضان. وكلمة «هي» التي تشير إلى ليلة القدر في قوله تعالى في السورة نفسها «سلام هي» هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين. هذه محاولة.

ومحاولة أخرى هي:

إن حروب ليلة القدر تسعة حروب، وقد ذكرت ليلة القدر في السورة ثلاث مرات وثلاث في تسع بسبع وعشرين. أما الشيخ أحمد زريق رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها:
إنها لا تفرق جمعة من أواخر آخر الشهر، وقد روى هذا أيضاً عن ابن العربي. هذه محاولات أما الثالث الشيخ فهو: أن القرآن لم يمتها شيئاً واضحاً، وأن الرسول ﷺ لم يحددها تحديداً تاماً.
ولقد قال أسلافنا رضى الله عنهم:
أنطق الرب أقوالاً في أمور لمحكم:

ليلة القدر في ألبال تحبب جميعها - وساعة الإحابة في الجسمة يدعو في جميعها، والصلوة الرسلى في الصلوات الحافظ على الكل - والاسم الأعظم في أسمائه ليدعى بالجميع، ورضاه في طاعته ليرخص للعدد على جميع الطاعات، ونعوضه في مباحه، لينزجر عن الكل، والولى في المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، ويهيئ الساعة في الأوقات للخوف منها دائماً، وأجل الإنسان عنه ليكون دائماً على أمة.

ومحب الشيخ أحمد الصاوى حل ذلك في حاشيته على الجلالين يقول:

«عمل هذا يحصل تواجها لمن هاهنا، ولو لم يعلمها، نعم: العالم بها أكمل. هذا الأظهر».

ولقد رأينا في عصرنا الحاضر عن تجربة أكثر من واحد يعلمون ليلة القدر، بعضهم يعلمها قبل إيمانها، وبعضهم يعلمها في إلتها، وتضل الله أوسع من ذلك وأعظم.

ولقد كنت مع الشيخ مكين الدين هذا بالجامع الغربي من الإسكندرية في العشر الأواخر من رمضان ليلة ست وعشرين، فقال الشيخ مكين الدين: أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة في تهيئة وتعبية، أرأيت تأهب أهل العرس ليلة قبله؟ كذلك رأيتهم فلما كانت الليلة الثانية، وهي ليلة سبع وعشرين، وكانت ليلة جمعة، قال: أنا الساعة أرى ملائكة معها أطباق من نور، الطبق يوازي مثانة الجامع، فوق ذلك ودون ذلك، وهذه هي ليلة العدر، فلما كانت الليلة الثالثة، وهي ليلة ثامن وعشرين، قال: رأيت هذه الليلة كالتمطيطة وهي تقول: هب أن لليلة القدر حقاً يرعى، أما لي حق يرعى؟

وكان الشيخ مكين الدين - رضى الله عنه - من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله عز وجل، كان الشيخ أبو الحسن المشاذل رضى الله عنه يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور، أسمر اللون، أبيض القلب، والله إنه ليكاشفى، وأنا مع أهل، وعلى فراشى! ومرة أخرى قال الشيخ أبو الحسن أيضاً فيه: ما سلكت غيباً من غيوب الله إلا وعمامته تحت قلبي.

ولقد أخبرني الشيخ مكين الدين هذا، قال: دخلت مسجد النبي ﷺ بالإسكندرية (٢٠) «بالدياس» فوجدت النبي المدفون هناك قائماً يصل، عليه عباءة مخططة، فقال لي: تقدم فصل. فقلت له: تقدم أنت وصل. قال: تقدم أنت وصل، فإنكم من أمة نبي لا ينبغي لنا التقدم عليه! قال: فقلت له: بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصلت. قال: فأنا أقول: بحق هذا النب إلا وهو قد وضع فمه على فمي إجلالاً للفظه النبي كيلا يبرز في الهواء!

قال: فتقدمت فصلت.

وأخبرني الشيخ مكين الأسمر أيضاً؛ قال: بث بالقرافة ليلة الجمعة، فلما قام الزوار فمت معهم، وهم يتلون إلى أن انتهوا في التلاوة إلى سورة يوسف عليه السلام، ومنها إلى قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ﴾ وانتهوا في الزيارة إلى قبر إخوة يوسف، فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل، خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون، وهو يقول: من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا.

ولقد كنت يوماً مضطجعاً وأنا ساكن مطمئن وأجد في قلبي انزعاجاً على بهته وباعثاً يبعثني على الاجتماع بالشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، فمت مسرعاً فدخلت الباب فخرج، فلما وقع بصره على قال: أنت ما تحيي حق تسهر الناس خلفك، وتبسم قلت: يا سيدي قد جئت. فدخل وأخرج لي دعاء، وقال: هذا الدعاء اذهب به إلى الشيخ أبي العباس وقل له: قد كتبت فيه آيات من القرآن وبحوثها بماه زمزم وشيء من العسل، فذهبت بذلك للشيخ أبي العباس رضى الله عنه فقال: ما هذا؟ قلت أرسله إليكم الفقيه مكين الدين الأسمر، فأدلى فيه إصبعا واحداً وقال: هذا

(٢٠) هو نبي الله «دانيال» من أنبياء بني إسرائيل.

بحسب البركة وفرغ الوعاء وملأه غسلًا، وقال اذهب به إلى الفقيه. فذهبت بذلك إليه ثم عدت إليه بعد ذلك فقال لي: رأيت البارحة ملائكة أتوني بأوعية من زجاج مملوءة شرابًا وهم يقولون خذ هذا عوض ما أهديت للشيخ أبي العباس رضي الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة. وكان رضي الله عنه يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى إنه ربما دخل عليه مطيعٌ فلا يهتبل^(٣١) به وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه، لأن ذلك الطائع أنى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصي دخل عليه بكسر معصيته وذلة مخالفته^(٣٢).

وكان شديد الكرامة للوسواس في الطهارة والصلاة، وينقل عليه شهود من كان ذلك وصفه، سنل يومًا وأنا حاضر فقيل له: يا سيدي فلان صاحب علم وصلاح كثير الوسوسة فقال: وأين العلم والصلاح يا فلان؟ العلم هو الذى ينطبع في القلب كاللبياض في الأبيض والسواد في الأسود.

(٣١) أى: لا يهتلم به.

(٣٢) ولأين عطاء الله في ذلك حكمة بليغة يقولها فيها:
«معصية أورثت ذلًا واقتدارًا، غير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا».

الباب الخامس

في آيات من كتاب الله تعالى
تكلم على تبين معناها وإظهار فحواها

قال الله سبحانه:

﴿الحمد لله رب العالمين﴾^(١).

قال الشيخ رضي الله عنه: علم الله عجز خلقه من حمده، فحمد نفسه بنفسه في أزلها، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده، فقال: الحمد لله رب العالمين، أي قولوا الحمد لله رب العالمين، أي الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا يبنى أن يكون لغيره. فعلى هذا تكون الألف واللام عهديتين.

وسمعه يقول في قوله عز وجل:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾^(٢).

إياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة.

إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان.

إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية.

إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

واعلم رحمك الله بإقباله عليك بوجه، وجعلك من الراعين لهده، أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبدوه، واقتضى منهم أن يسجلوا بذلك على أنفسهم نطقاً كما قاموا به علماً.

واقتضى منهم أن يفردوه.

واقتضى منهم أن تتنظم العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وحقائق وجوداتهم الباطنة.

واقتضى منهم الرجوع إليه من دعوى القيومية في العبادة التبري من الحول والقوة. فلما قام العبد لله بالعبادة عملاً، اقتضى الحق أن يعترف بها نطقاً؛ ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عز وجل، حتى إذا نفلت نفسه عن القيام بالعبادة وثقلت عليها ملامة التكليف، قامت الحجة على العبد بما أعطى الله سبحانه من الاعتراف بالعبادة له وأنه لا يعبد غيره لقوله: ﴿إياك نعبد﴾. واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وعوالمهم الباطنة بإتيانه بالصيغة هكذا: ﴿نعبد﴾ وإعراضه عن التعبير بالهزمة المفردة بالتكلم لأن النون إنما تكون للواحد المعظم نفسه، أو العظيم في نفسه، وليس هذا موضع هذين المعنيين؛ إذ العبد لا يبتدئ بين يدي الله بوصف

(١) الفاتحة، ٢.

(٢) الفاتحة، ٥.

عظمة، فلم يبق إلا أن يكون للواحد معه غيره، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة.

وأما أنه اقتضى منهم الرجوع إلى من دعوى القيومية في العبادة لأنه لما قال: ﴿إياك نعبد﴾ فأضاف لعبادة إليهم، واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قياماً بدائرة الفرق التي عليها يترتب التكليف، أردف ذلك بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ كيلا يدعى العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم فأراد منه أن يوفوا الحقيقة حقها والشرعة حقها؛ فذلك جمع بين الأمرين. القيام بالعبادة لربوبيته، والتبرئ من الحول والقوة مع إلميته.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (٣).

فقال الشيخ رضى الله عنه: بالتثبيت فيها هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل.

وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره وسطه الشيخ رضى الله عنه فقال:

عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى: بالتثبيت فيها هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنتهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين.

والصالحون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم. معناه تسالك التثبيت فيها هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنتهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء.

والشهداء يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيها هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل فإنتهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقية.

والصديقون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالتثبيت فيها هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنتهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات القطبية.

والقطب يقول: اهدنا الصراط المستقيم، أى بالتثبيت فيها هو حاصل، والإرشاد بما ليس بحاصل، فإنه قد حصل رتبة القطبانية وفاته علم إذا شاء الله أن يطلع عليه أطلعه.

وقال في قوله عز وجل:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ (٤).

كل موضع ذكر فيه المصلّون في معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾^(٥).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾^(٦).

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾^(٧).

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٨).

﴿وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ﴾^(٩).

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(١٠).

ولم يقل فويل للمقيميين الصلاة.

ولإقامة هو أنه إذا صلى المؤمن صلاةً فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورةً في ملكوته راقيةً ساجدةً إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة^(١١).

وقال في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذِيعُوا بِقِرَّةٍ﴾^(١٢).

«بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك يذبحها»^(١٣).

وقال في قوله عز وجل:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾^(١٤).

قيل: إنما وقع التفصيل في العبارة تأديباً من الله لنا فأضاف المحاسن إليه وأضاف المصائب إلينا وإن كان فعل العيد كله خلق الله تعالى: حسنه وسينه، كما قال:

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾^(١٥).

فأضاف ذلك إلى الله، وقال في السفينة:

﴿فَأَرَادَ أَنْ أَعْيِبَهَا﴾^(١٦).

ولم يقل: فأراد ربك أن يعييبها أدباً في التعبير، كما قال إبراهيم عليه السلام:

(٥) إبراهيم: ٤٠.

(٦) الإسراء: ٧٨.

(٧) التوبة: ١٨.

(٨) لقمة الصلاة: أدبها، كما يحب الله ورسوله، وهو أن يتجرد فيها الله سبحانه وتعالى تجرداً كاملاً واقفاً بين يديه مستمراً عظمت وجلاله وجماله، وهذا النوع من الصلاة هو الأمر به، وهو الذي يهي عن الفحشاء والمكر، وهو الذي يفرع إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو حزته كما كان يفعل الرسول ﷺ فيبسر الله الأمر ويقضى الحاجة.

(٩) البقرة: ٦٧.

(١٠) إن أبا العباس رضي الله عنه قول بلقي الأصيل للأصل الكريمة، وباب الإشارات فيه مشع، ولا ضير ما دام المعنى

الأصل بقره الفسر، ويستدير المؤلف إلى ذلك بعد.

(١١) الساء: ٧٩.

(١٢) الكهف: ٨٢.

(١٣) الكهف: ٨٢.

(١٤) الكهف: ٨٢.

(١٥) الكهف: ٨٢.

(١٦) الكهف: ٨٢.

(٨) غافر: ٢٩.

(٩) الحج: ٣٥.

(١٠) الماعون: ٥.

(١١) لقمة الصلاة: أدبها، كما يحب الله ورسوله، وهو أن يتجرد فيها الله سبحانه وتعالى تجرداً كاملاً واقفاً بين يديه مستمراً عظمت وجلاله وجماله، وهذا النوع من الصلاة هو الأمر به، وهو الذي يهي عن الفحشاء والمكر، وهو الذي يفرع إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو حزته كما كان يفعل الرسول ﷺ فيبسر الله الأمر ويقضى الحاجة.

(١٢) إن أبا العباس رضي الله عنه قول بلقي الأصيل للأصل الكريمة، وباب الإشارات فيه مشع، ولا ضير ما دام المعنى

الأصل بقره الفسر، ويستدير المؤلف إلى ذلك بعد.

(١٣) الساء: ٧٩.

(١٤) الكهف: ٨٢.

(١٥) الكهف: ٨٢.

(١٦) الكهف: ٨٢.

(١٧) الكهف: ٨٢.

(١٨) الكهف: ٨٢.

(١٩) الكهف: ٨٢.

﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِيكَ﴾ (١٧).

فأضاف المَرَضَ لنفسه، والشفاء لله تعالى.

ومنها من قال: إن ذلك داخل في مضمون القول، وإن هذا التفصيل حكاه الله عنهم، والتقدير: فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثنا في قولهم:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

ورد عليهم بقوله:

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ (١٨).

يولج المعصية في الطاعة ويولج الطاعة في المعصية (١٩)، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعل، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأبها الطاعة وأبها المعصية!

وقال رضى الله عنه: التَّقَى من كسر الأصنام، قال الله تعالى:

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢٠).

وقال رضى الله عنه في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَمَّنْ يَنْجِبُ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٢١).

الولى لا يزال مضطراً.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرابهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرابهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلوا أن اضطرابهم إلى الله دائم؛ لأن الاضطراب تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطرب إلى مبدئه، ومبدئه معه به، وكما أن الحق سبحانه هو الخلق أبداً، فالعبد مضطرب إليه أبداً، ولا يزال العبد هذا الاضطراب لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله فيها، غير أنه غس اضطرابه في

(١٧) الشعراء: ٨٠.

(١٨) الحج: ٦٦ - لقمان: ٢٩ - فاطر: ٥٣ - الحديد: ٦.

(١٩) تعود فقول: إن المعنى اللغوي العادى للآفة الكريمة، يفرّ به أبو العباس رضى الله عنه، ومعناه: وهناك إشارات تفيض بها الآية الكريمة لا تتعارض مع المعنى العادى، ولا تنقضه، وفصل الله في هذه الإشارات واسع، وهذا الذى يقوله بصدق على كل ما يأتي من باب الإشارة إلى الآية الكريمة أو الأحداث النبوية الشريفة وهو الذى سنّه عليه ابن عطاء الله بمد قليل.

(٢٠) الأبيات: ٦٠.

(٢١) النمل: ٦٢.

الْمَلَكُ الَّتِي أَمَرَتْ عَلَيْهِ مَلَاسِيهَا، وَهَذَا هُوَ حَكْمُ الْحَقَائِقِ: أَنْ لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهَا لِأَنِّي أَغِيبُ وَلَا فِي الشَّهَادَةِ وَلَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

فَالْعِلْمُ صِفَتُهُ الْكَشْفُ أَيْ عِلْمُ كَانَ وَفِي أَيْ وَقْتُتْ كَانَ، وَالْإِرَادَةُ صِفَتُهَا التَّخْصِصُ أَيْ إِرَادَةُ كَانَتْ، وَفِي أَيْ وَقْتُتْ كَانَتْ، وَمِنْ أُنْشِئَتْ أَنْوَارُهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ اضْطِرَارُهُ. وَقَدْ عَاتَبَ اللَّهُ قَوْمًا اضْطَرُّوا إِلَيْهِ عِنْدَ وَجُودِ أَسْبَابِ أَلْجَأَتِهِمْ إِلَى الْاضْطِرَارِ، فَلَمَّا ذَالَتْ زَالِ اضْطِرَارِهِمْ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ (٢٢٢) الْآيَةُ. وَقَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٣). وَقَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢٢٤).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي هَذَا الْمَقْعَدِ.

وَلَمَّا لَمْ تَصِلْ عُقُولُ الْعَوَامِ إِلَى مَا تَعْطِيهِ حَقَائِقُ وَجُودَاتِهِمْ، سَلَّطَ الْحَقُّ عَلَيْهِمُ الْأَسْبَابَ الْمُتَبَرِّجَةَ لِلْاضْطِرَارِّ، لِيَعْرِفُوا قَهْرَ رَبِّوَيْتِهِ وَعِظَمَةَ إِلَهِيَّتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ.

وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى فَخَامَةِ رَتَبَةِ الْاضْطِرَارِّ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ أَوْقَفَ الْإِجَابَةَ عَلَيْهِ فَقَالَ:

﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٢٢٥).

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَعْطِيَ عَبْدًا شَيْئًا وَهِيَ الْاضْطِرَارُّ إِلَيْهِ فِيهِ، فَيُطْلَبُ بِاضْطِرَارِّهِ، فَيَعْطَى، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْجِيَ عَبْدًا أَمْرًا مَنَعَهُ الْاضْطِرَارُّ إِلَيْهِ فِيهِ، ثُمَّ مَنَعَهُ إِيَّاهُ وَقَامَتْ حِجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ: لَوْ اضْطَرَّتْ إِلَيْنَا لِأَعْطَيْنَاكَ، فَلَا يَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَضْطُرَّ وَتَطْلُبَ فَلَا تَعْطَى، بَلْ يَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْرَمَ الْاضْطِرَارُّ، فَتَحْرَمَ الْعَطْلُ، أَوْ تَطْلُبَ بِغَيْرِ اضْطِرَارِّ فَتَحْرَمَ الْعَطْلُ.

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّمَادْخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمَحْرَبَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٢٦).

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:

﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٢٧).

(٢٢٢) الْإِسْرَاءُ: ٦٧، وَقَعْمَاءُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. (٢٢٥) التَّنْزِيلُ: ٦٢.

(٢٢٣) يُونُسُ: ٦٢. (٢٢٦) آلِ صُرَارٍ: ٣٧.

(٢٢٤) الْأَنْعَامُ: ٦٣، ٦٤. (٢٢٧) مَرْيَمُ: ٢٥.

فذكر بعض الناس في هذا تأويلاً لا يرضى، ولا ينبغي أن يلتفت إليه، وهو أنه كان حبها لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، وليس الأمر كما قال هذا القائل، لأنها صديقة كما أخبر الله عنها: ﴿وَأَمَّا صَدِيقَةٌ﴾ (٢٨).

والصديق والصديقة لا يتنقلان من حالة إلا إلى أكمل منها، ولكنها كانت في بدانها متعرقاً إليها بغرق العادات وسقوط الأسباب فلما تكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتم من الحالة الأولى.

وقال رضى الله عنه: الفتوة: الإيمان والغداية قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٩).

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه حاكياً عن الشيطان:

﴿هُمْ لَأَتْنِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٣٠).

ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم، لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، والشيطان لا يمكنه أن يأتي المؤمن من توحيد ولا من إسلام.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣١).

قال سعى خليلاً لأنه خال سراً محبة الله تعالى قال الشاعر:

قد تَخَلَّلْتُ مسلِكَ الروح مَنَى - ولذا سَمِيَ الخليل خليلًا
فإذا ما بَطِطْتُ كُنْتُ كلامي - وإذا ما صُتْتُ كُنْتُ العليلاً

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ (٣٢).

قال: «وفى» بمقتضى قوله:

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾.

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل:

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣).

قال: من طاعتهم ومن أعمالهم التي قاموا لله تعالى بها في ليالهم أن يشهدوها من أنفسهم.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه: أن الله عز وجل وصفهم قبل ذلك بقوله:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (٣٤).

(٢٨) النساء: ٧٥.

(٢٩) النساء: ١٢٥.

(٣٠) الكهف: ١٧.

(٣١) التجم: ٣٧.

(٣٢) الأعراف: ١٧.

(٣٣) الأعراف: ١٧.

(٣٤) الأعراف: ١٧.

ثم قال:

﴿وبالأسفار هم يستغفرون﴾.

فلم يتقدم منهم في ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن نبي ﷺ كان إذا سلم من صلاته استغفر الله ثلاثاً. وقال الواسطي:

العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعراض عليها.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (٣٥).

أي من طاعتهم وأعمالهم، ومثل ذلك:

﴿ورحمه ربك خير مما يجمعون﴾ (٣٦).

وقال رضي الله عنه في قوله عز وجل:

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾:

ولم يقل بنبيّه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله.

وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السرّيات للأتباع فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية، فالتبى ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه.

والأولياء هم قسطن من العبودية فلهم قسطن من الإسراء، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

وسمعه رضي الله عنه يقول في قوله سبحانه وتعالى:

﴿إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر﴾ (٣٧).

﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ في هذه الدار وفي تلك الدار، في الدنيا، في جنات نعوم وأنهار المعارف، وفي الآخرة، في الجنة التي وعدوا بها، في مقعد صدق، في هذه الدار وفي تلك الدار، عند مليك مقتدر في هذه الدار وفي تلك الدار.

وبسط كلام الشيخ رضي الله عنه هو:

أن نعيم الجنة الكائن فيها يكون رفافته معجّلة للمتقين في هذه الدار، فيما كان لهم في الجنة حساً يكون لهم في هذه الدار معنى.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه:

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ (٣٨).

فى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى الدنيا فى نعيم الشهود وفى الآخرة فى نعيم الرؤية.
وكذلك قوله:

﴿وإن الفجار لفى جحيم﴾.

أى فى هذه الدار، وفى تلك الدار، فى هذه الدار فى جحيم القطيعة وفى تلك الدار فى جحيم العقوبة، وقوله:

﴿فى مقعد صدق﴾.

أى فى هذه الدار، وفى تلك الدار، فى هذه الدار فى مقعد صدق العبودية وفى تلك الدار فى مقعد صدق الخصوصية.

﴿عند مليك مقتدر﴾.

فى هذه الدار وفى تلك الدار، فى هذه الدار لهم عندية الإمداد وفى تلك الدار لهم عندية الإسهاد.
وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ (٣٩):

الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة:
كن.

قال الله سبحانه:

﴿ويعلم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ (٤٠).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿أن أشكر لى ربوالديك﴾ (٤١):

إنما قرن شكرهما بشكره لأنها أصل فى وجودك.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسمى، قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ (٤٢).

يقال للوى: وما تلك بيمينك أيها الولى؟

قال: هى دنياى، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمى. وغمه أعضاؤه، ولى فيها مآرب أخرى.
فيقال له: ألقها فناء عنها.

فألقاها.

فكشفت له عن حقيقتها فإذا هى حية تسمى.

(٤١) لقمان: ٦٤.

(٣٩) يونس: ٥.

(٤٢) طه: ١٧ - ٢١.

(٤٠) الأنعام: ٧٣.

ثم يقال له:

﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

فلا يضره أخذها؛ لأنه أخذها بإذن الله كما ألقاها بإذن الله. فأخذها من الوجه الذي به ألقاها. فأطاع الله في أخذها كما أطاعه في إلقائها.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالسَّامِ، وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا، الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْهَاقِ لِلرَّحْمَنِ﴾ (٤٣).

إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ولا للعزیز؛ لأن تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة، فلو قال للقهار أو للعزیز لم يطق ذلك العباد وتقطرت قلوبهم، ففرق بهم أن قال:

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْهَاقِ لِلرَّحْمَنِ﴾.

وهكذا قوله:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقْدًا﴾ (٤٤).

ولم يقل إلى القهار ولا إلى العزیز؛ لأن الحشر وهو المطلع شديد قلاطهم برحمانيته في ظهور سلطان قهره.

وقال رضى الله عنه وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَوْنُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٥).

فقال له القائل: من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته، ومن أين له أن لا يوت إلا وهو مسلم؟ فقال الشيخ رضى الله عنه: قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

فكانوا قد خوطبوا أولاً أن يتقوا الله حق تقاته، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر؛ ثم خفف عنهم بقوله:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

قال الشيخ رضى الله عنه: ويمكن الجمع بين الآيتين:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

أى فى جانب الأعمال. وقوله:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

أى فى جانب التوحيد، وقوله:

﴿وَلَا تَوْنُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أى لا تتطاولوا من الأعمال إلا أعمالاً إذا مَتَّ عليها مَتَمَّ مسلمين.
وقال رضى الله عنه: صليت خلف الشيخ صلاة الصبح فقرأ بهم عسق حتى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿يحب لمن يشاء إناناً﴾.

فخطر لى أنها الحسنات.

﴿ويحب لمن يشاء الذكور﴾.

فخطر لى أنها العلوم.

﴿أو يزوجهم ذكراً وإناناً﴾.

علوماً وحسنات.

﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾.

لا علم ولا حسنة.

فلما سلم الشيخ من الصلاة استدعانى وقال: لقد وجدت فهمك فى الصلاة حب لمن يشاء إناناً الحسنات، وحب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم ذكراً وإناناً علوماً وحسنات ويجعل من يشاء عقيماً لا علم ولا حسنة.

فسجيت من اطلاع الشيخ على ذلك.

فقال: أنسب من اطلاعى على فهمك فى الصلاة، قد فهم فلان كذا، وفهم فلان كذا، حتى عدّ أفهام الجماعة الذين خلفه.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ (٤٦).

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفناهم من دونه. قيل لبعضهم: كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله، فكفنا من دونه.

وقال رضى الله عنه: قرأت مرة ﴿والتين والزيتون﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

ففكرت فى معنى هذه الآية، فكشفت لى عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه: لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم روحاً وعقلاً، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى.

وقال فى قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (٤٧)؛

هَمَّ بِهَا هُمْ إِرَادَةً وَهُمْ بِهَا هُمْ مِيلًا لَهُمْ إِرَادَةً.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لَمَّا تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْحَسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ (٤٨)؛

فقال عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: ذكر توبة من لا يذنب لئلا يستوحش من أذنب لأنه ذكر النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال:

وعن الثلاثة الذين خلفوا.

فذكر من لم يذنب ليونس من قد أذنبه فلو قال أَوَّلًا لَمَّا تَابَ اللَّهُ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا لَنُفِطِرَتْ أَكْبَادُهُمْ.

وقال رضى الله عنه:

التقوى فى كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال - الله سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ (٤٩).

وتقوى اليوم:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (٥٠).

وتقوى الربوبية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (٥١).

وتقوى الآلوهة:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (٥٢).

وتقوى الآنية:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمَ الْأُولَى﴾ (٥٣).

وقال رضى الله عنه فى قوله عز وجل:

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (٥٤)؛

نزلت فى اليهود.

ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرًا للسماع، يهواه، أكلاً مما حرّمه مولاه، فهى نزغة يهودية؛

(٤٧) يوسف آية: ٢٤ - ويفسر بعضهم الآية الكريمة فيقول: لولا أن رأى برهان ربه هَمَّ بِهَا، وهو تفسير نسيغه الملق. ونتيجته: أنه لم يهَمَّ بِهَا لأنه رأى برهان ربه.

(٥٢) النساء: ٦.

(٤٨) التوبة: ١١٧.

(٥٣) البقرة: ١٩٧.

(٤٩) آل عمران: ١٣٦.

(٥٤) المائدة: ٤٢.

(٥٠) البقرة: ٢٨٦.

(٥١) النساء: ٦.

لأن أقوال يذكر العشق وما هو بماشوق، والمحبة وما هو محب، والوجد وما هو متواجد، فالقول يقول الكذب والمنتم سماع له، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى:

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

وقال رضى الله عنه:

عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة، فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: اقرأ.

قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ:

﴿أَوَلَمْ يَكْتُفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (٥٥).

فحوتوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إذا تخشعوا من التوراة وهى كلام الله، فبظنك بن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والفناء؟

وقال رضى الله عنه وقد سأله سائل: ياسيدى لم قال عيسى عليه السلام:

﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَاتْنَمَّ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥٦).

ولم يقل: الغفور الرحيم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: إنما عدل عن قوله إنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله:

﴿فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعته من عيسى عليه السلام لهم في المغفرة ولا شفاعته في كافر. ولأنه عيّد من دون الله فاستحى من الشفاعته عنده وقد عيّد معه.

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مَتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٥٧).

في هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها وأنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة الربانية التى أودعناها فيك، وفيها دم للكافرين أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لحشع وتصدع وأنتم ما خشعتم ولا تصدعتم.

فائدة:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه: يجب لمن يشاء إتيان الحسنات، ويجب من يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم

ذكرنا وإنانا علومًا وحسنات. ويجعل من يشاء عقيلاً لا علم ولا حسنة، وكما مضى أيضاً من قوله عز وجل:

﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفُسْكَادَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبِحُوا بِقَرَّةٍ﴾.

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمركم بذبحها، وكما سيأتي إن شاء الله في تفسير الأحاديث، فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه في عرف المسلمين، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث. لمن فتح الله على قلبه، وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال:

«لكل آية ظاهر وباطن، وحده ومطلع».

فلا يصدك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك دو جدل أو معارضة؛ هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقولون الظاهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم، وربما فهموا من اللفظ صد ما قصده واضعها، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله قال: كان ببغداد فقيه يقال له الجوزي، يقرئ اثني عشر علماً فخرج يوماً قاصداً لمدرسته، فسمع منشداً ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شراب ليك بالنيهار
ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار
فخرج هائبا على وجهه حتى أتى مكة، ولم يزل يجاورها بها حتى مات.
وقرئ على الشيخ مكي بن الدين الأسمر رضي الله عنه قول القائل:

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني لما انتظرت لشرب الراح إفتاراً
الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزاراً
يا من يلوم على صهياء صافية خذ الجنان ودعني أسكن الناراً

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكي بن الدين الأسمر لقارئه: اقرأ هذا رجل محبوب!

ويكتفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا صادياً يقول: «يا سمر برى» ففهم كل منهم عن الله محاطية خوطب بها في سره.

سمع الواحد: أشع تر برى.

وسمع الآخر: الساعة ترى برى.

وسمع الآخر: ما أوسع برى.

فالسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:

﴿تَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتَفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾.

وقال سبحانه:

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبِهِمْ﴾ (٥٨).

فأما الذي سمع: اسع تبرى، فمريد ذلك على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجهد فقيل له: اسع إلينا يصدق المعاملة نرى برتا بوجود المواصله.

وأما الثاني فكان سالكا إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقيل له: تروى على قلبه لما أحرقت نار الشفغ: الساعة ترى برى.

وأما الآخر، غمارف كشف له عن وسع الكرم فخطب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع برى.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه.

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية (٥٩)، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد، فغرف فيه رب المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا لوعاء يقول: منذ أكرمني الله بأكل هؤلاء السادة منى لا أوضى لنفسى أن أكون بعد ذلك محلاً للأذى، ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيى الدين: فقلت للجمع، سمعتم ما قال الوعاء؟

قالوا: نعم.

قلت: ما سمعتم؟

فأعادوا القول الذى تقدم.

قال: فقلت: قال قولاً غير ذلك.

قالوا: وما هو؟

قلت: قال: كذلك قلوبكم، قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه بجنة وكرمه.

(٥٨) البقرة: ٦٠.

(٥٩) أى لم تكن الأوعية كافية.

الباب السادس

فيما فسر من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية

قال رضى الله عنه في قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتماعاً على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله. ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

فقال الشيخ رضى الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أى ورجل قلبه معلق بالعرش، فإن العرش مسجد لقلب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه أى خالياً من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أى فأخفاها عن نفسه وهواه.

وكذلك قال في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا﴾^(٢) أى من النفس والهوى.

فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل في عباد الله فأرى المظلوم إلى ظل عدله فأواه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذى نشأ في عبادة الله فإنه أوى إلى الله معرضاً عن هواه وأويا إلى كنف مولاه فصنع الحق معه ذلك في الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله في الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه أثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فذلك صار قلبه متعلقاً بالمسجد لا يحس الرياح عنه؛ لأنه يجد فيه روح القرية وحلاوة الحسنة، فأوى إلى الله مؤثراً لروبيته، فأواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا في الله اجتماعاً على ذلك وتفرقا عليه، فإتياهما توأما يروح الله وتألما بحبة الله وكان ذلك منهما انجاشاً^(٣) إلى الله فأواهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

(٢) مريم: ٣.

(١) رواه مالك والترمذي وأحمد والشيخان والنسائي ومسلم.

(٣) أى: ميلاً وجرماً إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذى دعت امرأته ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخافة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما خاف من الله هرب إليه، ولما هرب إليه جهنم معاملة، أراه الله إليه في الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله. وأما الرجل الذى ذكر الله خاليا ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من لقروح، لى أحرقت قلبه إما حياة من الله أو شوقا إليه أو خوفا من ربوبيته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياسا إليه بالاعتذار، إليه أو بالشوق إليه فأوى إلى الله فأظله الله في ظله - يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد أثر على نفسه ببذل الدنيا إيثارا لحب الله على ما تحبه نفسه؛ لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من أثر الله عليها؛ وذلك قال رسول الله ﷺ: «والصدقة برهان»^(٤).

أى برهان يدل على أن العبد أثر مولا على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتشترك الأقسام السبعة في معنى واحد؛ فلذلك جوزوا جزاء واحدا. شترك في أن كلا من هؤلاء السبعة صلى حر مخالفة الهوى في الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة. وقد قال ﷺ حاكيا عن الله تعالى: «لا أجمع على عبيد خوفين ولا أمنين؛ إن أمنت في الدنيا أخفت في الآخرة وإن أخفت في الدنيا أمنت في الآخرة».

وقال رضى الله عنه في قوله ﷺ: «يسرّوا ولا تعسروا».

أى دلّوهم على الله ولا تدلّوهم على غيره، فإن من دلّ على الدنيا فقد غرّك، ومن دلّ على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلّ على الله فقد نصحك.

وقال في قوله ﷺ:

«رأيت الجنة فتناولت منها عقوقا لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»؛ فقال رضى الله عنه: الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء، والأولياء يطالعون مثلها؛ فلذلك قال الرسول ﷺ: «رأيت الجنة».

ولم يقل كأتى رأيت الجنة.

وقال حاولت لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا حقا.

فقال ﷺ: لكل حقٌ حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟

قال عَزَبْتُ^(٥) نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار يعذبون، وكأني أرى عرش ربي بارزاً، من أجل ذلك أسهرت ليل وأظمت نهارى.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

ثم قال ﷺ: «عبدَ نورَ الله قلبه^(٦) بنور الإيمان».

فقال حارثة: كأني أنظر ولم يقل رأيت؛ لأن ذلك للأنبياء دونه، وكذلك قول حنظلة الأسدى لرسول الله ﷺ: نذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا نراها رأى عين^(٧). ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه.

وفي حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبي ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنياً ولا صحيحاً ولا شيئاً من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية؛ لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجل من أن يسأل عن دنياه، بل فهم عنه أنه إنما سألَه كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابي:

أصبحت مؤمناً حقاً.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يغيرونك إلا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيها استشاره بسؤاله لجريان سببه منه. وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحج: كيف كان حجكم؟ فقال ذلك الرجل: كثير الرخاء كثير الماء. فسر كذا كذا وسر كذا كذا، فأعرض الشيخ عنه وقال: تسألونهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين؛ لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريـد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوة نور حارثة في قوله: أصبحت مؤمناً حقاً فلو لا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقيق بالسنن ما أخبر بذلك وأبداه أثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين

(٥) أى: عرفت وأعرضت كرامة.

(٦) رواه الترمذي بسند صحيح عن أسى، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك. وسنده ضعيف أيضاً وكل منها يقوى الآخر. والمضى في الجوى الإسلامى صحيح.

(٧) رواه مسلم وسأى به ابن عطاء الله بعد ذلك.

يدى صاحب المحو والإثبات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواغية رسول الله ﷺ واجبة، والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسمعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه بركات متابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بجنة الله فيشكر الله عنه ويسأله تثبيت ما أعطاه.

مثلى هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه، قال عمر! ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عدلت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة الثابتة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هي من حدث كان. وأن الحديث منهم، وأنه يرى منه، فهل هذا إلا من نور البصيرة الكاملة التي وهبها عمر رضى الله عنه. وكذلك ضربه لأبي هريرة رضى الله عنها في صدره حين وجد معه نعلي رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله أن يبشره بالجنة ورجوعها إلى رسول الله ﷺ. وهول عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقي من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خَلِّهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خَلِّهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان بمرافقتك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختلافه من نوره. وهذا الحديث. مروى في صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصراً (٨).

الفائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين: إيمان حقيقي وإيمان رسمي؛ فذلك أخير الصحابي بقوله: أصبحت مؤمناً حقاً، والحديث يشهد له أيضاً.

وروى البخارى يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

(٨) ونصه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا فأقبل علينا وخبثنا أن يقطع دوتنا، وفرغنا فنفسا، فكنت أول من فرغ، ففرغت أنفى رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطاً للأصهار لى التجار، فدرت به هل أجد له باباً، فلم أجد فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارسة والربيع المشبول -- فاحتضرت كما يحضر الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟ قلت: نعم يا رسول الله ﷺ، قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا فمقت فأقبلت علينا فخشيت أن يقطع دوتنا ففرغت، فكنت أول من فرغ، فأثبت هذا الحائط فاحتضرت كما يحضر الثعلب، ومولاه الناس ورائي، فقال: يا أبا هريرة، وأعطاني نعليه، قال: انذهب بمنلى هذين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله سئمتها بها قلبه فيبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان التللتان يا أبا هريرة فقلت: هاتان تملأ رسول الله ﷺ بهنق بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مسئمتها بها قلبه يبشره بالجنة، فحضر عمر بيده بين نديي، فخررت لإسقى، فقال: رجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاءً، وركبني عمر فإذا هو على أترى، فقال لي رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذى يعنى به، فحضر بين نديي ضربة خرب لإسقى، قال: ارجع فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر، ما حلك على ما فعلت؟ قال: يا رسول الله ﷺ، بأي أنت وأمي، أهدت أبا هريرة بمنليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستسفاً بها قلبه يبشره بالجنة؟ قال: نعم، قال: فلا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملوا. قال رسول الله ﷺ: فخلهم.

«ذائق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

وروى أيضاً: قال ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن توعد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خيراً له من أن يشرك بالله».

وقد جاء في الحديث أيضاً قال ﷺ:

«المؤمن القوى -نيرٌ- وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير»^(٩١).

وقد قال الله سبحانه:

﴿أولئك هم المؤمنون حَقًّا﴾^(٩٢).

وهما صنفان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان. وهذا الإيمان الثاني تارةً يسمى إيماناً، وتارةً يسمى يقيناً؛ لأنه إيمان انبسطت أنوارُه، وظهرت آثارُه، واستمكن في القلب عموده، ودوام السرَّ شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوى إيمان مؤمن يغلب الهوى، وإيمان مؤمن يغلب الهوى، ولا إيمان مؤمن تعرض له العوارض فيدافعها بإيمانه كإيمان مؤمن غُسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق في عَبدَيْن: أحدهما يردُّ عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلاً أيها أتم؟ والذي لا شك فيه فضيل هذا القسم الثاني فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة. والأول هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلا والنور قد ملأ زواياه فلا جل ذلك لم يجد خاطر الذنب مسأغاً.

الفائدة الخامسة: مطالبة رسول الله ﷺ بحجارة بإقامة البرهان على ما أتبعه لنفسه، فبدل ذلك أنه ليس كل من ادَّعى دعوى سلَّمت له. وقد قال الله سبحانه:

﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾^(٩٣).

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾^(٩٤).

فما وزن الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾^(٩٥).

فمن ادَّعى حالاً مع الله أقيم عليه ميزانها فإن شهد له سلَّمتها له وإلا فلا، وإذا كانت الدنيا

(٩١) رواه مسلم وقامه: احرم على ما ينقله واستمع بالله، ولا تعجز وإن أصابه شيء، فلا تقل لو أن فلتاً كافراً كان وكذا، ولكن قل: قد كفر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) الأنفال: ٦٤.

(٩٣) الأنفال: ٦٤.

(٩٤) الرحمن: ٩.

(٩٥) البقرة: ٩٤.

على حساسة قدرها عند الله لا تسلم لك إلا بيّنة تقيمها، فمن الأخرى أن لا تسلم لك مرافق الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

القائدة السابعة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: لو كان المسئول أباً بكر رضى الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادعى؛ لأن عظم رتبة أبى بكر رضى الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فمنهم من هو كحارثة لما ادعى حقيقة الإيمان طوّل برهانها، ومنهم من هو كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ثبت لما الرسول ﷺ الرب وإن لم يثبتها لأنفسها ألا ترى الحديث الوارد عن الرسول الله ﷺ: «أن بقرة فى بنى إسرائيل ركبها رجل وأجدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: «أمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر»^(١٤)، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفهمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبى العباس رضى الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «أمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أى من غير عجب، وأنتم أمنتهم متعجبين، لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت: ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^(١٥).

فقال الملائكة لها:

﴿وَأَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

أى أمر الله لا يتعجب منه، فلم يسمها الحق صديقة، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سماها الله صديقة فقال سبحانه:

﴿وَأِنَّهُ صِدِّيقٌ﴾^(١٦).

القائدة السابعة: استدلال الصحابي على حقيقة إيمانه بزهده فى الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد فى الدنيا؛ لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق ببقائه، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك قبورك ذلك الزهد فى الدنيا؛ ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف هتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد فى الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتها مزهوداً فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ فى الحسن الناذلى رضى الله عنه: والله لقد عظمها إذ زهدت فيها.

(١٤) رواه البخارى بسنده فى أحاديث الأنبياء.

(١٥) هود: ٢٢.

(١٦) حزم مآيه ٧٥ من سورة المائدة وقامها ﴿كَأَنَّا بَأْكُلَانِ الطَّامُ، انْظُرْ كَيْفَ بَيَّنَّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَتَى يُؤْمِنُونَ﴾.

ومثل هذا الزاهد فيها زهد فيه فناء الفاني عما فني عنه، فإثبات أنك فاني عن الشيء إثبات لذلك الشيء فاني لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا في هذا المعنى أبيات كتبتها لبعض الأصحاب يسمى حسناً:

حسنٌ بأن تدع الوجود بأسره	حسنٌ فلا يشغلك عنه شأغل
ولئن فهمت لتصلعن بأنسه	لا ترك إلا لذى هو حاصل
ومنى شهدت سواء فاعلم أنه	من وهيك الأدنى وقلبك ذاعل
حسب الإله شهوده لوجوده	والله يعلم ما يقول القاتل
ولقد أشرت إلى الصرح من الهدى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره	يقضى به الآن الليب العاقل ^(١٧)
لا غير إلا نسبة مشبوهة	ليئم ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابي رضى الله عنه: عزبت نفسي عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها.

العزوب هو ترك الشيء بالتعزُّز له والإعراض عنه؛ إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من اشترك عدم التطلع قرب تارك للشيء وهو له متطلع، فالعزوب إعراض مع كراهة وتحقُّر، ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا لهذا شأنه فيها. وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قنزة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال: اللحم واللبن.

قال: ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من بطن آدم مثلاً للدنيا^(١٨).

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشهد بها جيفة قنزة فحرى أن يصرف همه عنها.

فإن قلت: فقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»^(١٩).

فاعلم أن الدنيا جيفة قنزة في مرائي البصائر، وحلوة في مرائي الأبصار.

فمن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ أن الدنيا جيفة قنزة للتفكير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتحذير؛ أى فلا تفرنكم بعلاتها وخضرها فإن حلاوتها في التحقيق مرارة وخضرها ييس، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابي رضى الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأني أنظر إلى أهل الجنة في اجنة يشتمون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء بطالمون حقائق الأشياء

(١٧) المراد: الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن عمران بن حصين ونسبه. «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض».

(١٨) رواه أحمد والطبرانى وفيه: على بن زيد بن جهمان يثبث فيه ورءاه ابي حنبل.

(١٩) رواه الترمذى في الفتن والزهد وابن ماجه في الفتن، والداريمى في الرقاق، وأحمد في مسنده.

والأولياء يطالعون مثلها.

الفائدة العاشرة: قوله: فمن أجل ذلك أسهرت ليلي وأظلمات نهارى؛ فحارثة عبد وصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ألا تراء كيف قال في الآتى: عزبت نفسي عن الدين، ثم قال بعد ذلك: فمن أجل ذلك أسهرت ليلي وأظلمات نهارى. فسبق عزوب نفسه عن الدنيا معاملته لربه. وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه:

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (٢٠).

ونور الله يرد على القلب فيوجب له الاتصاف بصفة الزهد في الدنيا والإعراض عنها ثم ينبت منه إلى الجوارح، فها وصل منه إلى العين أوجب الاعتبار، وإلى الأذن أوجب حسن الاستماع، وإلى اللسان أورت الذكر، وإلى الأركان أورت الخدمة.

والدليل على أن الور يوجب عزوب الهمّة عن الدنيا والنأى عنها قول رسول الله ﷺ:

«إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْتَشَرَ وَانْفَسَحَ».

فمبيل: يا رسول الله فهل لذلك من علامة؟

قال: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود» (٢١).

وأما حديث حنظلة الأسدى فقد رواه مسلم في صحيحه، قال: لقي حنظلة أبا بكر رضى الله عنه فقال: ناقتي حنظلة.

فقال أبو بكر رضى الله عنه وما شأن حنظلة؟

قال: تكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأى عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات (٢٢) نسيتنا كثيراً.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: إننا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ثم أتانا رسول الله ﷺ فقال حنظلة: يا رسول الله ناقتي حنظلة.

فقال رسول الله ﷺ: وما شأن حنظلة؟

فقال: تكون عندك يا رسول الله فيذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأى عين فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات نسيتنا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده يا حنظلة لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة».

ففى هذا الحديث ثمانى فوائد:

(٢٠) الشورى: ١٢.

(٢١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير بنحوه، وعبد الرزاق.

(٢٢) أى اجتهدنا في شئون حياتنا ومع أُمليّا فغفلنا عنهم ولاعيانهم وعالمنا أمورهم.

الأولى: قول حنظلة: نافق حنظلة.

النافق: مأخوذ من نافقاء البرع (٢٣) وهو أن يجعل لبيته باين متى طُوب من أحدها خرج من الآخر، كذلك النافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا غابته أهل الكفر على ما أظهر ما الإيمان فتح مسرباً من باطن كفره ليسلم من عتبه، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصون من ذلك بظاهر الإيمان الذي أظهره؛ ولذلك أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا هَالُوا آمَنًا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٤).

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقاً لاختلاف حالته، فتكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليطالب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يهد الشفاء عنه، فلما شكاً ذلك لأبي بكر رضى الله عنه، قال له أبو بكر: إنا نلقى مثل ذلك يا حنظلة، ولم يجبه أبو بكر رضى الله عنه؛ لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يسفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال إن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فتحنظلة قيل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلاً، فلذلك قال حنظلة حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين، كما قال حارثة، وكأني أنظر إلى أهل الجنة ولم يدل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغي أن يقلل الدحول في أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابي يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيراً وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنْ قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا يُلْهِىَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ».

وقال ﷺ: «ما طمعت شمس إلا وبجنيبها ملكان يناديان: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنَّمَا أَقْبِلُ وَكُفِّي خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَهَلْهَى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ: «لو تدمون على ما تكونون عليه عندى وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العيد على تلك الحالة لا يوجب معتبة، لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالمسور.

(٢٣) البرع أو البرع أو الدرع أو ذو الرمح، حيوان صغير على هيئة الجرد الصغير وفي حجمه تقريباً

(٢٤) البقرة: ١٧٤.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، يقول: لم يقض رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون أعنى ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خص الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن لفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة في طرقهم وفرشهم فمن الأحرى أن تصافحهم في محل طاعتهم ومواطن أذكارتهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوى وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواها حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرتهم ﷺ وعزازه الذكر وجلالة منصبها.

وقال رضى الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر يقرأ ويخفى صوته، وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبي بكر: لم أخففت صوتك؟ فقال: قد أسعفت من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوطى الرستان وأطرد الشيطان. فقال لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقال لعمر: اخفض قليلاً.

قال الشيخ رضى الله عنه: أراد أن يخرج كلا منها عن إرادته لنفسه لمрад رسول الله ﷺ له. وقال رضى الله عنه: في قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»:

أى ولا أفنخر بالسيادة، وإنما أفنخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيراً ما ينشد:

يا عمرو تادى عبد زهراء . يعرفه السامع والرائى
لا تدعى إلا بعبادها فإنه أشرف أسمائى

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول:

المؤمن فى الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلا بإحدى ثلاث: بما بالحيلة، وإما بالفدية، وإما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجين لمؤمن» (٢٥)

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينه والإصغاء بأذنه متى بدعى فيجيب.

وقال رضى الله عنه: الأنبياء إلى أهمهم عطية ونبينا ﷺ هدية، وفرق بين العطية والهدية: لأن العطية للمحتاجين والهدية للنجوين، قال رسول الله ﷺ:

«إنما أنا رحمة مهداة» (٢٦).

وقال في قوله ﷺ: «السلطان ظلّ الله في الأرض» (٢٧): هذا إذا كان عادلاً، فأما إذا كان جائراً فهو ظلّ النفس والهوى.

وقال رضى الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد في شملته ديناران فقال ﷺ: «كَيْتَانِ مِنْ نَارٍ».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال في هذا؛ لأنهم لم يبتغوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر المغاغة، وكان عنده هذان الديناران، فلم أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كَيْتَانِ مِنْ نَارٍ».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (٢٨).

فقال رضى الله عنه: بأى طريق يحشر مع النبيين؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين، وبأى طريق يحشر مع الشهداء، وبأى طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء، فإن الأنبياء، شأهم أداء الأمانة، بذل النصيحة. فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدّى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين: لأن الصديق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن. قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف.

ويحشر مع الشهداء؛ فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين؛ فإن الصالح شأنه أخذ لحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف (٢٩).

(٢٦) ابن سعد والحكيم عن أبي صالح مرسلاً، والحاكم عن أبي هريرة وصححه.

(٢٧) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب.

(٢٨) رواه ابن ماجه والحاكم والترمذي.

(٢٩) الدنيا المقنومة في العرف الديني هي الشهوات بقول الله سبحانه:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُلُوفِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَمْوَالِ﴾ ثم قال سبحانه عن كل ذلك: ﴿ذَلِكَ حَتَاغُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾.

أما إذا استغفمت الدنيا من أجل الآخرة، فإني لا تصيب شهوات، إنما تصيب ممر يعبر به الإنسان - إلى رضا الله - إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فإذا ما صير الإنسان حياته تجارة وعبادة وغير ذلك وإذا ما صير حياته عبادةً نال به الصادقة في الانجاء إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التي أحبطها الله سبحانه وتعالى من الخلق، وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبي العباس الرسي رضى الله عنه.

البَابُ السَّابِعُ

في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق،
وحمله ذلك على أجل الطرائق

قال رضى الله عنه: قال سهل بن عبد الله:
لا تكونوا من أبناء الدهور ولا من أبناء العَدِّ والإحصاء، وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم
سعيد؟

ثم قال رضى الله عنه: يقول أحدهم: صليت كذا وكذا ركعة، صمت كذا وكذا شهراً، ختعت
كذا وكذا ختعة، حججت كذا وكذا حجة، فهؤلاء من أبناء العَدِّ والإحصاء فهم إلى عَدِّ سيئاتهم
أحوج منهم إلى عَدِّ حسناتهم.

وأما أبناء الدهور فيقول أحدهم: لى فى طريق الله سبعون سنة، لى فى طريق الله ستون سنة،
وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم سعيد يعنى: لاحظوا ما سبق فى علم الله ولا تتكلموا على ما لكم
من العلم والعمل، ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل.

وقال رضى الله عنه: قال بشر الحافى رضى الله عنه:

منذ أربعين سنة أشتهى الشواء فما صفا لى ثمته.

فقال الشيخ رضى الله عنه من ظن أن هذا الشيخ مكث أربعين سنة ما وجد درهماً حلالاً
يشترى به شواءً فقد أخطأ، من أين له فى الأربعين سنة ما يأكل وما يلبس، وإنما المعنى فى ذلك أن
هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون فى شيء ولا يخرجون من شيء،
إلا يأذن من الله وإشارة، فلو أذن له فى أكل الشواء لصفا له ثمته.

وقال رضى الله عنه: قوت القوم على أربعة أوجه: مباح، وحلال، وطيب، وصاف.

فالمباح ما كان مستوى الطرفين ما على آخذه عقاب ولا فى تركه ثواب.

والحلال هو ما لم يخطر لك بهال ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

والطيب هو ما أخذته اليد يورث الفناء إذ لا وصف له مع تولاه.

والصافى هو ما عاينته العبد من المنع، يعنى من عين قدرة الله سبحانه وتعالى.

وقال رضى الله عنه: قال الجنيد: أدركت سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله على ظنٍّ ووهمٍ حتى
أخى أبى يزيد لو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه.

فقال الشيخ معنى قوله: يعبدون الله على ظنٍّ ووهمٍ لا يريد بذلك ظناً فى المعرفة ووهماً فيها:

وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم! وإنما المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام؛ فقال الجند: لو أدرك صبيًا من صبياننا لأسلم على يديه، أى لبين له أن فوق ذلك المقام مقام وفوق ذلك مقام إلى مالا آخر له، ومعنى لأسلم على يديه أى لانتقاد له فالإسلام هو الانقياد.

وقال رضى الله عنه فى قول أبى يزيد: خضتُ بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام.

ومرده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أى فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا وهذا الذى فسر الشيخ به كلام أبى يزيد هو اللائق بمقام أبى يزيد وقد قدمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مملوء عسلاً ثم رشحت منه رشاحة فى باطن الزق للأنبياء وطك الرشاحة هى للأولياء.

والمنشور عن أبى يزيد التعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب حتى أنه حكى عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فتمدد فى المسجد ينتظره فخرج ذلك لرجل وتنخم فى حائط المسجد، فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال: هذا رجل غر مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يؤمن على أسرار الله وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها؛ أولئها لهم لما علمناه من استقامتهم وحسن طريقتهم. فقد قال عليه السلام: «ولا تظنن بكلمة برزت من امرئ مسلم سيئة» وأنت تجد لها فى الخير محملاً».

وقال رضى الله عنه: كان الحارث بن أسد المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه إصبعه، فسأل الشيخ سائل فقال: يا سيدى قد جاء أن الصديق قدم إليه لين فأكل منه فوجد كدرته فى قلبه.

فقال: من أين لكم هذا اللين؟

فقال له غلام: كنت تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطوني ثمن كهانتى.

فتقيأه أبو بكر رضى الله عنه ثم قال:

«وأنه لو لم يخرج إلا بضاربي لأخرجته»^(١).

فلم يكن على يد الصديق عرق يتحرك عليه إذا قدم له طعام فيه شبهة والصديق أول بكل مزية من سائر الأمة وقد رُزِن بالأمّة فرجحها.

فقال الشيخ رضى الله عنه: الصديق رضى الله عنه كالوكيل المفوض إليه، مظهر من البقايى فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بن أسد بقيت عليه البقايى فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل فى شيء بنفسه وهواه، وأبو بكر رضى الله عنه طهر من النفس والهوى فلا يحتاج إلى إشارة. واعلم أن من حسن اختيار الله لأبى بكر أن تناول من ذلك اللين حتى تكلف طرحه بعد شربه

فيشبه الله على ذلك، وأيضاً ليجعله قدوةً للعباد فيقتدى به من كُمل طعناً فيه شبهة ولم يعلم أن الأولى له قيته.

وليس لقاتل أن يقول: قد ضمنه بأكله وقد تناوله وهو غير آثم إذ هو غير عالم، فإن أبا بكر ما سأل عن اللين إلا حتى وجد له كسرة في قلبه، دل ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر في القلب كسرة أو قسوة وإن لم يعلم به تناوله وقت تناوله.

وهكذا هم أهل التخصص إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه فهو من حسن اختيار الله لهم حتى يفتح بهم لسبيل للعباد، كما كان من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهى عنها حتى يتوب من الفعل فيكون قدوةً للثانين، وحتى يتعرف إليه بحلمه فيعلم أنه أكرم الأكرمين، ويوقفه على وجود ستره ولطفه، فيعلم أنه اللطيف بعباده المؤمنين، وليكون أكل الشجرة سبباً في النزول، ولنزول سبباً في الخلافة؛ فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: أكرم بها معصية أورتت الخلافة.

وقال: والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلفه بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقد بسطنا القول في هذا الموضع في كتاب التنوير^(٢) فلا تبعد.

وقال رضى الله عنه: إنما بدأ القشيري في رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن آدم لأنهما كانا قد تقدم لهما زمن تغطية ثم أقبلا فأقبل الله عليهما فبدأ يذكرها بسطاً لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات وسبقت منهم المخالفات ثم رجعوا إلى استقراع أبواب العناية؛ إذ لو بدأ بالجند وسهل بن عبد الله التستري وعنه الغلام وأمثالهم ممن نشأ في طريق الله لبال العائل: ومن يترك هؤلاء، هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تتقدم منهم مخالفات.

وقال رضى الله عنه في الحكاية المشهورة عن سمون الحب أنه كان يشد:

وليس لي في سواك حظ فكيفها ما شئت فاشترى

فابتلى بعلّة الأسر وهو احتباس البو، فتجلّد يوماً فزاد الألم، فتجلّد الثاني فزاد الألم، فتجلّد ثالثاً ورابعاً فزاد الألم فهو في صبيحة اليوم الرابع وإذا بإنسان من أصحابه قد أتاه وقال: يا سيدي

(٢) قال ابن عطاء الله في كتابه التنوير:

فائدة جلية: اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عناداً ولا خلافاً، فَمَا أَنْ يَكُونَ: نسي الآخر، فغماط الأكره وهو له غير ذاك، وهو قول بعضهم، ويعمل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا عَصَاكُمْ إِيذًا مِنْكُمْ﴾. فلو لم يمتد له عزاء، أو إن كان تناوله ذاكراً للأمر فهو إنما تناوه لأنه قبل له:

﴿فَمَا تَهَاجَرُ رَبَّنَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْغَالِيينَ﴾.

فلم يمتد في الله وشقه به أحب ما يؤمره إلى الخلود في جوارده، والبقاء عنده، أو ما يؤذيه إلى الملكية؛ لأن آدم - عليه السلام - عابن قرب الملكية من الله فأحب أن يأكل من الشجرة؛ لينال رتبة الملكية التي هي أفضل، أو التي هي والله كذلك على خلاف فعله، اعلم وأهل المعرفة أينما أيها أفضل؛ الملكية أم النبوة؟ لا سيما وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَوَقَّاسِهَا إِلَىٰ لَكُمَا لَنْ تَامَحِيحَ﴾.

قال آدم عليه السلام، ما ظننت أن أحداً عطف بالله كاذباً، فكان كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ لَاحَقَا بِرُودٍ﴾. إلخ. - التنوير

سمعت البارحة صوتك عند دجلة وأنت تستغيث إلى الله ونسأله رفع ما نزل بك فجاءه ثمان وثلاث ورايع لم يكن هو سأل، فعلم أنها إشارة له من الله بالسؤال فصار يدور على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعكمم الكذاب.

فقال الشيخ رضى الله عنه: رحم الله سمنوناً عوض ما قال: «فكيفاً ما شئت فاخترنى». كان يقول: فكيفاً شئت فأعف عني فطلب العفو أولاً من طلب الاختيار.

وقال رضى الله عنه في الحكاية المشهورة التي ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته: قال الجنيدي: دخلت على السري فوجدته متغيراً فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيراً؟ قال: دخل على شاب أنفاً فقال لي: ما التوبة؟

فقلت له: أن لا تنسى ذنبك. فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك. فماذا يقول أنت يا أبا القاسم؟ قال: فقلت: القول عندي ما قال الشاب؛ لأنني إذا كنت في حال الجفاء ثم نقلتني إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاءً.

قال الشيخ رضى الله عنه: كلام السري أتم من كلاميها؛ لأن كلام السري يدل على مبادئ المقامات، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتى النهايات من البدايات.

والجنيدي لم يكن في ذلك الوقت بتمام أن يكون قدوة، وكذلك الشاب، فتكلمنا على أحوال أهل الارتقاء في نهاياتهم، فكلامها يخص حالها وكلام السري مهيئ (٣) مورد للسالكين هذا معنى كلام الشيخ رضى الله عنه.

وقال رضى الله عنه في قول بعضهم: لا يكون الصوفي صوفياً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة، ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والمملك الموكل يكتب السنوات لا يكتب السنين حتى ينتظر العبد لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين: امكث فحسى أن يتوب، إلى أن يبلغ عدداً إما السبع وإما العشر - الشك مني - فحينئذ يكتبها سنة، فلذلك جاء صاحب اليمين أميراً على صاحب الشمال.

السبب الثامن

في كلامه في الحقائق والمقامات وكشفه فيها عن الأمور المعضلات

قال رضى الله عنه: الشوق على قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلا بقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة.

فإذا دفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلة فذاك مقام التعريف إيماناً حقيقياً وذلك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محل المثارة وجهاد فذاك مقام التكليف المفيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقي، وذلك ميدان تجلي حقائق الأبدية.

والمحقق من لا يبالي بأى صفة يكون! لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار منزلة عن الوجودية للصدقية، والحقائق منجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبي جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخاطب الحكماء وجالس الكبراء فالعالم بذلك بالعلم من الأسياء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يحملك باليقين والحقائق من الصفات ونهايته منازل القرية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتهوا إليه الوسيلة﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة في الكبير فجعل قوما بالعلم وقوما بالحقائق وقوما بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾.

أى على معاينة، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهى النباية، وأما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لمظيم قربه.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وغشني لى منى قلبي فغشيت كما غشني
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وقال رضى الله عنه:

أوقات العيد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية والطاعة والمعصية.

وقته عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسيبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فسيبيله الاستغفار والتوبة.

ومن كان وقته النعمة فسيبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البلية فسيبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضى النفس عن الشهوات،

والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهم، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهم القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ:

«من أعطى فشكره، وأبطل فصبره، وظلم قفراً وظلم غاستغفر».

ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟

قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»^(٤).

أى لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا

بطاعة الله إلى كرامة الله؛ قال الله سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٥).

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فصار يطوى

مهامه^(٦) نفسه ويبتدأ^(٧) طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصديق على هذا قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٨).

ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٩).

فالأول حال السالكين.

والثاني حال المجذوبين.

فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصله.

(٤) رواه ابن مردويه.

(٥) الشورى: ١٣.

(٦) مهامه جمع مهمه وهو القفلة لا مام بها ولا أنسى.

(٧) البداهة، الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبتدئ من يخلها.

(٨) الصافات: ٦٩.

(٩) آل عمران: ٧٤.

ومن كان مبنوه المراسلة رد إلى وجود المعاملة.

ولا نظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوبتها عنابة الله له، فسلكه مسرعاً إلى الله عجلًا.

وكثيراً ما تسمع عند مراجعات المتبسين للطريق أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طويت الطريق له، ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعها وطول أمدها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضى الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

وقال رضى الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإنه عند الله.

فإن قلت: ما معنى الغربة في كلام الشيخ هنا وما معناها في الحديث الوارد: «بدأ الدين غرباً وسعود غرباً كما بدأ فطوى للغرباء»؟^(١٠)

فاعلم أن الغربة المذكورة في الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غرباً لفقدان المساعد وعدم المعاضد، فلا ينهض القائم حينئذ إلا قوة إيمانه، ووفور إيمانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غرباً وسعود غرباً كما بدأ فطوى للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله في بلاد وعباده حيث تقاعدت هم الناس عن القيام به.

وأما الغربة في كلام الشيخ رضى الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعش روحه فيكون غرباً في الدنيا إذ ليست وطناً لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيها عاين من ثوابها ونوالها، وفيها شاهد من عقوبتها ونكالها، فاستغرب في هذه الدار.

وأما العارف فإنه غريب في الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيها هناك فصار غرباً في الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوقي أو أرض المحظوظ فيالأذن والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى المحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوقي بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كله بأداب الله وآداب رسله وأنبياؤه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين.

وقال رضى الله عنه:

(١٠) رواه مسلم وابن ماجه ولترمذى والطبرانى بنحوه.

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعتهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلق الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقاً على نفوسهم من عقوبة الله. وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلق منه فعملوا على صيانتها ليقدموا عليها بما لم تدنس ولم تتغير طاهرة نقية، مشرفة بية؛ وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وَيُثَابِقُ فَطْهَرُ﴾^(١١١).

فطهروا ملايس إيمانهم وإيقاعهم من دنس غفلتهم وعصبيتهم. وفهموا أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسًا لَتُنْفَىٰ بِهِ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(١١٢). فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملايس المتن خشية أن تدنس بأوساخها كي يقدموا عليه بخلعه التي أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالرفاء فيها اقتضى منهم، وبالأمانة والصيانة فيما استأنمهم. وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابس	فقلت خلعه. ساق حبه جرعاً
فقر وصبر هـا ثوباي تحتها	قلب يرى ألفة الأعباد والجما
العيد لي مأتى إن غبت يا أمل	والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا
أحرى الملايس أن تلقى الحبيب بها	يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

وقال رضى الله عنه:

العامة إذا خوفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا.

والخاصة مق خوفوا رجوا، ومق رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر، فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا؛ عالين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن ينفذ من رحمته، ولا أن يئس من منته، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علما منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئة التي هي من وراء رجائهم. وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم، هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته؛ فلذلك

(١١١) اللطيف: ٤.

(١١٢) الأعراف: ٣٦.

استار الرجاء خوفهم، وحكمهم في القبض والبسط كما قال الشيخ في الخوف والرجاء غير أن البسط مزلة إقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لمجتهم.

قال بعضهم: فتح لي باب من البسط فانبسطت، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة. وكان الشيخ رضى الله عنه ينشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلاً (١٧٢) فسيذا ما تلت منه وصولاً
فأفزع الباب قليلاً قليلاً.

غيره:

واحذر البسط ونادى بالحبيب من على بعد تُسَادَى من قريب
فقوله: واحذر البسط لما قلناه، فإن من رزق من الأنوار البسط فإنه يخشى على العيد أن يبيعه
وجوده، قال الله سبحانه:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (١٧٣).

والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العيد، إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق بمحطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإيهام الحاقمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى (١٧٤) وأخبرني بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوراً، فقال له: يا أستاذ مالك مقبوراً؟ فقال له: يا بني القبض والبسط مقامات من لم يوقها في الدنيا وثق بها في الآخرة. وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط.

وقوله: ونادى بالحبيب من على بعد، أي من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعاك لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: ما طلبت من الله حاجة إلا وقفت إسماعق أمامي. فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فأنجعت عليهم صخرة فسدت باب الغار فقالوا:

(١٧٣) من زمل يزل: عدا وأسرع معتمداً في أحد. شأنه وأفعاله جنيته الآخر.

(١٧٤) الشورى: ٢٧.

(١٧٥) قال القرطبي في «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط.

وهما حالان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض لعارف بمنزلة الخوف للمستأنف والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء، أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل: إما أن يخاف فوت محبوب، أو هجوم مضور - وكذلك الرجاء، إما أن يكون بتأميل محبوب في المستقبل، أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكره في المستقبل، وأما القبض: فلهي حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالته بأجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بواره غلب عليه في عاجله.

ثم قال: وقد عد فعل التحقيق حالة القبض والبسط من جملة ما استعانوا به، لأنها بالإضاعة إلى ما فوقها من استهلاك العبد وانسراحه في الحقيقة: ففر وضرا.

ليذكر كل واحد منكم أوجب عمل عمله لله، فذكر أحدهم برّه بوالديه، والآخر عفاقه عن ابنة عمه مع حبّه إياها والتسكن منها، وذكر الآخر تشميره لأجرة أجبر استأجره فلما وجده دفع ذلك كلّه إليه. فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن قم الغار فخرجوا. هذا معنى الحديث مختصراً رواه مسلم في صحيحه (١٦٦)؛

فاعلم أن هؤلاء الثلاثة لم يذكرُوا طاعاتهم إلّا وقد شهدوها فضلاً من الله عليهم فتوسّلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياء.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

فتوسّل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام آوّل ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام. فقال: أهلاً بمن توسّل لإحساننا بإحساننا وأعطاها وأجرّل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإختيار بطاعته ووجود معاملته؛ لأنّه حينئذ متحدّث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف فيقول: صليت البارحة كذا ركعة، تلوث البارحة كذا كذا سورة، فيقال له؛ أما تخشى من الرياء؟ فيقول: وبحكم وهل رأيتم من يرأى بفعل غيره؟ وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا نِعْمَةٌ رَبِّكَ فَعُدَّتْ﴾ (١٦٧). وأنتم تقولون: "لا نتحدّث.

وقال رضى الله عنه: كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيبقى بعد أن كان، ومنّ كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق؛ لأن الوجود المطلق إنّما هو الله، وله الأحديّة فيه، وإنّما للعوالم الوجود من حيث ما أُنشئت لها.

وأعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الصوفى من يرى الخلق في طي سرّه كالهباء في الهواء لا موجودين ولا معدومين حسباً هم في علم رب العالمين.

وقال أيضاً رضى الله عنه - وقد تقدم - وإنّا لا نرى أحداً من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولايد فكاهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

وفي كتاب الحكم (١٦٨) من كلامنا: العوالم ثابتة بإثباته محمّوة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله اه: كان لى صاحب كثيراً ما يأتيه بالتوحيد فقلت له: إن

(١٦٦) ورواه البخارى فى صحيحه.

(١٦٧) الضحى: ١١.

(١٦٨) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندرى وهو - كما يدل سياق العبارة - أسبق في التأليف من «لطائف المثنى» الذى هو موضوع التحقيق.

أردت التي لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجوداً، والجمع في باطنك مشهوداً. وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظلم، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبت ظلية الآثار لم تتسخ أحدية المؤثر؛ إذ الشيء إنما يشفع بتمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار، ومن هنها يتبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً منك وبين الله، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه، وذلك كرجل بات في مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البروز، فلما أصبح لم يجد هناك أسداً وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد.

وسمعه يقول: لو عذب الله المخلوق أجمع لم ينلك من عذابهم من شيء، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من نعمهم شيء، فكأنك في الوجود وحدك ثم أسد.

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصغ إلى يلج لك البرهان
وسمعه يقول: دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسه أن أكل الخشن وألبس الخشن.
فقال لي الشيخ: يا أبا العباس أعرف الله وكن كيف شئت.

ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر فما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه، وقال:
ياسيدي ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك.

فأمسك الشيخ بملبسه فوجد فيه خشونة فقال:

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولباسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطوني.

وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضي الله عنهما وطريقة أصحابها الإعراض عن ليس زئى ينادى على سرّ اللباس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء، ومن ليس زئى فقد ادعى.

ولا تفهم رحمة الله أن نعيب بهذا القول على من ليس زئى الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس لفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذ كانا من المحسنين.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (١٦).

وأما لبس اللباس الذي وأكل الطعام الشهى وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذي يوجب

العقب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يابى برد الماء فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكرة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجواب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبُّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتُ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٍ﴾ (٢٠).

ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من لئمة؟

وسمعه يقول: اختلف الناس في اشتقاق الصوفي: فمنهم من قال: إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل: هو منسوب إلى الصفة، يعنى صفة مسجد رسول الله ﷺ التي ينسب إليها أهل الصفة وهو نسب على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه: إنه منسوب لفعل الله به، أى صافاه الله فصوفي؛ فسعى صرفياً، ثم أنشد رضى الله عنه:

تخالق الناس في الصوفي واختلفوا وكلهم قال قولاً غير معروف
ولست أمتح هذا الاسم غير فنى صافى فصوفى حتى سعى الصوفي
وسمعه يقول: الصوفى مركب من حروف أربعة: الصاد والواو والقاف والياء.
فالصاد صبره وصدقه وصفائه.

والواو وجده وودّه ورقاهه.

والقاف فقهه وفقره وفناؤه.

والياء ياء النسبة.

إذا تكمل فيه ذلك ضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضى الله عنه عن قول عيسى عليه السلام: يا بنى إسرائيل بحق أقول لكم: لا يسج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضى الله عنه: أنا والله بمن ولد مرتين، الإيلاد الأول: إيلاد الطبيعة، وإيلاد الثانى: إيلاد الروح فى سماء المعارف.

وسمعه رضى الله عنه يقول: لمن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لمن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه: لمن يصل لولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى

الله، أى انقطاع أدب لا انقطاع ملل، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيلقى القياد إليه ويترك نفسه سلباً بين يديه فلا يختار مع مولاة شيئاً لعله بما في الاختيار مع الله من الآفات، ولنا في هذا المعنى من قصيدة ذكرناها في كتاب التنوير.

وكن عبده وألق القياد لحكمه وإياك تدييراً فما هو نافع
أتحكم تدييراً وغيرك حاكم أنت لأحكام الإله تتنازع
فمحقو إرادات وكل مشبهة هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع
كذلك سار الأولون فأدركوا على إثرهم فليمش من هو تابع

وقال رضى الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا الآدمي وقسمه على ثلاثة أجزاء:
فلسانه جزء.

وجوارحه جزء.

وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظاً فقال سبحانه وتعالى:

﴿مَا يَلْفُظْ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٢١).

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (٢٢).

وتولى حفظ القلب بنفسه فقال عز وجل:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (٢٣).

وسلّط على الجوارح الشيطان.

واقترض من كل جزء وفاء ما ألزم به.

فوفاء القلب أن لا يشتغل بهم دنيا ولا بآخر ولا حسد.

(٢١) في: ١٨.

(٢٢) يونس: ٦١.

(٢٣) البقرة: ٢٢٥.

المراد بالتدبير النفس عنه - هو اعتقاد الإنسان أن له دخلاً في النتيجة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول، ﴿هو عاصم الأمور﴾ والإنسان أموس يحكم الأمر إحصائياً تماماً كي كان يفعل رسول الله ﷺ في جميع أموره، في الدعوة وفي الغزوات، وفي العمل على الانتصار والفوز. (إن صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحصائياً تماماً، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للحظ ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحانه وتعالى ويحرص بها، ثم يطلق منها مباشرة، - فوزاً كانت أو خسارة - إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها، يبدأ صلوات الله وسلامه عليه في إحصائه وفي تصفيف أوضاعه بحسب الحكمة الحقيقية ثم ترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأتممة الصوفية جميعاً، ومنهم أبو الحسن الشاذلي وأبو الميسر المرسى وابن عماد الله السكندري - رضى الله عنهم جميعاً - وحرصهم عن الخير أحسن الجزاء - يسرون على هذا السبب لأنهم يخشون رسول الله ﷺ أسوة - حسنة استجابة لقوله تعالى،

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ووفاء اللسان أن لا يضارب ولا يكذب ولا يتحدث فيها لا يعنيه.
ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذى أحداً من المسلمين.
فمن وقع من قلبه فهو منافق،
ومن وقع من لسانه فهو كافر،
ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضى الله عنه: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا،
فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.
وقال رضى الله عنه: قال في شيء: لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال: الجود من
لقله، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضى الله عنه: من اشترى زبناً من يباع فلما فرغ قال له زدنى فزاده خيطاً فدينه أرق من
ذلك الخيط، ومن اشترى فلماً فلما فرغ قال له زدنى فزاده فحمة فقلبه أسود من تلك الفحمة.
وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم فهم في الجنة قطعاً،
وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا يدخلون النار قطعاً، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم فلا يدخلون
في النار قطعاً.

وقال رضى الله عنه: الدخول في الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنية، والدرجات فيها بالأعمال،
والدخول في النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضى الله عنه: لا ندخل على الله إلا من بابين؛ إما من باب القناء الأكبر وهو الموت
الطبيعي، وإما من باب القناء الذي تعنيه هذه الطائفة.

وقال رضى الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف،
وسر غريب.

فالجسم الكثيف بمجرد جهاد.

والجسم اللطيف بمجرد جان.

والروح الشفاف بمجرد ملك.

والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالآدمي بظاهر صورته جهاد، وبوجود نفسه وتقبلها وتشكّلها جان، وبوجود روحه ملك، وأعطى
زائداً على ذلك السر الغريب؛ فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضى الله عنه: ليس العجب ممن تاه في نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب ممن تاه في
مقدار شهر الستين والسبعين سنة، وهى البطن.

وقال رضى الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.

فالأولياء لم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات
الأولياء.

وقال رضى الله عنه في قول بعض السلف: لو كشف الغطاء ما زدنا يقيناً: أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزد يقيناً فيها طالعه القلب.

وقال رضى الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفاً ذهب دلالة على الله كالعليم والقادر والرحيم وغير ذلك من أسمائه المحسنى إلا اسمه «الله» فإنك إذا أسقطت لألف بقى الله، فإذا سقطت اللام الأولى بقى له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقى هو وهو النهاية في الإشارة، وأشد ابن منصور الحلاج:

أحرف أربع بها هام قلبي وتلاشت بها همومي وفكري
ألف ألف الخلائق بالصنوع ثم على اللامة تجرى
ثم لأم زيادة في العالى ثم هاء أهيم أتدري

وقال رضى الله عنه: كشف لى عن أرواح الصديقين صاعدة نحو المأ الأعلى فإذا قائل يقول لى: يا على:

وما جئت خيلى ولكن تذكرت مرابطها من بر يعص وميصرا
أى أنها ما قرّت جيناً من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التحرف.

وقال رضى الله عنه: الوعى إلقاء معنى في خفاء.

وقال رضى الله عنه: جميع أسماء الله للخلق إلا اسمه الله فإنه للعالى.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أنك إذا ناديت يا حلیم خاطبك من سمه الحلیم أما الحلیم فكن عبداً حلیماً، وإذا ناديت باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبداً كريماً، وكذلك سائر أسمائه إلا اسمه «الله» فإنه للعالى فحسب؛ مضمونه الأولوية، والألوهية لا يتخلق بها أصلاً.

وقال رضى الله عنه: السماء عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الوجد عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضى الله عنه: نحن في الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وستكون في الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعه يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه: المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصرّ عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضى الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصوداً لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان.

وجاءه رجل فقال له: يا سيدي، هذا حق.

فقال له الشيخ: أنت حق؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدري ما الفتوة؟ ليست الفتوة الماء والملح، وإنما الفتوة الإيمان والهداية: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٤).

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢٥). فسُمي فتًى لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى.

الخليل عليه السلام وجد أصناماً حية فكسرها، وأنت لك أصنام معتوية فإن كسرتها كنت فتى، ولك أصنام خمسة: لنفس، والهوى، والشيطان، والشهوة، والدنيا، فإن كسرتها فأنت الفتى، وانهم ههنا لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على.

وسئل رضى الله عنه فقيل له: يا سيدي لم بدأ صاحب الرسالة بإبراهيم بن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدماً عليه في التاريخ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك، فجاء وقت الظهور وهو من كبار الأولياء، هبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

وقال رضى الله عنه:

عبدٌ هو في الحال بالحال.

وعبدٌ هو في الحال بالمحول.

فالذى هو في الحال بالحال هو عبد الحال.

والذى هو في الحال بالمحول عبد المحول.

وأما من هو في الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدها ويفرح بها إذا وجدها.

والذى هو في الحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم يملكه فيصير الحال تحت قهر تصرفه،

وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه في العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه وزن، والحال إنما هو فرع من فروع العلم، والعلم قارٌّ ثابت، والحال لا يثابته، لذلك قالوا:

لو لم تحل ما سميت حالاً وكل ما حال فقد زال

انظر إلى الظل إذا ما انتهى بأخذ في النقص إذا طالا

والأكابر ملكهم الله أحوالهم، وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجني: ما لنا نرى

المشايع يتحركون في السماع وأنت لا تتحرك؟ فقال رضى الله عنه:

﴿ووترى الجبال تحسبها جامدة وهي مر السحاب﴾ (٢٦).

وقيل لبعضهم: مالك لا تتحرك في السماع؟ فقال: إنه إذا كان في الجمع كبير احتشمت منه

فأمسكت على وجودي، فإذا خلوت وحدي أرسلت على وجودي فتواجدت.

فانظر كيف كان زمام حاله معه يسكها إذ شاء، ويطلقها إذا شاء انسح القلب بعرفة لله غرقت

فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن وسعها، والمعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق في وسع معرفته، وهل رأيت بحرًا قاض يطر سحاب؛ ولهذا جهلت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتمها ولضعفهم عن وسعها، فربما كان صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكما تمكن الرجل في العلوم الإلهية والمعارف الربانية استغرب في هذا العالم، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصغى.

وقال رضى الله عنه؛ كل سوء أدب يشمر لك أدبًا فهو أدب.

وقال رضى الله عنه: المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات أنراه يرضى بالشر؟

وقال رضى الله عنه: كان الجنيد قطبًا في العلم وكان سهل بن عبد الله تسترى قطبًا في المقام وكان أبو يزيد البسطامي قطبًا في الحال.

وقال رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان في الدائرة النفسانية تلتقه النفس بالبشاشة والفرح، وإن كان في الدائرة المعنوية تلتقه الروح بالمحبة والمقفة (٢٧)، فيقع الميل ويكون عن ميل السكون، ويقع مع السكون الأنى بالسكون إليه، وانه لا يجب لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشيء دونه؛ فلذلك قال الشيخ رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أى السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار.

فقال له الرجل: أما شكواى من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى نعم العيد برح لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسفار ومن عرفنى لا يسكن لغيرى.

وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتنى أنها سمعت قائلاً يقول لها: أعوذ بك من التور وفنتته، ومن الغيب وتلفته.

وأخبرتني أيضًا قالت: كنت أمشى بالإسكندرية وإذا بناس في لهموم وطربهم فقلت في نفسى: هؤلاء في فرح ومسرّة وحلم الله من ورائهم ونحن في ملاقة التوازل وقهر الأحكام.

قالت: فإذا قائل يقول لى: ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

وأخبرتني أيضاً قالت: إذا كنت في حضرة أو موقف وأرادني زوجي ليقضى إربه مني لا أسمع ولا يستطيع ذلك كلما أراد مني أمراً عجز عنه. قالت: حتى يضيق خلقه ويقول: ما هذه إلا حسرة هذه الشاية في حسنها بين يدي ولا تنتع مني ولا أصل إليها. فأقول له في ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة!

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه مني ما يريد.

وقال الواسطي: استحلأ الطاعات سموم قاتلة وصديق رضى الله عنه.

وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلالة الطاعة تصير قائماً فيها متطلباً لحلاوتها فيفوتك صديق الإخلاص في نهوضك لها وتعجب دوامها لا قياماً بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الخلاوة والمتعة فتكون في الظاهر قائماً لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلالة الطاعة جزءاً تمجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزءاً لك.

وقال رضى الله عنه: لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمي فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الخير، فقال الشيخ رضى الله عنه عن الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه: ولا حسرة عند لمحققين فيها فيه الخير عند المؤمنين.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو يشهد ما منه إلى الله، وعبد هو يشهد ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: إن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالقه الأشجان فيستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله. قال الله سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢٨).

فالأول: حال العباد والزهاد.

والثاني: حال أهل العناية والوداد.

الأول: شأن أهل التكليف.

والثاني: شأن أهل التعريف.

الأول: حال أهل اليقظة.

والثاني: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه في إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

قال أيضًا: قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثير العمل مع روية التقصير من النفس.
قال بعض أهل المعرفة: لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير.
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالي: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى أن انتهت إلى قوله: ﴿ومن شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

فقبل لى: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسبك ألطافه الحسنه، ويذكرك أفعاله السيئه، ويقتل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد ولذلك قل أن تجد الزاهد والعايد إلا مكموذا حزنا لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشقت السموات والأرض والجبال من حمله.

قال الله سبحانه: ﴿إنا عرشنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ (٢٩).

فعاين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأنقال عن عباده المتوكلين عليه؛ فذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكليف أمرا عظيما وعلما ضعيفا عن حمله وعن القيام به متى وكلا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ (٣٠) وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٣١) فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفات المنة تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأنقال التكليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركمهم بطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لم فطأت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم لثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله: هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى مبادئ التفريد.

فأما أهل القسم الأول وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره؛ لأنهم أنبلوا على نفوسهم موبخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت؛ فذلك قال العارف الذى سبق قوله: لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

فإن قلت: إذ كان توبيخ النفس وذمها يستلزم دققة الشرك فكيف نصنع واثقه قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟

فالجواب: أن ذمها لازم لأن الله أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلاً تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني هو الذي يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيراً من القسم الأول لكنه ما سلم من إتيات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولا إتياته لنفسه ما شهد ذلك؛ فلأجل هذين المعنيين أثر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا يشهدون ما من الله إلى الله فاقههم. وقال رضى الله عنه: العارف إذا خوّف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ (٣٢).

يريد الشيخ رضى الله عنه: أن العارف لا يتعلمه فضل الله عن شهود عدله، ولا يحجبه شهود لطفه عن خوف ما يطن في مشيئته.

ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة في نهايتهم ربحا النفس حالهم بأهل البدايات في بداياتهم. فإن المريد في مبدأ إرادته تؤثر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه، فإذا تحقق غناؤه لم تؤثر فيه الوردات ولم يدخل تحت حكم العادات، فإذا ردّ إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحالة في بدايته.

﴿منها خلقتاكم وفيها نعيدكم﴾ (٣٣).

فتجد المريد يخوف فيخاف والعارف يخوف فيخاف وليس وإن استويا في الظاهر بسواء.

فتخوف المريد لأجل جيبته، وتخوف العارف لكمال معرفته.

ومن هنا لا تفضل عبداً واثقاً بلطفه ومثته على خائف من غيب مشيئته.

وكذلك لا تفضل عبداً وقف مع ظاهر الوعد على عبث ردّ إلى وجود الأزلية فاقطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والتعظيم وردّ إلى ما سبق في القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر - وقد وقع يديه إلى السماء:

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا نعيد، وما زال يناشد ربه حتى سقط الرعد عن منكبيه فقال أبو بكر رضى الله عنه: يكفيك بعض مناشدته الربك يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك (٣٤).

فالرسول ﷺ لكمال علمه بآفة كان يشهود المشيئة، وأبو بكر رضى الله عنه كان يشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيفه والوعد إنما وصل أبى بكر على يد رسول الله ﷺ.

غير أنه سلك الله به المسلك الأتم من الرجوع إلى مشيئته التي لا تتوقف على شيء وتتوقف عليها كل شيء.

وقال رضى الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله. وقال رضى الله عنه عن شيخه: من لم يتغفل في هذه العلوم مات مصرا على الكيثر وهو لا يعلم.

وسمعه يقول عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: كل شيء هناك الله عنه فهو شجرة آدم إنه أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النوى تنزل لماذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضى الله عنه: كان ببلاد المغرب ولى من الأولياء يتكلم على الناس وكان بادئاً فيجلس يوماً يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيرة: هذا رجل يزهدنا في الدنيا وهو كالدب فكشفت به الشيخ فقال من فوق المنبر: يا أبا رويس ما سمعنى إلا حبه. ثم أُنشد:

وقائل لست بالمحب ولو كنت محبا لذبت منذ زمن
أجسسته والفؤاد في حرق لم تذل الحب كيف تعرفنى
أحب قلبى وما دوى بدنى ولو دوى ما أقام فى السن

وقال رضى الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فأقى إليه وأصحابه معه فلما أكننا وعزمنا على الخروج ولم نشرب، فقال الشيخ: يا بخلاء من بخل الصوفى أن يأكل ولا يشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى مؤمناً شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعق سبعة من ولد إسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم. وقال رضى الله عنه: دخت يوماً على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت فى نفسى: كان النبى ﷺ يقبل الهدية، وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذ. فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبى ﷺ يقبل الهدية (٣٥)، وقال ما أتاك من غير مسألة (٣٦). فخذ. النبى ﷺ قال الله فى حقه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُتِرْتُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ (٣٧).

متى أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتدياً به فى الأخذ فكن مقتدياً به كيف يأخذ. كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليثبت من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدسست هكذا فاقبل وإلا فلا.

وقال لبعض أصحابه: لم تنقطع عني؟ قال: يا سيدي استغثت بك.

فقال الشيخ رضي الله عنه: ما استغنى أحد بأحد، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يوماً واحداً.

وقال رضي الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرسلها بأجيال فقال عز وجل: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ (٣٨) كذلك لما خلق الله النفس اضطربت فأرسلها بأجيال العقل، فأبى عيد توخر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووثقت بولي الأسباب فكانت مطمئنة أي ساكنة لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدة عن التدبير والمنازعة للقدابر، اطمأنت لمولاهما تعلمها أنه يراها.

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجُصِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّاتٍ﴾ (٣٩).

وقال رضي الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن في الليل الحمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضي الله عنه: يقول الله عز وجل:

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقك من أجلي. فلا تشتغل بما هو لك عن أنت له.

وقال رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة.

وسمعه يقول: حقيقة النية عدم غير المتوى.

وسمعه يقول: قال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء فمن ينزل به، ولا في الأرض فمن يصعد به، تدبوا بأداب الروحانيين، وتخلقوا بأخلاق النبيين أنيع لكم العلم من قلوبكم ما يغمركم ويغطيكم.

وقال رضي الله عنه: نحن إذا أننا نريد له شيء من الدنيا لا نقول له أخرج عن دنياك ومال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غدا تهب ريح شديدة لا ننجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن. فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبت العواصف كان الكيس من يرمى ساعه بنفسه. كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكي عن الشيخ عبد الرزاق - الولي الكبير رضي الله عنه - أن رجلاً من أهل المهديّة أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال: يا سيدي كنت من أكابر المهديّة وأعياينها وأكثر أهلها مالاً وعزاً، فورد علينا رجل يدعى أنه من الدالين على الله فجنبت إليه

وأنا متطلع بحرق على الوصول إلى الله فقال لي: إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلق نسائك بناتاً، وحتى تغير زيك. ففعلت ذلك فما ازداد قلبي إلا قسوة، فضاقت صدري وحررت في أمري ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاء ولم أتعوض عن ذلك بشيء في باطني فجيئت إلى هنا قاصداً للحج.

فقال الشيخ عبد الرزاق دعوى على غير بصيرة فأنلهم الله، أمكت عندنا، فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحج ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فخذ أفضلها ملبساً وأحسنها مركباً وادخل إلى المهديّة فلما حمل إليك من الدنيا فاقبله، وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه، وتجد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فتراجعهن، وتنال من العز والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه، فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينك قلبك.

قال: فسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهديّة فسمع الناس أن فلاناً أتى من المشرق وليس في لبلدة إلا من له عليه يد ومعروف، فخرجوا يرفعون إليه بالملابس السيئة والمراكب البهية، غلبس أحسنها ملبساً وركب أفضلها مركباً، ودخل المهديّة فأهديت له الهدايا وحملت إليه التحف والأموال، ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهن فراجعهن، فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ في ذلك اليوم ثم فتح الله عينه قلبه.

وتكلم يوماً في فضائل أبي بكر رضي الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ: ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره. ثم قال:

ما هو هذا الشيء الذي وقر في صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصديق في الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصي من المعصية، وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَوْا﴾.

وقال رضي الله عنه يوصي بعض أصحابه لما عزم على الحج:

إذا وصلت إلى البيت فلا يكوننْ ههنا البيت وليكن ههنا رب البيت، ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال: من عرف الله لم يسكن إلى الله، لأن في السكن إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: قيل لي لا تأمنن مكرى في شيء وإن أمنتك: فإن علمي لا يحيط به محيط. وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الولي في فئانه لأبد أن يبقى معه لطيفة علمية عليها يرتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له. وكان يقول: «وأنه ما جلست حتى جعلت الطيران في الهواء والمشي على الماء وطي الأرض تحت سجادتي».

وقال رضى الله عنه وقد قرأت عليه «الرعاية» للمحاسبي: كل ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك بشيء.

ثم لم يأذن في قراءته بعد.

وسئل عن بعض لمشايخ الكاتنين في وقته فقال: ضيق الله عليه بالورع، ونحن وسع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول في قول بعض أهل الطريق:

العارف وسعته المعرفة، والورع ضيق عليه الورع.

لأنهم أن قولهم: العارف وسعته المعرفة، أنه يأكل حراماً أو ما فيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غطى عن الورع فيمد يده إلى ذلك الطعام لعله يحل وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه؛ فذلك ربما مد العارف يده إلى ما قبض المورع يده عنه.

وكان رضى الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.

وكان رضى الله عنه يفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله محمد الترمذي الحكيم، ويقول:

الشكر صفة أهل الجنة والصبر ليس كذلك.

وسمعه يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له. القبض الذي له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذي لا سبب له لا يكون إلا لأهل التخصص.

وكان رضى الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود سعة الرب.

يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال: كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.

وقال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقاً يوصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها. ألا تراه كيف قال:

«ثم لا أكثيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالكهم ولا نجد أكثرهم شاكرين» (١٠).

ولم يقل ولا نجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية لاجئين رحمه الله قلت له: يجب عليكم الشكر لله، فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرح قلوب الرعية بكم، والرشاء أمر لا تستطيع الملوك تكسيه ولا اسجلاه كما يتكسبون اعدل والجلود والعطاء.

فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، فشكر اللسان التحدث بنعم الله، قال الله سبحانه:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٤١).

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله قال الله سبحانه:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (١٦).

ومن القسم الأول قال رسول الله ﷺ:

«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثاني: أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتبتكلف ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:

«أفلا أكون عبداً شكوراً» (٤٣).

ومن الثالث: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتي له.

فقال: وما الذي يصير به الشاكر شاكراً؟

قلت له: إذا كان ذا علم فالتبيين والإرشاد، وإذا كان ذا غنى فإيثار للعباد، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضى الله عنه: إن لله ملكاً يملأ ثلث الكون، وإن لله ملكاً يملأ ثلثى الكون، وإن لله ملكاً يملأ الكون كله، وإن لله ملكاً لو وضع قلمه في الأرض لم يجد أين يضع القلم.

ثم قال: يقول المقاتل: إذا كان ملك يملأ الكون كله فأين يكون الذي يملأ ثلث الكون، والذي يملأ ثلثى الكون فقال رضى الله عنه جواباً عن ذلك: اللطائف لا تتراحم، كمثل سراج أدخلته بيتاً فملأ البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعت يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: هو ذاك.

وسمعه يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أيها بكر أعلم يوم يوم؟

قال: نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقال رضى الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء رسول وعثمان وعليّ خلفاء النبوة.

وقال رضى الله عنه: العامة إذا رأوا إنساناً ينسب إلى طريق الله جاء من البرارى والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم وكرم من ولئى لله وبديل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالاً وهو الذى يحمل أنقلاهم ويدافع الأغابر عنهم فمئلهم فى ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته والحمر التى بين أظهرهم وهى التى تحمل أنقلاهم لا يلتفتون إليها.

وقال: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

يا أيها العباس، إذا قال أحد فبك ما لئس فبك فقل:

الله يعلم منى ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

علم الله ما يقال فى أوليائه والصديقين فبدأ بنفسه، ففضى على قوم أعرض عنهم فتنسوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل فى صديق إنه زنديق، أو قيل فى ولئى إنه غافل عن الله غوى، فإن ضائق الولئى أو اصديق بذلك ذرئاً قيل له: الذى قيل فبك هو وصفك لولا فضل عليك، وقد قيل فى ما لا يستحقه جلال.

وقال رضى الله عنه: المالك بهذه الطائفة أكثر من الناجي.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على أذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، ولتتحقق الميراث فيهم، ليؤذوا كما أودى من هبلهم فيصبروا كما صبروا، ولو كان من أقى بهدى طباق الخلق على تصديقه هو الكمال فى حقه، لكان الأولئى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدقه قوم هدامهم الله فضله، وحرّم من ذلك آخرون حججهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومنقذ، ومصدق ومكذب، وإنما بصدى يعلمهم وأسراهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقهم بهم، والمعرّف بتخصيص الله وعنايته فيهم قابل، لغاية الجهل، واستيلاء الفعلة على العباد، وكراهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف فى منزلة، أو اختصاص بمنّة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(١٤٤) ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه،

وشروق نوره في قلوب أحبائه؟ وسبب هلاك الهالك بهم أن من أظهره الله منهم لا يد وأن يظهره بيواهر المنين، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العوام أن يعطى ذلك غير الأنبياء، وأن تظهر الخوارق إلا في أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كل كرامة لول هو معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي تابع له، فظن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولي مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبي وأولي في مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء مما هو للأنبياء كزق ملء عسلاً فرشحت منه رشاحة، فما انظروى عليه الزق فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هي حظ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعتزَّ بعزيم لم يشاؤكه في العز، فأولياء الله اعتزوا بالأنبياء الذين اهتموا بهداهم واقتفوا سبيلهم فلا يشاركونهم في عزهم؛ لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٥)؟ فلم يكن إثبات العزة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عباده يوجب شركة الله في عزه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولي بل انقسم لأمر فيه كما بيناه لما بيناه. ولأمر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدقين للولي فاته الصبر على تكذيب المكذبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذبين له فاته الشكر على تصديق المصدقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأولياته أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدق ومكذب؛ ليعيدوا الله فيمن صدقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لمزاة قر المولى عند الله لم يجعله إلا محجوباً عن خلقه وإن ظهر بينهم؛ لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالته، ويعين بسر ولايته.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

لكل ولي حجاب وحجاب الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة، والنفوس لا تحتمل صحة من هذا وصفه، وسبب ظهور ذلك الولي بذلك تعلي الحق عليه بصفة ظهر بها، فإذا غلبت عليه شهوداً غلبت عليه ظهوراً، فلا يصحبه ولا يثبت معه إلا من بحق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضى الله عنه لا تجلس بين يديه إلا والرعب قد ملك قلبك.

ومن خلصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز، وأى ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعوز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل في كل قطر وعصر أولياء تنزل لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابه كثرة التردد إلى الملوك والأمراء في حوائج عباد الله فيقول القصير الإمراك: لو كان هذا ولياً ما تردت إلى أبناء الدنيا.

وهذا جورٌ من قائله، بل انظر تردده إليهم: إن كان لأجل عباد الله وكشف الضر عنهم، وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد والياس بما في أيديهم، والتمركز بمن الإيمان وقت مجالستهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١٦٦).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القنطري الكبير أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رضي الله عنه يقول: جهل الناس ولاة الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عن حسن كثرة ترواده إليهم في الشفاعات.

وعجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا عبدٌ متخلقٌ بخلق الله، قد بذل نفسه وأذلها في مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله معتلاً لقول رسول الله ﷺ: «الرحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (١٦٧).

ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه استدعى يهودياً كحالاً ليدأوى بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا استطيع أن أعالجه إلا بإذن، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يدأوى أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لخدمته: هيا آله السفر. وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذناً وعاد ولم يبيت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي فاعتذر له بما اعتذر به أولاً فأخرج له الشيخ مכתوباً بالإذن فأكثر اليهودي التمتع بمصاحبته من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولي كثرة التقى وانسباط الدنيا عليه.

وقال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد، وكان يعيش بما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان فأقره مني السلام وتطلب الدعاء منه لي فإنه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قعنت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته فقبل لي: هو عند السلطان. فإزداد تعجبى، فبعد ساعة، وإذا هو أتى في أقميص ملبس ومركب، وكأنما هو ملك في مركبه، قال: فإزداد تعجبى أكثر من الأول قال: فغممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكن مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لي، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارية الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

(١٦٦) التوبة: ٩١.

(١٦٧) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وأبو داود.

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأول.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمع بأخي فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء. قال: لا بد أن تقول لي. فأعدت عليه ما قال. فيكي طويلاً. وقال: صدق أخي فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندي إليها بقايا المتطلع.

ومن حجب أولياء الله قبولهم من الخلق، فإذا قبل الرجل ما يعطى صفر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلا من لا يقبل دنياهم، ومن إذا أعطوه ردّ عليهم وأبى من القبول منهم، ولعل فاعل ذلك إنما فعله زواغاً وزندقة، واستيلافاً لقلوب العباد عليه، وليتوجه بالتعظيم إليه، ولتطلق الألسنة بالثناء عليه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من طلب الحمد من الناس يترك الآخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء.

وما قد يصدّ عقول العموم عن أولياء الله وقروح زلة من تزياً برّهم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان عن وقف معه، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٤٨). فمن أين يلزم لما أساءه واحد من الجنس، أو ظهر عدم صدقه في طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله تعالى:

استنار: الرجال في كل أرض تحت سوء الظنون فدرّ جليل
ما يضير الحلال في حندس اللبيل سل سواد السحاب وهو جميل

وأشدّ حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود امثاله، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكياً عنهم:

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٤٩).

وقال سبحانه حاكياً عنهم:

﴿أَيُّهَا مَنْ أَمَّا وَاحِدًا نَبِيَّه﴾ (٥٠).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْغَى فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٥١).

وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته. ^١
وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصفى إلى الواقعين في هذه الطائفة والمستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصديق، وإخلاص الوفاء، وبراءة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلمًا بين يديه، تركوا الانتصار لنفسهم حياة من يرويته، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم. ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصًا أهل العلم الظاهر، فقل أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، غارياً عن وجود التصديق. فاحذر من هذا وصفه، وفر منه فراك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه بمنه.

الباب التاسع

فيما قاله من الشعر أوقيل بحضرته، أوقيل
فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته

قال رضى الله عنه: أطلعني الله على الملائكة وهى ساجدة لآدم عليه السلام فأخذت بتسلى من ذلك، فإذا أنا أقول:

ذاب رسمى وصحَّ صلبُ فئاني
وتنزلت في العوالم أبدي
فصناني كالشمس يبدو سناها
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً
أى نور لأهله مستبين
وتجلت للسرِّ شمس ضيائي
ما انطوى في الصفات بعد صفائي
وجودى كالليل يخفى سوائي
من رأى قاسد لبهائي
أشهدونى فقد كشفت غطائي

وسئل رضى الله عنه عن الروح والنفس فقال:

إن كنت سألنا عن خالص المن
وعن تنبئها بالخط مذ ألفت
وعن تنزلها في حكمها ولها
وعن بواعثها بالطبع مائلة
وعن حقيقتها في أصل معدنها
فاسمع - هديت علوماً عزَّ سالكها
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدا
يا سائل عن علوم ليس يدركها
لكن بنور علٍ جامع خدمت
خذها إليك بحقٍ لست جاهلها
عن الحقيقة خذ علم الأمور ولا
تطوّر النفس سرّاً لا يحيط به
لكنها برزت بالحكم قائمة
وكى يقال عبيد قائمون بما
والنفس بين نزول في عوالمها
والروح بين ترقى في معارجها
مثالها في العلا مرآة معدنها
زيوتها زيتها نور. لشاربها

وعن تعلّق ذات النفس بالبدن
أدائها فقدت تشكو من العطن
علم يفرقها بالقبح والحسن
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
لا يثنى وصفها منها إلى وثن
عن العيان ولا يفرك ذو - لسن
قامت حقائقها - بالأصل والفن
ذو فكرة يفهم لا ولا فطن
له القول وكل الحق في وسن
والأمر مطّلع والحق قيّدني
تجزيك صورتها في عالم الوطن
عقل تقيد بالأوهام والذن
حتى تألفها السكان بالسكن
ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن
كأدم وله حواء في قرن
وهي الموافق للتصريف والثن
أطافها خفيت كالسرّ في العان
مدّت هدايتها في الكون والكين

والكل أنت بمعنى لا خفاء به
والعبد محتجب في عزّ ممالكه
وكان ينشد رضى الله عنه:

لو عاينت عينك يوم تزلزلت
لرأيت شمس الحق يسطع نورها
وقال: الأرض أرض النفس، والجبال جبال العقل، والشمس شمس المعرفة.
وكان ينشد رضى الله عنه:

وقفت على التوباذ حين رأيته
فقلت له أين الذين عهدتهم
فقال مضوا واستودعوني ديارهم
وكان ينشد رضى الله عنه:

لست من جملة المحبين إن لم
وطواني إجمالة السرّ فيه
وكان ينشد رضى الله عنه:

وقد يقينا مذئبين حيارى
فدواعى الهوى تخفّ علينا
وكان ينشد رضى الله عنه للسهر وردى رضى الله عنه:

أبداً تحن إليكم الأرواح
وقلوب أهل وبادكم تشتاقكم
يا رحمة للعاشقين تحملوا
بالسرّ إن باحوا تباح بماؤهم
وكان ينشد رضى الله عنه:

مرّت لنا بئى والخيف أوقات
لأسكن أولوان الأسود بينا
وكان ينشد قول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
فقلت له لا تيك عيناك إنا
وكان يقول: نحاول ملكا بالبقاء، أو نغوت فتعطر بوجود القناء.

وكان ينشد من قصيدة ابن العطار:
رفعت مقامات الوصال حجابي
حق احتجبت بكم عن الحجاب

فرايت وجه الحق في المحراب
فتجوت من ملك لما غصاب
سبب النجاة وأعظم الأسباب
عن كنزه الباقي بغير ذهاب
حتى دوت فكنت مثل القاب

ويتم كالمسك العيق شذاه
فيه القلوب تطيب والأفواه
يا صاح من كانت خلاه تقاه
مستغرقاً في الكشف عن معناه
خلا عن الكونين في مسراه
عين البقاء فمعد ذلك تراه
كلًا ولا أيضًا تكون سواء
سرّ يضيق نطاقنا عما هو
قلب يفكر ما وعت أذنياه
لك سرّ ما قد غاب عنك سناه
من لم يراه قد استبان عماء
ما غاب عنهم لحظة مزاء
لكن شديده ظهوره أخفاه

ولزمت محرابي لنزوم مجمع
وغرقت لوح تنقيح لأعيانها
وقلت من نفسي غلاماً قبله
وكشفت عن قلبي جذار حجابيه
ورقيت في السبع السموات العلا
وأشد بين يديه وأنا حاضر أسمع

خذ من كلامي ما يلد جناه
ذكر الإله الرزم هديت لذكره
وأجعل خلاك تقاه إن أخا الحجا
ولتعمل الأفكار في ملكوته
ولتخلع النعلين خلع محقق
ولتقن حتى عن فئائك إنه
وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو
شيطان ما اتحدنا ولكن ههنا
يا سامعاً ما قد أشرت له ألا
أزل الحجاب حجاب حسك ينكشف
إن الإله أجل ما تتعرف
فيه يراه ذوو البصائر والهي
أني غيب وليس بوجود غيره

ولما انتهى في الإنشاد إلى قوله:

وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو
شيطان ما اتحدنا ولكن ههنا

قال الشيخ رضي الله عنه: ولا تستطيع أن تبينه أبداً.

وقرأت عليه القصيدة المنسوبة لابن الفرس:

هل في وجود الحق إلا الله
هل كان يوجد غيره لولاه
فالنور يظهر ذاته فتراه
مستغرقون بفكرهم إياه
حتى كأن قلوبهم مشواه
أغيب عنه وما شهدت سواء
فلقد أحاط به حجاب غماه
فمن المحال عليه أن ينساه

انه ربي لا أريد سواء
ذات الإله بها قسوام ذواتنا
لا غشرو في أنا رأيناه به
فالسالكون مشاهدون نصنعه
والعارفون مشاهدون لذاته
يا غائباً والحق فيه حاضر
من لم يشاهد بالبصرة ذاته
من لا يرى في كل حال غيره

من كان في الملكوت يسرى فكره
سيحان من خرق الحجاب لعيده
سيحان من ملأ الوجود أدلة
سيحان من لو لم تلج أنواره
مولاي أنت الواحد الصمد الذي
مولاي أنك لم يدع لي رحمة
مولاي عيذك لا يخاف تعطشا
مولاي لا آوى لغيرك إنه
أنت الذي خصتنا بوجودنا
لم أفش ما أودعته قلبه
من كان يعلم أنك الفرد الذي

فقال الشيخ: كل هذا تحميم وليس هو عين القصد.

ووجدت بخط ابن ناشي قال: كتبه إلى سيدي وشيخي أبي العباس المرسى وكان قد ورد سلامه عليّ فقلت:

ورد السلام من الإمام فسرّني
إن كنت تعني يا رسول بأنه
شيخي أبو العباس واحد رفته
أسفى على وقت لديك قطعته
ما كنت إلا حائذاً فرددتني
وسقيتي ماء الحياة وكنت لي
ولو استطعت قطعت عمري عنه
يا أيها المرسى بهر معارف
فهو الطريق إلى النبي محمد
صل عليه الله ما ذكر اسمه

ومدحه الأديب الفاضل شرف الدين البوصري بقصيدة منها:

أما المحبة فهي بذل نفوس
بذل المحب لمن أحب دمعه

ثم مر فيها إلى أن قال:

صديق وقل من لم يرق كقيامه
قبل لإله تقرّفي بديعه
ومت المسير له فأعجزني السرى
أكرم بيوم الأربعاء زيارة

فالفوز بالحسنى ثواب سراء
وهدهد منهج قصده فرأه
ليلوح ما أخفى بما أبداه
لم تصرف الأضداد والأشياء
في حضرة الملكوت شاهدناه
إلا بما ظلماتها بسناه
أخفاقه والحق قد رآه
حرم الهدى من لم تكن مأواه
أنت الذي عرفتنا معناه
ماذا سرّ الحق من أفضاه
بهر العقول فحسبه وكفاه

أف مررت بخاطر لم يسبقني
بأق على العهد القديم فهني
خضر الزمان ورب عين الأعين
بالباطن السرى قد ربيتني
وإلى الطريق المستقيم هديتني
كالخضر لما أن رويت سقيتني
لأعيش بعد الموت في عيش هني
سافر إلى المرسى بريح لين
إن كنت يوماً بالإرادة تعني
في عالم من عوالم متفتن

فتعني يا مهجق باليوس
وطوى الحشا على أحرّ رسين

لم ينتفع منه اسرؤ بجلوس
وتوجهي لجنابه المحروس
وأبأخي مرآة غير بتوس
فكأنه عندي كألف خميس

ثم مرّ فيها إلى أن قال:

شرقاً لشاذلة ومرسمة سرت
ما إن نسبت إليهما شيخيهما
وكنّت في مبدأ الشبيبة عملت فيه قصيدة، وأنشدت بين يديه، فلما فرغ من إنشادهما قال: أيّدك
الله برزح القدس وهي هذه:

فأرتنا البدر من تحت اللعم
وجهها في الليل صبحاً قد ألم
أن يرى وجه لسمي في الظلم
وجهها أكمل نوراً وأتم
خجلاً من وجهها ومحتشم
ثم صارت خدن همّ وندم
عذب العشاق قبل في القدم
صرت بين الناس فيه كالعلم
فأبى دعوى إلا أن يُنم
أذكر الوصل الذي قد انصرم
فقال لي القلب وويلاً لاتم
إنما العشق سهاد وسقم
فهما في العشق شرط يلتزم
شمر الذيل ولا تحش الآثم
من عذاب الله خلاق الأمم
عسر فيه وجود من سلم
إن حزب الله غير متهم
ذي بهيمة ووفاء وهم
مُتحوّه من علم وحكم
عن قلوب الخلق وانجابت ظلم
وبه درّ العلوم قد نظم
أبى علم قد بدا لمن فهم
وكساه حلالاً من النعم
أقصروا إن الإله قد قسم
فتمنّوا به بجدّ وهم
أعطيت أحد في حال العدم

برزت على بأثناء الخيم
وحداً الحادون لما أبصروا
وعذرتهم وماذا عجب
كضياء الصبح أو بدر اللجى
لو رآها البدر أتى راجعاً
أو رأتها الشمس لم تطلع ضحى
عذبت قلبي بيجران به
وكستني ثوب همّ وضئى
وأبت إلا صدوداً دائياً
فسهرت الليل أروع نجومه
كلما رُمّت لعيني هجعة
تدعى العشق وتلقى ضده
لازم الباب بقلّ وأسى
ودع التقصير في خدمته
واجتهد عليك أن تجو غداً
لا تقل لي إن هذا زمن
أولياء الله لم ينقضوا
قد رأينا كلهم في واحد
في أبى العباس مجموع الذى
بأبى العباس زاحت كربة
وبه شمس الهدى قد ظهرت
أبى نور بدا لأهله
ولقد فضله رب العلا
قل لأقوام أرادوا شأوه
ليس هذا الأمر أمراً هيئاً
إنما هي قسمة قد قسمت

إِذْ أَرَادُوا سُرَّ ذَا النُّورِ الْأَثَمِ
إِذْ نَبَذُوا النُّورَ مِنْهَا وَاسْتَمَ
وَهُمْ إِخْوَانٌ هُمْ وَنَدِمَ
وَهُوَ قُطْبُ الْأَرْضِ ذُو الْعِلْمِ الْأَعْمِ
إِنْ هَذَا لَيْسَ أَمْرًا مَكْتُمًا
ذَائِعٌ بَيْنَ عَرَبٍ وَعَجَمٍ
وَلِزَادِ الشَّرْحِ فِيهِ وَعِظَمِ
فَنَرَاهُمْ مَازَجِي شَهِيدٍ بِسْمِ
وَلِيْمُوتُوا كُلُّهُمْ مَوْتَةً غَمِ
مَا رَقَى الْقَمَرُ فِي غَضَنِ سَلَمِ

نَازَعُوا اللَّهَ تَعَالَى حُكْمَهُ
إِنْ يَكُونُوا أَنْكَرُوا شَمْسَ الضُّحَى
فَهُمْ إِخْوَانٌ جَهْلٌ وَهَوَى
وَقَدِيمًا قَالَ فِيهِ شَيْخُهُ
إِنَّمَا أَنْتَ أَنَا فَيَا عِلْمَ بَذَا
وَحَدِيثَ الشَّيْخِ عَنْهُ شَائِعٌ
لَوْ بَسْطْنَاهُ لَطَالَ يَسْطُهُ
إِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا جَجْدَهُ
فَلَيْدُمْ غِيْظُهُمْ وَجَعْدَهُمْ
دَمْتُ فِي عَزٍّ عَلَى رِغْمِ الْعَدَا

وَحِينَ انْتَهَى فِي الْإِنْشَادِ إِلَى قَوْلِنَا:

ذِي بَهَائٍ وَوَقَائٍ وَهُمْ
مَنْحُوهُ مِنْ عُلُومٍ وَحُكْمِ

قَدْ رَأَيْتُنَا كُلَّهُمْ فِي وَاحِدٍ
فِي أَبِي الْعَبَّاسِ بِمَجْمُوعِ الَّذِي

قال الشيخ رضي الله عنه: والله لقد قال لي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: يا أبا العباس فيك ما في الأولياء وليس في الأولياء ما فيك.

ولما انتهت في إنشادها إلى قوله:

وَهُوَ قُطْبُ الْأَرْضِ ذُو الْعِلْمِ الْأَعْمِ
إِنْ هَذَا لَيْسَ أَمْرًا مَكْتُمًا

وَقَدِيمًا قَالَ فِيهِ شَيْخُهُ
إِنَّمَا أَنْتَ أَنَا فَيَا عِلْمَ بَذَا

قال الشيخ رضي الله عنه: والله لقد قال لي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

ومكثت بعد ذلك مدة سنين ثم أتى الشيخ رضي الله عنه من الصعيد فلما اجتمعت به أراقني قصيدة عملها فيه إنسان من أهل أحميم وقال: أجبته. فذهبت فتوقف على القول، فقلت: عجبا يأمرني الشيخ ويتوقف على القول، هذا والله من عدم صدقي، فلما قلت ذلك فتح الله باب الكلام حتى كأنما كانت سيلا تدفق إل أن تكلمت قصيدة، فلما قرئت عليه وقعت منه موقع الرضا حتى كان يمكث المدة من الزمان ويستعيدها، وقال لما قرئت عليه: هذا الفقيه صحنى وبه مرضان وقد عافاه الله منها: يعنى وجعا في الرأس والوسوسة في الطهارة، ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين، وهى هذه:

فَلَمَنْ تَسِرْ وَمَا الْمَرَادُ سَوَاهَا
فَلَطَالُ مَا جَهْدَتْ وَدَامَ سَرَاهَا
أَرْسَاغُهَا مَخْضُوبَةٌ بِدَمَاهَا
حَتَّى تَشَكَّتْ أَثْنًا وَوَجَاهَا
تَغْرِى بِهَا فَالْتَوَى تَدَ أَغْرَاهَا

قَفَّ بِالْدَارِ فَقَدْ يَدَا مَفْطَاهَا
وَأَرْجَ قُلُوبُكَ قَدْ بَلَّغْتَ التَّنْجِي
وَلَطَالُ مَا قَطَعْتَ مَهَامَهُ وَاعْتَدْتَ
نَفْسِي وَتَصَبَّحَ لَأَقْلَ مِنْ السَّرَى
رَفَقًا بِهَا بِهَا أَيْهَا الْهَادَى وَلَا

وكفى بها وعد بها وكفاهها
 حق تيل من الذموع تراها
 ويقودها نحو الحبيب هواها
 فتمايلت ولشوق حشر حشاها
 واستبشرت فيه بنيل منهاها
 فيها أبو العباس شمس ضحاها
 وغدت به بين الوري تباها
 وتخلت الأيام منه حلاها
 فأزاح عنها كبرها وجلاها
 حبرا منيا صادقا أزاها
 وتجمعت فيه على آخرها
 كم بدعة عقدت فعل عراها
 قد قيدته نفسه بهراها
 عنه سحائب ظلمة بدجاها
 أحيا بها من بعد ما أحيها
 قل الماعد فانجلت ظلمها
 ركبت محارم واستبسع حماها
 وليست من حلل التقى أسنباها
 فأزلت عنها جهلها وعماها
 فينا وزلت عن سبيل هداها
 من بعد ما جمعت وعز شفاها
 بشرى لها في ودها بشرها
 وكذلك أيضا أنت في نجواها
 فيكم تكمل برها وتقامها
 حتى أقي قطب الوري فهذاها
 وتنورت بهجته أفعابها
 قطب البرية غوثها ملجاها
 وزوى بها عن صرفه روقها
 ترجوه في لأوائها ورغابها
 من بغية قد حازها وحواها
 بالإرث منه فارقت علاها
 وأقامه فيها لكي يرعها
 طبقت جفوتهم على أقدأها

يكفى الذى لاقته من ألم السرى
 أو ما تراها كيف تقوى دمعها
 يحدر بها نحو الديار غرامها
 فازت بأن وصلت إلى أحبابها
 حنت وأنت إذ رأت وادى النقا
 فسروها كسرور أيام غدا
 تاهت بأحد إذ أنها رحمة
 وتشرفت أوقاتا بهجته
 وغدا يستد أمر دين محمد
 إن تلقه تلق إماما راسخا
 قد كملت فيه الفضائل كلها
 كم سنة ماتت فأحى رسمها
 كم من آتاء والمعاصى دأبه
 فأزال عنه ما به فتشمت
 كم من قلوب قد أميتت بالهوى
 أحييت علم القوم في زمن به
 وأثبت غوثا للأنام وقيل ذا
 وغدوت ترفل في ثياب معارف
 مازلت حتى طاوعتك نفوسنا
 من بعد ما ظفرت بنا وتحكمت
 ذللتها حتى أنت منقادة
 فلذاك أضحي ودها لك خالما
 فغدوت أعلى منها في جهرها
 ما زلت تمدون أمة أحمد
 قد كان ندما بالبرية حيرة
 بالتسائل تشمت ظلماتها
 كنز التقى علم الهدى بحرى الندى
 من كان إن خطب ألم حماها
 كهف تلوذ به البرية كلها
 حتى تسوقه إليه فيالها
 وخلفته في حاله ومقامه
 الله أبقى للمبرية أمدا
 إن الذين تعرضوا لفخاره

إن تنكروا الآيات وهي ظواهر
 هم يعلمون بأنه قطب الورى
 أو ما ترى قوم النبي محمد
 مسع علمهم أن النبي محمدًا
 فأدام غيظهم المليك ولم تزل
 تهدى إليك المكرمات بأسرها
 وكان يعجبه منها

كم من قلوب قد أميتت بالهوى
 فكان يستعيد الفصيذة إلى هذا البيت، فإذا انتهى في الإنشاد إليه استعاده، جعل الله مدحنا هذا
 موضوعًا في الميزان، وموجبًا للرضوان، بمنته وكرمه.

الباب العاشر

في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي
رتبه للأخذين من علومه وأفهامه، وشيء من
دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه
وحزبه، وبها يكون لهذا الباب وجود ختامه

كان من ذكره رضي الله عنه:

لا إله إلا الله الأول الآخر الظاهر الباطن، محمد رسول الله السيد الكامل الفاتح الخاتم.
ومن ذكره أيضا:

يا الله يا نور يا حق يا مبین: أحی قلبي بنورك، وأقمی بشهودك، وعرفنی الطريق إليك.
ومن ذكره أيضا:

رب اغفر لی، واجعل لی لك عبدا ذائب النفس بأنوارك، مطموس الحس بجلالك، واغفر لی
وللمؤمنين والمؤمنات.

ومن دعائه:

اللهم اغفر لی، واستر لی، ولا تفضحنی فی الدنيا والآخرة، وعلنی وذکرنی وفهمنی، وأرحنی
وفرحنی وبرنی، وفرغنی من كل شيء إلا من ذكرک وطاعتک وطاعة رسولک، ومحامک ومحاب
رسولک ﷺ.

ومن دعائه عقب كلامه:

اللهم كن بنا رءوفا، وعلينا عطوفا، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، اللهم قومنا إذا
اعوججنا، وأعتنا إذا استعمتنا، وخذ بأيدينا إذا عثرنا، وكن لنا حينئذ كنا.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه:

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير ما فيها، وإن الآخرة كريمة كريم ما فيها، وأنت الذي حقرت
الحقير وكرمت الكريم، فأني يكون كريما من طلب غيرك؟ أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياء
محاك؟ فاصبرني بجملة الزهد حتى أستغنى عن طلب غيرك، ويعرفتك حتى لا أحتاج إلى طلبك.
إلهي، كيف يصل إليك من طلبك؟ أم كيف يفوتك من هرب منك؟ فاطلبني برحمتك، ولا تطلبني
بنتقمتك، يا عزيز يا مستقم، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه:

اللهم اسلبني عقلا يحجبني عنك، وعن فهم آياتك، وعن فهم كلام رسولك، وهب لي من العقل

الذى خصصت به أنبياءك ورسلك والصدقين من عبادك، واهدنى بنورك هداية المخلصين بمشيئتك،
 ووسع لى فى النور بوسعة كاملة تحصى بها برحمتك، فإن الهدى هناك، وإن الفضل بيدك تؤتيه من
 تشاء وأنت ذو الفضل العظيم.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا واسع يا عليم، يا غنى يا كريم، يا ذا الفضل العظيم.

اللهم أجلسنا على بساط القرب منك بالفناء عن غيرك وبالبقاء بنورك، أو بالتقرب بالأخذ عما
 هو لنا إلى ما هو لك من جهة العلم أو العقل، ومن جهة العمل والحال، وهيناً فى برزخ الصنع
 ناظرين بك إليك، ومتك إلى غيرك، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غنى يا كريم، يا واسع يا عليم، يا ذا الفضل العظيم، اجعلنى عندك
 دائماً، وبك قائماً، ومن غيرك سالماً، وفى حبك هائماً، وبِعظمتك عالماً، وأسقط البين بينى وبينك حتى
 لا يكون شيء أقرب إلى منك، ولا تحجبني بك عنك إنك على كل شيء قدير.

ومن دعائه أيضاً رضى الله عنه:

اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون؛ ليكون العبد بوصف سيده
 لا بوصف نفسه، غنيا بك عن تجريد النظر لشيء من المعلومات، ولا يلحقه عجز عما أراد من
 المقصورات، ومحيطاً، بذات السر بجميع أنواع الذوات، ومرتباً للبدن مع النفس، وللقلب مع العقل،
 وللروح مع السر، وللأمر مع البصيرة، والعقل الأول المد من الروح، الأكبر المنفصل عن السر
 الأعلى.

اللهم ارزقنى من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، وضربى بها ضرباً
 تمحق بها من قلبى كل قوة؛ واغنى بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والحلق، وأخرجنى به عن ذل
 الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشينة النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل
 شيء قدير.

ومن دعائه رضى الله عنه:

باسم المهيمن العزيز القادر، أجل كل شيء وهو ناصرى ق ج ن ص انصرنى فإنك خير
 الناصرين، وافتح لى فإنك خير الفاتحين، ورزقنى فإنك خير الرازقين، واهدنى وتجننى من الغوم
 الظالمين.

ومن دعائه رضى الله عنه:

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مشاهدتك، وفرق بينى وبين
 هم الدنيا وهم الآخرة، ونب عنى فى أمرها، واحمل همى أنت، وأملأ قلبى بمعيتك، ووجهة يا تبارك،
 وخشع قلبى بسلطان عظمك، ولا تكلى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وها نحن نتب حزب سيدنا ومولانا الشيخ الإمام قطب العارفين وعلم المهتدين شهاب الدين

أبى العباس أحمد بن عمر المرسى رضى الله عنه، وإن كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنها، وبعدة نذكر حزب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه المسمى حزب النور، ويعدها حزب آخر له أيضاً.

وإنما ذكرنا حزب الشيخ أبى العباس الذى رواه عن شيخه، وحزبى الشيخ أبى الحسن هذين حزب النور والذى بعده، لأن هذه الأحزاب الثلاثة لم تشتهر شهرة حزبى الشيخ أبى الحسن حزب البحر وحزب «وإذا جاءك» فلهذا أفردنا هذه الثلاثة بالذكر وتركنا ذكر ذينك الحزبين فإنها سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما فى البدو والحضر.

فأما حزب الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فهو هذا، وهو ورد شيخه بعد العشاء، الآخرة، وحزب «وإذا جاءك» بعد الصبح، وحزب البحر بعد العصر فكذا رتبها الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، وهذا مبدأ الحزب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهتدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظها وهو العلى العظيم﴾^(١).

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكه وكتبه ورساله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لما كسبت وعندها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبل ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾^(٢).

﴿الم، الله لا إله إلا هو الحى القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾^(٣).

﴿يأياها المشر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثبأتك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تقنن تستكبر، ولربك فاصبر﴾^(٤).

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(٥).

﴿والرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر

(٤) القدر: ٦ - ٧.

(٥) الملق: ٦ - ٥.

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) آل عمران: ٦ - ٦.

يسجدان، والسبأ، ورفعها ووضع الميزان، ألا تطفؤا في الميزان؟^(٦)

﴿تبارك اسم ذى الجلال والإكرام﴾^(٧)

سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم.

﴿سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور﴾^(٨)

﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾^(٩)

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾.

﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

﴿قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

اللهم يا من هو كذلك، وعلى ما وصفه به عباده الله المخلصون من التبيين والصدقين والشهداء والصالحين والعلماء الموقنين والأولياء المقربين من أهل سماواته وأرضه وسائر الخلق أجمعين، أسألك بها، وبالأيات والأسماء كلها، وبالعظيم منها، وبالألم^(١٠) والسيدة^(١١)، وبخواتم سورة البقرة، وبالمبادئ والخواتيم وبآمين على الموافقة، وبجاءة الرحمة وميم الملك ودال الدرام.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجد يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزهره فاستغاث فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾^(١٢)

أحون، قاف، آدم، حم، هاء، أمين.

كهيمص

اغفر لى وارحمنى برحمتك التى رحمت بها أنسأءك ورسلك ولا تجعلنى بدعائك رب شقيأ.

(٦) الرحمن: ١ - ٨.

(٧) الرحمن: ٢٨.

(٨) الحديد: ٦ - ٦٠.

(٩) الحشر: ١٢ - ٢٤.

(١٠) الأمل هنا هى الفاقة.

(١١) سيدة أى القرآن، آية الكرسي.

(١٢) الفص: ٢٦.

وفي خفت وأخاف أن أخاف ثم لا أهتدي إليك سبيلاً فاهدني إليك وأمنى بك من كل خوف وخوف في الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير.

اللهم يا سميع السموات والأرض، يا قيوم الدارين، ويا قيوم بكل شيء، يا حي يا قيوم يا إلهنا لا إله لنا إلا أنت، كن لنا ولياً ونصيراً؛ آميناً، وأمناً بك من كل شيء حتى لا نخاف إلا أنت؛ واجعلنا في جوارك، واجعلنا بالذي حببت به أوليائك؛ فترى ولا يراك أحد من خلقك، واصيب علينا من الخير أكمل وأجله؛ واصرف عنا من الشر أصغره وأكبره.

﴿طوبى؛ حم عسق، ترج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾.

اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا عنك، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وناظرين بك عنك، لا إله إلا أنت سبحانك، ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تبنا إليك قولاً وعهداً فنب علينا جوداً وعطفاً واستعملنا بعمل ترضاه وأصلح لنا في ذرياتنا إننا تبنا إليك وإننا من المسلمين.

يا غفور يا ودود، يا برّ يا رحيم اغفر لنا ذنوبنا وقرّبنا بؤدك، وصلنا بتوحيديك، وارحمنا بطاعتك، ولا تعاقبنا بأنقرة، ولا بالوقفة مع كل شيء دونك، واحملنا على سبيل القصد، واعصمنا من جائزها، إنك على كل شيء قدير.

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيننا وبين الصديق واليّم والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والراقة والنور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصّة والنشاط والقوّة والسرّ والغفرة والفضاحة وبيان والفهم في القرآن، وخصنا منك بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية، وكن لنا سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً ويدا ومؤيداً، وآتنا العلم اللدني، والعمل الصالح، والرزق الهني الذي لا حجاب به في الدنيا ولا حساب ولا سؤال، ولا عقاب عليه في الآخرة، على بساط علم التوحيد والشرع، سالمين من الهوى والشهوة والطبع، وأدخلنا مدخل صدق، وأخرجنا مخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً.

يا الله، يا علّي يا حلّيم يا عليم يا سميع يا بصير يا مرید يا قدير يا حيّ يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا من هو هو هو يا هو، أسألك بعظمتك التي ملأت أركان عرشك، وبقدرك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، وبملكك المحيط بكل شيء، وبإرادتك التي لا ينازعها شيء، وبسمعك وبصرك الغريبين من كل شيء، يا من هو أقرب إلّی من كل شيء، قد قلّ حياتي، وعظم افتراضي، وبعد مثالي، واقترب شقائي، وأنت البصير بحتي وحيثي وشهوتي وسوءي، تعلم ضلّاتي وعمائي وخفاقي وما قبح من صفاتي، أمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك، فمن ذا الذي يرحمني غيرك، ومن ذا الذي يسمعني سواك، فارحمني وأرني سبيل الرشاد واهدني إليه سبيلاً، وأرني سبيل القمّي وجنّتي إيّاه سبيلاً، واصحبني منك الحق والنور والحكم والفصل والبيان وأمرسني بنورك.

يا الله يا نور يا حق يا مبین، افتح قلبي بنورك، وعنّني من علمك، وفهّمني عنك، وأسعني منك، وبصري بك، إنك، على كل شيء قدير.

اللهم إني أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر. وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فاهدني بنورك لتورث فينا يرد على منك، وفيما يصدر مني إليك، وفيما يجري بيني وبين خلقك، وضيق على قريتك، واحجبني بحجب عزتك عن حجبك، وكن أنت حجابي حتى لا يقع شيء مني إلا عليك، وسخر لي أمر هذا الرزق، واعصمني من الحرص والتعب في طلبه، ومن شغل القلب وعلق الهوى به، ومن الذل للخلق، بسببه، ومن التفكير والتدبر في تحصيله، ومن الشغ والبهل بعد حصوله، وما يعرض في النفس من ذلك، وتخلقه بقدرتك على وفق إرادتك وعلمك، ومن ضرورات الحاجات إلى خلقك، فاجعله اللهم سبباً لإقامة العبودية، ومشاهدة لأحكام الربوبية، وهب لي خفية من خفياتك، ونوراً من أنوارك، وذكراً من أذكارك، وسراً من أسرارك، طاعة من طاعات أنبيائك، وصحبة للملائكتك وتول أمري بذاتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، واجعلني حسنة من حسناتك، ورحمة بين عبادك تهدي بها من تشاء إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور.

اللهم اهدني لنورك وأعطني من فضلك وامنني من كل عدو هو لك، ومن كل شيء يشغلي عنك، وهب لي لساناً لا يفتر عن ذكرك، وقلبي يسمع بالحق منك، وروحاً يكرم بالنظر إليك، وسراً حسناً بحقائق قرة، وعقلاً جاثلاً بجلال عظمتك؛ وزين ما ظهر وما بطن مني بأنواع طاعتك؛ يا مسبح يا عليم يا عزيز يا حكيم.

اللهم كما خلقتني فاهدني، وكما آمنني فأحيني، وكما أطعمتهم فأطعمني واسقني، ومرضني لا تخلفي عليك فاشفني، وقد أحاطت في خطيئتي فاغفر لي وهب لي علماً يوافق علمك، وحكماً يصادف حكمك، واجعل لي لسان صدق بين عبادك، واجعلني من ورثة جنتك، ونجني من النار بعفوك، وأدخلني الجنة حالاً ومالاً برحمتك، وأرني وجه محمد نبيك، وارفع الحجاب فينا بيني وبينك، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك وانظراً منك إليك، وأستط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك، واكشف لي عن حقيقة الأمر كشفاً لا طلب بعده لعبدك، مع المزيد المضمون بكرم وعدك، إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عزيز يا حكيم إنك قد آتيت من شئت بما شئت كيف شئت على ما شئت، فيأيدنا بنصرك بحرمة أوليائك، ويوسع صدورنا لمعرفتك عند ملاقات أعدائك، واجلب لنا من رزقتك عنه حتى نخضع له ونذل كما جلبته لعمد رسولك، وأصرف عنا كيد من سخطت عليه كما صرفته عن إبراهيم خليلك؛ وآتأ أجرنا في الدنيا ما لعافية من أسباب الدار؛ ومن ظلم كل جائر جبار، وبسلامة قلوبنا من جميع الأغوار، وبفض لنا الدنيا وحب لنا الآخرة واجعلنا فيها من الصالحين إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عظيم يا عليم يا برّ يا رحيم، عبدك قد أحاط به خطيئاته، وأنت العظيم، وندائي كأنه لم يسمع وأنت السميع، وقد عجزت عن سياسة نفسي وأنت العليم، وأني في برحمتها وأنت البرّ الرحيم، كيف يكون ذنبي عظيماً مع عظمتك؟ أم كيف تحييب من لم يسألك وتترك من سألك؟ أم كيف أسوس نفسي بلبرّ وضعفي لا يعزب عنك؟ أم كيف أرحمها بشيء وخزائن الرحمة بيديك؟ إلهي، عظمتك ملأت قلوب أوليائك، فصبر لديهم كل شيء فاملاً قلبي بعظمتك حتى لا يصغر

ولا يعظم لديه شيء، واسمع ندائي بخصائص اللطف فإنك السميع من كل شيء.

إلهي، ستر عني مكانك منك حتى عصيتك وأنا في قبضتك، واجترحت ما اجترحت فكيف لي الاعتذار إليك.

إلهي جذبك لي أطمعني فيك وحجابي عنك آيسني من غيرك فاقطع حجابي حتى أصل إليك واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

إلهي، كم من حسنة من لا تحب لا أجرها، وكم من سيئة من تحب لا وزرها، فاجعل سيئاتي سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت فإن كرم الكريم مع السيئات أتم منه مع الحسنات، فأشهدك كرمك على بساط رحمتك، ورضني بقضائك، وصبرني على طاعتك فيها أجريت علي من أمرك وبهيك، وأوزعني شكر نعمتك، وغطني برداء عافيتك حتى لا أشرك بك غيرك، وأمنن علي بالفهم عنك إنك غل كل شيء قدیر.

إلهي، معصيتك ناديتني بالطاعة، وطاعتك ناديتني بالمعصية، فعي أيها أخافك، وفي أيها أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قد بلغتني بفضلك، فلم تدع لي خوفا، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء، فليت شعري كيف أرى إحسانك؟ أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك. قاف جيم سران مع سرّك، وكلاهما دالان على غيرك، فبالسرّ الجامع الدال عليك لا تدعني لغيرك، إنك على كل شيء قدیر.

يا الله يا فتاح يا غفار يا منعم يا هادي يا ناصر يا عزيز، هب لي من نور أسمائك ما أنصفق به حقائقي ذاك وانتح لي واغفر لي وأنعم عليّ واهدني وانصرني وأعزني، يا معز لا تدنني بتدبير مالك، ولا تشغلني عنك يا لك، فالكل كلك، والأمر أمرك، والسر سرّك، عذمي وجودی، وجودی وعذمی، فالحق حقك، والجعل جعلك، ولا إله غيرك، وأنت الله الحق المبین.

يا عالم السرّ وأخفى، يا ذا الكرم والوفاء، علمك قد أحاط بعبدك؛ وقد شفى في طلبك؛ فكيف لا يشفى من طيب غيرك؛ تلطفت بي حتى علمت أن طلبي لك جهل؛ وطلبي لغيرك كفر؛ فأجرتني من الجهل؛ وأعصمني من الكفر؛ يا قريب أنت لقريب وأنا البعيد؛ قربك آيسني من غيرك؛ وبعدى عنك ردني للطلب لك؛ فكن لي بفضلك حتى تمحو طلبي بطلبك، يا قوي يا عزيز، إنك على كل شيء قدیر.

اللهم لا تعذبنا بإرادتنا، وحب شهواتنا، فتشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو نسخط أو نسلّم تسليم التفات عند الفقد، وأنت أعلم بعلوبنا، فارحمنا بالنعيم الأكبر، والمزيد الأفضل، والفوز الأكمل، وغيبنا وغيب عنا كل شيء، وأشهدنا بإياك بالإشهاد، وانصرنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

يا الله يا قدیر يا مرید يا عزیز يا حکیم يا حمید، إننا نسألك بالقدرة لعظمي، وبالمشيئة العلیا، وبالأيات والأسماء كلها، وبهذا العظيم منها أن تسخر لنا هذا البحر وكل بحر هو لك في الأرض والسماء، والملك والمملوك، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الريح والشیاطین والجنّ لسليمان، وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء وهو یجیر ولا یجار علیه، يا عليّ يا عظیم، يا حمیم يا عذیم، احون قاف آدم جم هاء آمین

وهذا حزب النور للشيخ الولي الصالح سيدى آي الحسن الشاذلى رضى الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

يا الله، يا نور يا حق يا مبين، افتح قلبى بنورك، وعلمنى من علمك، وفهمى عنك، وأسمعنى منك، وبصرى بك، وأقمنى بشهودك، وعرفنى الطريق إليك، وهونها علىّ بفضلك. وألبسنى التقوى منك، إنك على كل شيء قدير.

اللهم اذكرنى، وذكرى، وتب على واغفر لى مغفرة تسمى بها كل شيء سواك، وهب لى تقواك، واجعلنى ممن يحبك ويخشاك، واجعل لى من كل هم وغم وضيق وهوى وشهوة، وخطرة وفكرة، وإرادة، ومن كل قضاء، وأمر، فرجاً ومخرجاً.

أحاط علمك بجميع المعلومات، وعلت قدرتك على جميع المقدورات، وجلت إرادتك أن يوافقها أو يخالفها شيء من الكائنات.

حسبى الله، وأنا بربى مما سوى الله.

الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

لا إله إلا الله: نور عرش الله.

لا إله إلا الله: نور لوح الله.

لا إله إلا الله: نور قلم الله.

لا إله إلا الله: نور رسول الله.

لا إله إلا الله: نور سر ذات رسول الله.

لا إله إلا الله: آدم خليفة الله.

لا إله إلا الله: نوح نجي الله.

لا إله إلا الله: إبراهيم خليل الله.

لا إله إلا الله: موسى كلم الله.

لا إله إلا الله: عيسى روح الله.

لا إله إلا الله: محمد حبيب الله.

لا إله إلا الله: الأنبياء خاصة الله.

لا إله إلا الله: الأولياء أنصار الله.

لا إله إلا الله: الرب الإله، الملك الحق المبين، خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، رب

السموات والأرض وما بينهما، العزيز الغفار.

لا إله إلا الله العلى العظيم.

لا إله إلا الله الحليم الكريم.

سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فيتوكل المؤمنون.

حسبي الله، أمنت بالله، ورضيت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أتوب إليك
بك منك إليك، ولولا ما شئت ما تبنت إليك، فاشمع من قلبي بحجة غيرك واحفظ جوارحي من مخالفة
أمرك.

واتقه لئن لم ترعني بعينك، وتحفظني بقدرتك: لأهلكن نفسي، ولأهلكن أمة من خلقك ثم
لا يعود ضرر ذلك إلا على عبيدك.

أعوذ بما فاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت
كما أثنيت على نفسك، بل أنت أجل من أن أثنى عليك، وإن هي أعراض تدل على كرمك قد
منحتها لنا على لسان رسولك، لتعبدك بها على أقدارنا لا على قدرك، فهل جزاء الإحسان الأول
الكامل إلا الإحسان منك؟

يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبي الهادي، بل بحرمة
السبعين والثمانية بل بحرمة أسرار مامتك إلى محمد النبي الأمي، بل بحرمة سيدة أي القوان من
كلامك، بل بحرمة لسبع المئاتي والقرآن العظيم، بل بحرمة كعب المنزلة، بل بحرمة الاسم الأعظم
الذي لا يضرمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم بل بحرمة قل هو الله أحد الله
الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أكفى كل غفلة، وشهوة، ومعصية، فيها تقدم وفيها تأخر
واكفى كل طالب يطلبني بالحق وغير الحق في الدنيا والآخرة، فإنه لك الحجة البالغة، وأنت على كل
شيء قدير وأكفى هم الرزق، وخوف الخلق، وأسلك في سبيل الصدق، وانصرني بالحق، وأكفى كل
هم وغم دون الجنة، واكفنا كل عذاب من فوقنا، أو من تحت أرجلنا، أو يلبسنا شيئاً، أو يذيق
بعضنا بأس بعض، واكفنا شر ما تملق به علمك مما كان ويكون، إنك على كل شيء قدير.

سبحان الملك الخلاق سبحان الخلاق الرزاق سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة،
فتعالى عما يشركون، سبحان ذي العزة والجلل، سبحان ذي القدرة والملكوت، سبحان من يحيي
 ويميت، سبحان الحق الذي لا يموت، سبحان القائم القادر، سبحان القاهر، وهو القاهر فوق عباده،
وهو الحكيم الخبير، سبحان القائم الدائم.
قل: حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون.

أعوذ بالله من جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شمانة الأعداء، وأعوذ
بالله: ربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

يا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه: أنصرف بالخوف منك والتوكل عليك،
حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك ولا أعبد شيئاً سواك.

أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنت قد أحطت بكل شيء علماً.
نسألك بهذا الأمر الذي هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات: أن

تسخر لنا هذا البحر: بحر الدنيا وما فيه ومن فيه، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان. وسخر لى كل بحر، وسخر لى كل جبل، وسخر لى كل حديد، وسخر لى كل ريح، وسخر لى كل شيطان من الجن والإنس، وسخر لى نفسى، وسخر لى كل شيء، يامن بيده ملكوت كل شيء، وانتصره باليقين وأيدى بالروح الأمين.

صدق الله وعده، وتصبر عبده، وهزم الأحزاب وحده. طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلاً من خلق الأرض والسماوات العلا، الرحمن على العرش استوى، له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى.

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، نسألك بهذا الاسم العظيم الذى حفظت به أوليائك الكرام، إنك أنت الملك العلام، أن تجعلنى بالأسوة الحسنة التى كانت فى إبراهيم عليه السلام والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً، حتى تؤمنوا بالله وحده.

جل ربي أن يوجد بشيء أو يفقد بشيء، إنه لن يضر معه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم.

حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وبسبح كرسيه السموات والأرض ولا يتوده حفظها وهو العلي العظيم.

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا لك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن سئنا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ألم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وترزق من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتفرج الحى من الميت وتفرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب.

الذى خلقني فهو هديني، والذى هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين، والذى يمتني ثم يحيين، والذى أطعم أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين، رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين، واجعلنى من ورثة جنة النعيم، واغفر لى إنه كان من الضالين، ولا تحزنى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للناجين.

سبح لله ما فى السموات، والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يخرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك

السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور.

هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. والضحى والليل إذ سجى، ما ودّعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولنسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يمدك بتينا فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث.

ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب.

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من لله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين.

قد آفح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجر عظيم.

إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قاتنون، والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك في جنات مكرمون.

اللهم إنا نسألك صحة الخوف، وغلبة الشوق، وثبات العلم، ودوام الفكر ونسألك سر الأسرار المانع من الإصرار حتى لا نكون لنا مع الذنب أو العيب قرار واجتنبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التى بسطتها لنا على لسان رسولك، وابتليت بين إبراهيم خليلك فأنتهم قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذرئى قال لا ينال عهدي الظالمين.

فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم وتوح، واسلك بنا سبيل أئمة المتقين.
باسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون.
حسبي الله، آمنت بالله، رخصت بالله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله، أشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

رب اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات، والحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين،
إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين.

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.
رب إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا فاغفر لي وتب عليّ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من
الظالمين.

يا الله يا علي يا عظيم، يا حلّيم يا عليم، يا سميع يا بصير، يا مرید، يا فدير، يا حيّ، يا حيّوم،
يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو، يا هو، يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، تبارك اسم ربك ذي
الجلال والإكرام.

اللهم صلّي باسمك العظيم الذي لا يضرّ معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي منه سرّاً
لا تضرّ معه الذنوب شيئاً، واجعل لي منه وجهاً تقصّي به الخوائج لقلبك والعقل والروح، والسرّ
والنفس والبدن، ووجهاً ترفع به الخوائج من القلب والعقل، والسرّ والروح، والبدن والنفس، وأدرج
أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة، وإسقاط الملامة،
ونزل الكرامة، وظهور الإمامة، وكمل لي ما أبليت به أئمة الهدى من كلماتك واغنى حتى تغني لي،
وأحبني حتى تحبني في ما شئت ومن شئت من عبادك، واجعلني خزانة الأرحمين، ومن خلاصة المتقين،
واغفر لي فإنه لا ينال عهدك الظالمين.

طس؛ حم عمق؛ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان.
الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اهدنا
لصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

تم الحزب بحمد الله

خاتمة

وأما الخاتمة:

فكنت منذ عشر سنين وأنا بالقاهرة بجامع الحاكم آتى إلى الولي أبي عبد الله الحكيم المرسى، وكان الحكيم هذا يحمله الشيخ ويحمي، فقال لي: كنت في سفينة فذكرتك فنسبك بعض من كان فيها إلى بعض المشايخ، فقلت أنا: إنما هو من أصحاب شيعتنا أبي العباس المرسى رضى الله عنه، فإن كان الأمر كما قلت لهم فاكتب لي ذلك بخطك، فكتبت له في ذلك الوقت ما أنا أذكره إن شاء الله تعالى. وهذا الكتاب لما كان موضوعاً لمناقبة الشيخ أبي العباس المرسى رضى الله عنه، وهذه اللامعة سواراً لرند هذا الكتاب، وباقوته نختم بها عقد هذه الأبواب، ويتبع ذلك وصية كتبت بها إلى إخواننا بالإسكندرية وأنا إذ ذاك بالقاهرة مستهل ربيع الأول الذي هو من سنة أربع وتسعين وستمائة. ثم بعد ذلك قصيدة تضمنت وصايا ومطالبات من الحق تعالى لعبده مختتمة بمذبح رسول الله ﷺ، وبها نختم الكتاب إن شاء الله تعالى جعل الله ذلك كله لوجهه الكريم بفضله.

وهذه اللامعة المثيرة والسرّة الخطيرة هي القسم الأول من الخاتمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.
أما بعد: حمداً لله الراجب حمده، الثبته علياؤه ومجده، الباهرة آياته، الظاهرة دلالاته، الذي أشرق نوره في قلوب أوليائه فاستنارت به سموات أرواحهم، وأرض نفوسهم وأشباههم، الله نور السموات والأرض، نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بطاعته وخدمته، وجعل قلوبهم محلاة لذاته، ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر في كل شيء عموماً، ظهر فيهم بأسراره وأنواره، كم ظهر فيهم وفي عداهم بقوته واقتدره، ألتفتهم بذكره طلبة، وقلوبهم بنوره بهجة، إن نطقوا فعمته وإن استمعوا فعمته، فكلم من لواء ولاية يخفق عليهم، وكلم من منشور خلافة قد خرج إليهم، أدخلهم إليه مدخل صدق بالغناء عن سواه، وأخرجهم للخليفة مخرج صدق، باقين بنوره وسنانه، فهم برازخ الأنوار، ومعادن الأسرار، وصلهم لما قطعهم وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم عنهم وعلى أسرارهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لوسمهم.
ولا تعجب من اتساع أنوارهم، ولا من إحاطة أسرارهم، فإن نور قلوبهم من نور الله، قال ﷺ:

«اتقوا قراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١).

وما إحاطة أسرارهم فقلوبه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»^(٢).

فلهم على قدر إربهم من نبهم صلوات الله وسلامه عليه التحق بمقام القدراتية، والدخول إلى حضرة الوحدانية.

وسمعت رحمكم الله أن وُدكم على اختلاف مراتبه عندنا مسياره، ولدنيا اعتباره، فيميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، وإن تزد من المدد على يد عبد حسب ما تزيد من الوُد فيه، كذلك رتبة الإله الحكيم والقادر العليم.

وبالحكمة، فأعيان المظلوبات من الأدب الباطن وامتنال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا جمالا، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يَأْيَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ (٣).

والوفاء بالعهد: قال الله تعالى: ﴿يَأْيَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَوْا بِالْعُقُودِ﴾ (٤).

والتوبة قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٥).

والإنابة والاستسلام قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَسُئِمُوا لَهُ﴾ (٦).

والاستجابة قال الله سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ (٧).

والاتباع لرسول الله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٨).

وشهود كل نعمة من الله قال الله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٩).

وشهود الهدى من الله قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْدِيَ لَوَلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (١٠).

لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد لمهتدين بحبه، الباقيين على وده، المتعمين بقربه وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته، وجعلنا من أهل ولايته بنه وكرمه، إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وأزواجه وسلم تسليما كثيرا. وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه ينشد:

وغيثي لي مغي قحليسي . وغيثيت كما غي
وكنا حيثما كانوا . وكانوا حيثما كنا

والمظهر الأعلى، ولبرزخ الأسنى، ومشرق الأنوار، ومعدن الأسرار، من له الفتح والفتح، الخاتم، الخاتم للمقامات العينية بالتمام، رسول رب العالمين وسيد الأولين الآخرين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، فهو نور الأنوار، سر الأسرار، إليه تنزل الأسرار الربانية، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية، أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم، وأخذ أهل الباطن منه باطنهم، وقال ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء (١١)، فكل على قدر إزمته، وإزمته على قدر نوره، ونوره على قدر فتحه، وفتحته على قدر صفاء قلبه، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه، ومعرفته بربه على حسب ما سبق له من وجود حبه، غير أن علماء الباطن أحق بالإزمت وأولى، وأقرب نسبة وأعلى، لأن علمهم تلزمه الحشية، وتكتنفه العظمة، وحقيقة

(٧) الشورى: ٤٧.

(٨) آل عمران: ٣٦.

(٩) النحل: ٥٣.

(١٠) الأعراف: ٤٣.

(٣) انشاء: ١.

(٤) المائدة: ١.

(٥) النور: ٣٨.

(٦) الزمر: ٥٤.

(١١) رواه أحمد وأبو دارم الترمذى وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعا وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما.

الإرث أن ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث على الصفة التي كان بها عند الموروث عنه. فكل صاحب علم لا تصحبه خشية فليس بأهل لأن يكون وارثاً، وقال ﷺ: «العلماء ورتة الأنبياء» أي العلم بالله لأن العلم بالله يورث الخشية له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١٢٢).

ولم تزل سلسلة الصلاح والشهادة والولاية والصدقية والقطبانية تمتد من ذلك البرزخ الأعلى المحيط صلوات الله وسلامه عليه إلى وقتنا هذا، ولن تزال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿مَا تَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (١٢٣) أي ما نذهب بولي إلا ونأتى بخير منه أو مثله.

وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأنبياء، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الباب لقيط لا أب له، دعوى لا نسب له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه، ولغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب، ولم يقده زمام التربية والتدريب.

وشيخنا وإمامنا وقودتنا في هذا الشأن أوجد وقته، وعلامة زمنه، علم العارفين، قطب المهدين، مظهر سناء الحقيقة، ومبين معالم الطريق، العالم بالأسماء والحروف والدوائر، الجامع لعلم الظواهر والسرائر، سيدنا ومولانا شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسى الشاذلي قدس الله روحه، ونور ضريحه، هو الذي اقتبسنا من أنواره، وسلكتنا على نهج آثاره، وهو الذي أسرع بأسرارنا حتى لحقت، ونفق ألسنتنا حتى نطقت غرس غراس المعرفة في قلوبنا فأنبعت ثمراتها، وفاحت زهراتها.

وهو الذي بفضل الله وعدها، وبالكلام في العلمين أشار لنا، لا ننسب إلا إليه ولا نعتد في هذا الشأن إلا عليه، فمن نسبنا إلى غيره فهو بأمركنا جاهل، أو عارف متجاهل، ومن نسب تلميذاً إلى غير أستاذه فهو كمن نسب ولداً إلى غير أبيه، وهذه الآية أحق أن يريعى نسبها، وأجدر أن يحفظ سببها، إذ تلك الآية تفتقر إلى هذه، وهذه لا تفتقر إلى تلك.

وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذي سرت فوك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهضك حاله.

شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى.

شيخك هو الذي مازال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلت فيها أنوار ربك، نهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصل إلى الله، ومازال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فرج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وريك، هنالك محل الولاية من الله، ومواطن الإمداد من الله، وبساط التقى من الله، ثم إن

شاء أبقاه في بحر الفناء غريقاً، وإن شاء أرجعه إلى ساحل البقاء مُحَقَّقاً ومُحَقِّقاً.
فصاحب الفناء له التَّلَقُّى من الله، وصاحب البقاء له الإلقاء عنه.
وصاحب البقاء يتوب عن الله، وصاحب الفناء يتوب الله عنه.
وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسبه، وانفتحت حضرة قدسه، وصاحب البقاء باق بربه في
حضرة قدسه.

وصاحب لفناء مدعو إلى الله، وصاحب البقاء داع إلى الله، وهو محل الخلافة والنباية مع الإذن
واستكين، والرسوخ في اليقين داع إلى الله على بصيرة من الله. قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾
أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴿١٦٤﴾. أى على معاينة ومطالعة ومشاهدة، لا أدعو إليك
وأنا غائب عنك، بل أدعو إليك وأنا ناظر إليك.

وهذا الطريق طريق الأنبياء والمرسلين، وأكابر الصّديقين، وهى المقام الأكمل، والمنهج الأفضل،
فمن نسبنا إلى غير هذا الإمام مع العلم بنسبتنا فهو مكابر ومعاوند، ومن نسبنا إلى غيره مع الجهل
بنسبتنا أيضاً فهو عن سبيل الرشده حائد، مخالف لأمر ربه، غير مرأوب لقلبه.
ألم تسمع إلى ما قال المولى سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (١٦٥).

فاقه سبحانه (١٦٦) يحقق نسبتنا من هذه الطائفة، وأن يترقّانا على محبتهم، وأن يجعلنا دارجين على
مدرجتهم، وأن يزيدنا فيهم وداً، ولا يجعل من نقض لهم عهداً، يئنه ولطفه.
والحمد لله وكفى. وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام
المؤمنين، محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١٦٤) يوسف: ١٠٨.

(١٦٥) الإسراء: ٣٦.

(١٦٦) لعل الصى ها «فاقه سبحانه وتعالى تسأل أن يحقق» بدليل ما بعده.

وأما الوصية المكتوب بها إلى بعض إخواننا بالإسكندرية فهي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سلام الله ورحمته وبركاته على الإخوان المحبين، والأوداء المحبوبين، حفظهم الله وتولاهم، وحرسهم ورعاهم، وأوسع عليهم من فضله، وأفرغ عليهم من عطائه وبذله، وأحل قلوبهم محل المزانة والتفهم، والمفاتيح والتكريم، ورزقهم الطاعة والعبول، والسير إلى الله والنوصل، والإذن من الله والدخول، وقدس أرواحهم، وفسح في غيبه مراحهم، وبث لهم من نوره ما يكون لهم هادياً، وأعطاهم من حفظه ما يكون لهم من أغيار الدنيا والآخرة وأقاراً.

اعلموا رحمكم الله أن العناية الإلهية وإن كانت غيباً فلها شهادة تدل عليها، ودلالة تهدي إليها، فتلمحوا عناية الله فيكم بوقوفكم على حدوده، ورعايتكم لعهوده، ألا وإن من علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه، ومن علامة محبة العبد لله، أن لا يؤثر عليه شيئاً سواه، ومن علامة عدم الإتيار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتيار.

والسعيد من أعطاه الله قلباً مفكراً، وبصراً معتبراً، وأذناً تسمع من الله، ونفساً ناشطة إلى خدمة الله، وأحق ما يفتقد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره المرافقة وباطنه شهود النعمة، فبا شكره من لم يثقل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيع عهوده، فعليكم ورحمكم الله بالشكر لنعمه فيكم.

ألا إن أبواب الغفلة والعمى يطلبون من الله مجتدات النعم وهم لما أعطاهم غير شاكرين، وكيف يجتد عليك نعمة أنت طالها وقد ضيعت شكر نعمة طلبتك حتى وصلت إليك، فالطالب لنعم الله أولى ما يطلب به الشكر لله، والشكر يطلب لك من المشكور، وإن كنت صامتاً، ويستجدي لك بمن شكرته وإن كنت عن الطلب ساكتاً، وقد ضمن الله المريد لشاكرين وما استغنى، فقال عز من قائل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(١).

فإذا كان قد ضمن لهم الزيادة على ما أعطاهم، فكيف لا يديم لهم ما كان منحهم أولاً، ألا إن من أحب بقاء شيءٍ عنده قيده ببقائه، خيفة زواله، فقيداً نعم الله فيكم بوجود الشكر. ويستعان على الشكر بالنظر في أيادي المحبين، وكثرة صنائعه، وسوايق مننه ولواحقها، وبداية نعمة وخواتمها، فإنك لم ترم بصر الإيمان إلا وقع على نعمة سابقة، ومئة منه لاحقة.

ويؤكد ذلك عندك نظرك لمعاملتك معه، وشهودك لمعاملته معك، فإنك إن نظرت ما منه إليك لم تجد إلا فضلاً وإحساناً، وإن نظرت ما منك إليه لم تجد إلا غفلةً وعصياناً.

وأصل الخبرات، ومعدن لبركات، العمل بطاعة الله، والتجنب لمعصية الله، وعليكم بتصحيح التوبة فإنه ينبت عليها ما بعدها، وتعود بركاتها على ما قبلها، وما من مقام إلا وهو مفتقر إليها.

(١) إبراهيم: ٧.

وما زكت الأحوال، ولا قبلت الأعمال، ولا ثبت مراتب الإنزال، إلا بتصحيح التوبة، وعمودها يدل على خصوصها.

ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾، فعم جميع المؤمنين بالطهارة فدل ذلك على عظيم قدرها، ويستعان على التوبة بالفكرة، ويستعان على الفكرة بالخلاوة، ويستعان على الخلاوة بمعرفة آفات الخلطة.

ومن علامات الوصول إلى الغايات، وجود تصحيح البدايات، ولأن يصحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يظلمك على سبعين ألف غيب ويفقدك إياها.

أذكر الله تعالى بلسانك، وراقبه بقلبك، فها ورد عليك من الله من خير قبله، وما ورد عليك من ضده دفعته، رجاءاً إلى الله في الدفع والجلب، فإن خامر سرُّك شيء، من ذنب أو عيب أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع، أما من الذنب والعيب فواجب شرعاً، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميل فألته.

واعتبر باستغفار الرسول ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخره، هذا في معصوم لم يقترب ذنباً قط وتقدس عن ذلك ﷺ، فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب في وقت من الأوقات!

واعلموا أن الله قد أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات، فأى من فاته من الطاعة صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك فلا تعملوا شيئاً من الطاعات، ولا تستفتوا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما يرضى به المدعون من جرى الحقائق على ألسنتهم، وخلقوا أنوارها من قلوبهم، وإن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرة لباب الغيب، فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه.

وإنما حجاب لغيوب، وجود العيوب، فالتطهر من العيب، يفتح لك باب الغيب، فلا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولا يطالب نفسه به، فذلك حال الجاهل الذي لم يفقهوا عن الله، ولا واجههم الملد من الله.

والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف الوقت عليه استنبط أدبه، ولا يستبطن مطلبه.

وإن ملكوت الله لا يؤذن بالدخول فيه إلا لمن طهر من آفات البشرية، وقام بوفاء العبودية، والتطهر من آفات البشرية، بالتخلق بأخلاق الله، ووجود الفناء عما سوى الله، والتحقيق بالعبودية بالامتثال لأوامر الله، والاستسلام لأحكام الله، فإن تصل إلى ذلك، فلك منقسط في الغيب، وستوطن في الملكوت وواصلك الإمداد وقابلك من الله الزيادة.

وتوصل إلى ذلك بإقلال النظر إلى الظواهر؛ ورعايتك للسرائر، وأنه لا يشفى السرائر برهان الظواهر، إلا أن يكون معها خالص حب يباشر القلوب وإشراق نور يذهب بظلمة الذنوب، وإنما طال عليهم الطريق لأنهم لم يسكوها على منج حق، ولم يدخلوا فيها مدخل صدق، ولو أنهم فعلوا لم تحتجب عنهم المطالب، وكان ما يطلبونه لهم طالب.

بيان واعتبار وإشراق أنوار

لا تتفقد الوقت بظهور الواردات، ولا بكثرة الطاعات، ولكن انظر إلى نعمتك يا الله، وإجلالك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ولا يوجد واحد منها إلا وجد بعينها فاعلم أن شدة بك عناية أبداءها، وودائع أخفاها، واشكره على ما أسدى، واحمد على ما أهدى، واعلموا رحمكم الله أن وذككم على اختلاف مراتبه عندنا مسياره، ولدنا اعتباره، فمسل القلب إليك على حسب ميلك إليه، ولن يزد من المدد لعبد على يد عبد إلا بحسب ما يزيد من الوفاء فيه، كذلك رتبته الإله الحكيم، والقادر العليم.

وبالجملة فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتنال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ والوفاء بالعهد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ والتوبة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ والإنابة والاستسلام قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ والاستجابة لله قال الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ والاتباع لرسوله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وشهود كل نعمة من الله قال الله جل ذكره ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وشهود الهدى من الله قال الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين الدائمين على حبه، اليقين على وده، المنعمين بقربه، وأفرغ علينا وعليكم من نور غنايته^(١)، وجعلنا من أهل رلايته، بمنه وكرمه آمين.

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وحسبه وعبد كثيرًا،
وهذه القصيدة الموعود بها:

فلا والله ما طابت حياة	سوى بالقرب من كنف الحبيب
فلا تخر سوى داراً لسدى	وعبد عن الأجارح والكتيب
وما لا تقي الأحبة مثل بعد	تفتت من حبات القلوب
ومن يعيش معززة شروذاً	فلا يسلم مقاساة الكروب
ودونك فاستيق نحو المصالي	ولا ترضى ببدون من نصيب
ولا تقشع بغير العز مرقى	وسدد نخوة سهم المصيب
وأهض همة إن لم تشرها	أقمت بموطن النكس الكتيب
ولا تيش وإن طالت لينال	فكم شمس بدت بعد الغروب
ولا تسأم من التذآب يوماً	فإن العز في ذاك السدوب

(١) تكرر من أول قوله: وبالجملة فأعيان المطلوبات في الامة المنيرة والذرة الخفية، إلى وصية الإحسان بالإسكندرية. ولا مانع من تكراره في كتبها.

فذاك الفتح في نظر الأريب
 فنعيم السرب من مولى محب
 فليس لغيره كشف الكروب
 فتقطع عنك نضجات الغيوب
 تجلّت فيك عين فرج قريب
 فإن الله غفار الذنوب
 فتحرم رتبة الرجل اللبيب
 وكم لله من سر غريب
 وقنع عنك موفور النصيب
 ويلهو عن مراقبه لريب
 أحاط به فمحبك من عجيب
 فتخشى قهر علّام الغيوب
 مهين إن يدع نوح الأريب
 ألم يخرجك من غم الكروب
 وعزّقه التناول للنصيب
 وأعطاه مودات القلوب
 يسائر إلى وقت المشيب
 إلى أن يرتدى ثوب الأريب
 من الرحمن شذاً من قريب
 وداداً كان في غيب الغيوب
 ولا تجنّح إلى مرأى قشيب
 ويوم «الثّ» فاذكر يا حبيب
 وحفظ العهد من شيم اللبيب
 ونقطة دارة الأسر الغريب
 وأسرّ ذاك بالأمر المحب
 فليترك لو أجبست مستجب
 لحضرتنا وتوصل في لدؤوب
 وهينته تقلقل لقلوب
 من العذب الجنى المستطيب
 كنوس اللطف من كف المحب
 عروس الحسن تجلّي لليب
 إذا ألقيت سمعك من قريب
 ترى الأسرار تسرع للقريب

ولا تحزن إذا ما فات فان
 ولا ترضى بغير الله ذخراً
 ولا تشكو لغير الله ضرّاً
 ولا تترك لغير الله يوماً
 فكم من كربة عظمت وجلّت
 ولا يمنعك ذنب من رجاء
 ولا تحزن إذا ما ضاق عيش
 وكم لطف خفى في كفاف
 وكم من محنة في السر تزدى
 ولايس حيلة للوفر يزهو
 يحله البقي وصف استقرار
 ألم تعلم بأن الله فرد
 ألم يخلقه من ماء مهين
 ألم يودعه في الأرحام دهرأ
 ألم يجرى له النديين رزقأ
 ألم ينعم عليه بهد لطف
 وهذا المهد ليس له براج
 وأسقط عنه تكليفاً وأمرأ
 فحين أتى البلوغ أتى بلاغ
 رضيع اللطف لا تنسى ودادى
 ريبة فضلتنا والجود أروع
 لطيفة كوننا لا تنس عهدى
 وقد أعطيتي عهداً وثيقأ
 ألم أجعلك سرأ في وجودى
 ألم أظهر صفاتى فيك جهراً
 ألم يأتك إرسالى وأمرى
 أنك كلامنا لتجد سيراً
 كلام ليس يشبهه كلام
 لطائفه على الأسرار أحل
 إذا تلتّ مثنائيه أديرت
 وأية آية تلت تراها
 وأنوار وأسرار تراها
 إذا ناديت كلا يا عبادى

يبدل الجهد في طوع الحبيب
 ليحمر نوره رين القلوب
 إلى الرحمن بالسر الغريب
 وكل الخلق في أمر مريب
 بشمس هدى تنزه عن غروب
 وأعطاه مودات القلوب
 يطعن هكذا فعل الحبيب
 فخر بأن للفتن الأريب
 وحسبك منه من سر عجيب
 هو الكشاف أزمت الكروب
 كفاه ثناء علام الغيوب
 وسلم في الصباح وفي الغروب
 صلاة لا تمل من الذنوب
 بهم رب العباد من الذنوب
 سوى جاء النبي لذي الكروب
 وداركه بلطف من قريب
 ويلفه إلى أوتي نصيب
 مثلاً منك شار العيوب
 من الآفات نحو الذنوب
 ووالاني بإجزال النصيب

وليس إجابتي قولاً ولكن
 وقد أرسلت خير الخلق طراً
 أتي بالتهج المختار يدعو
 أتي والأرض قد ملئت ظلاماً
 فكشف ظلمة كانت وظلاً
 وخصه الإله بكل فضل
 وقال: ومن يطعم خير الرايأ
 وفيما قال لما بايعوه
 أزال الكاف كاف ذاك كاف
 هو السباق غايات المعالي
 وإن القول يقصر عن علاه
 فصل ريننا أبداً عليه
 على آل النبي وكل صحب
 فهم خير القرون ومن هدانا
 وأحمد ليس يرجو في معاد
 ووالده محمد فاعف عنه
 وعيدك يا كريم فجد عليه
 عطاء الله والده أبخه
 على الإسلام فاقبضني سلباً
 كذلك جميع من واليت فيكم

وهذا آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين،

وصل الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً إلى
 يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، اهـ.

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	مقدمة المحقق
١٦	مناجاة
١٩	كتاب لطائف المتن لأبي العباس المرسى
٢١	مقدمة المؤلف
٢١	الولاية « بحث للمحقق »
٢٨	منهج المؤلف في الكتاب
٢٩	حديث الشفاعة
٣١	الإيمان يزيد وينقص
٣٢	الأنبياء خلقوا من الرحمة ومحمد ﷺ عين الرحمة
٣٤	إعلام وبيان
٣٩	شأن الولاية والولي
٤٦	مقابلة الحق لمن أذى أوليائه
٤٦	انعطاف : الولاية ولايتان : ولي يتولى الله ، وولي يتولاه الله
٤٧	فوائد في قوله تعالى « الله ولي الذين آمنوا » الفائدة الأولى والثانية والثالثة
٤٨	الفائدة الرابعة
٤٩	الفائدة الخامسة
٤٩	الولاية الثانية : ولاية الإيقان
٥١	حقيقة القرب
٥٢	تأويل حديث « من عرف نفسه عرف ربه »
	بحث للمحقق حول برهنة الرسول على صدقه وتحذير العرب بصدقه
٥٣	دون الجنوح إلى إثبات وجود الله سبحانه
٥٤	الداعي إلى الله يكسوه الله كسوتين : الجلالة والبهاء
٥٧	مراتب الحب : لله وفي الله وبالله ومن الله
٥٨	الحب لله في عشرة
٦١	شراب المحبة
٦٢	بحث للمحقق في المحبة
٦٣	انعطاف : من مواهب الله لأوليائه
٦٦	فصل : في كرامات الأولياء
٦٧	بحث للمحقق في الكرامة

صفحة

٦٩	أموار تسهل الإيمان بالكرامة
٧١	سوء خاتمة من ينكر الكرامات
٧٢	الكرامة تظهر للولي وتظهر لغيره
٧٢	الناس في الكرامة على ثلاثة أقسام
٧٥	الباب الأول في التعريف بالشيخ الشاذلي شيخ أبي العباس المرسى
٨٧	كرامات القطب خمس عشرة
٩١	الباب الثاني في شهادة الشيخ لأبي العباس بأنه الوارث للمقام والحائز قصب السبق بالتمام
٩٩	الباب الثالث في مجريات ومنازلات أبي العباس المرسى
١٠٧	الباب الرابع في علمه وزهده وورعه... إلخ
١١٦	فائدة : حكم أولياء الله في بدايتهم
١٢٥	الباب الخامس في بيانه لبعض الآيات
١٣٩	الباب السادس في بيانه لبعض الأحاديث
١٤١	في حديث حارثة عشر فوائد
١٤٦	في حديث حنظلة ثمان فوائده
١٥١	الباب السابع في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق
١٥٥	الباب الثامن في كلامه في الحقائق والمقامات
١٨١	الباب التاسع فيها قاله من الشعر أوقيل بحضرته
١٨٩	الباب العاشر في ذكره ودعائه
١٩٦	حزب النور لأبي الحسن الشاذلي
١٩٩	حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي
٢٠٢	خاتمة
٢٠٦	الوصية إلى الإخوان بالإسكندرية
٢٠٨	بيان واعتبار وإشراق أنوار
٢٠٨	القصيدة الموعود بها
٢١١	محتويات الكتاب

بقاۃ تجمع بین حسن الاختیار ودقة التحقيق العلمی
وجمال الإخراج الفنّی ، تلقت فیها جهود كبار المحققین
ورغبة دار المعارف فی بعث وتقْدیم الثّمن والمفید من
تراثنا فی ثوب لائق ، مع طموح القارئ المعاصر إلى
التعرف علی أفضل ما خلفه الأسلاف ، مما یُشجّع وعینا
ویُثْری خبرتنا ویُدفع حیاتنا الحاضرة دائماً إلى الأمام .



٠٠٠١٧٨/٠١

